منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عمارة لخوص

القاهرة الصغيرة

رواية

مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

أي تشابه في الأسماء والشخصيات هو محض صدفة

القاهرة الصغيرة

روايـة

عمـارة لخـوص

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

منشورات الاختلاف
Editions EHkhtilef

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-614-01-0032-9

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف
Editions EHkhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

لتنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إلى فيتو رفيلو Vito Riviello

\1933 - 2009\

شاعر كبير وصديق عزيز

«Dal momento che l'amore e la paura possono difficilmente coesistere, se dobbiamo scegliere fra uno dei due, è molto più sicuro essere temuti che amati».

«لما كان الحب والخوف لا يتعايشان إلا بصعوبة،
إذا كنا لنخيّر بينهما، فمن الأسلم أن نكون من المهابين لا من المحبوبين».
"إذا كنا لنخير بينهما"

Niccolò Machiavelli (1527 - 1469) نيكولو ميكيافيلي

«Quanto alla mia ironia, o se vogliamo dire alla mia satira, credo che mi liberi di tutto quello che mi dà fastidio, che mi opprime, che mi offende, che mi mette a disagio nella società».

«أعتقد أن ميلي إلى التهكم أو بالأحرى إلى السخرية يحررني من كل ما ينغّص علي حياتي ويضغط علي ويهينني ويحرجني في المجتمع».

Ennio Flaiano (1972- 1910) إنيو فلايانو

عيسى

شـــرعت في تنفيذ مهمتي عصر يوم سبت من آخر أسبوع أبريل. ركبت الحافلة رقم 170 من شارع ناتزيونالي ونـــزلت في ساحة ديلا راديـــو، ثم واصلت مشواري إلى غاية شارع أنريكو فيرمي مشيا على الأقـــدام. وجدت ازدحاما كبيرا، طوابير من السيارات لا أول لها ولا آخر. الأرصفة غاصة بالمارة من زبائن وفضوليين أمام محلات الملابس، كـــأنهم ذباب يحوم على العسل أو على القاذورات. لما مررت بإحدى الـــواجهات، استوقفتني صورة وجهي المنعكسة على الزجاج. صدمني مـــشهد الشارب الذي صار يحتل مساحة فوق شفتي العلوية. لا أذكر أنـــني تركت يوما لحيتي وشاربـــي ينموان كما يحلو لهما، تعودت منذ المراهقة على قمعهما ونفي وجودهما بموسى الحلاقة. أما الآن فأنا أشبه شخـــصا يكبرني بخمس سنوات على الأقل. بهذه المناسبة أيضا حلقت شـــعري علـــى الطريقة العسكرية، الأكيد أنني سأوفر بعض المال بعد التقليل من الشامبو والاستغناء كليا عن الجال! كما أني ارتديت ملابس رثة، سروالا وقميصا من إنتاج صيني، متخليا عن هندامي الأنيق المعتاد. في المحصلة صرت شخصا آخر.

دسست يدي اليمنى في الجيب الداخلي من معطفي، فهدأت من روعـــي، كل شيء على ما يرام، محفظة الوثائق والنقود في مكانها. ما المشكلة؟ هل أنا خائف من السرقة مثل سائح غر مبتدئ؟ كلام فارغ! أريد أن أطمئن على هويتي الجديدة فقط، فدون وثيقة الإقامة أنا مهاجر

غـــير قانـــوني قـــد أتعرض للترحيل من هذا البلد الأمين في أية لحظة. حفظـــت عـــن ظهـــر قلب جميع المعلومات الإدارية الجديدة من اسم وتـــاريخ ومكان ميلاد وجنسية. لابد من الوقت للغوص في الشخصية الجديدة. في هذه الأثناء، يجب أن أتعود على شاربـــي الملعون.

خالجني إحساس بأنني أسكن جسد شخص آخر، أشعر أني غريب عـــن نفسي. الحق أنني غريب عن روما. هذه المدينة لا أعرفها جيدا، زرتها مرات عديدة، لكن كنت دائما في عجلة من أمري. جئتها لأول مرة تلميذا مع رفاق المدرسة تحت حراسة المعلمين والمعلمات المشددة. معـــرفتي بروما سطحية، ولكن يحق لي أن أتفاخر بأني رأيت بأم عيني الكولوســـيو وفونـــتانا دي تريفي وساحة نافونا وقبة كنيسة القديس بطرس وحديقة فيلا بورغيزي، مثل ملايين من السياح من العالم أجمع. ينبغي أن أكف عن الشكوى، لأن الشعور بالغربة حاليا ليس عائقا بل حافـــزا لأداء الدور. ليكن الأمر واضحا، لست مكلفا بتمثيل دور في فـــيلم بل بتنفيذ مهمة خطيرة. لا أنوي تقليد جيمس بوند أو الشرطي دوني براسكو الذي اخترق عصابات المافيا في نيويورك. لسوء الحظ لا تتوفر لدي المؤهلات الضرورية!

تجـــولت قرابة ساعة ونصف مثل شحاذ متسكع لا وجهة له أو هـــدف. قطعـــت المسافة بين ساحة ديلا راديو وجسر ماركوني ذهابا وإيابـــا. أردت أن أســـتأنس بالحـــي فـــورا. أمعنت في تأمل واجهة العمـــارات، فلاحظت تنوعا كبيرا كالتنوع في الوجوه التي تمر أمامي. أشـــكال آدمـــية من كل الأنواع والأجناس: شباب أفارقة وأسيويون يبـــيعون ســـلعا مقلدة على قارعة الطريق، أطفال عرب يتجولون مع أبـــائهم وأمهـــاتهم المحجبات، غجريات في ملابسهن الطويلة المتنافرة الألوان يطلبن صدقة المحسنين. ها أنا في إيطاليا المستقبل التي يبشر بها أو

يحذر منها علماء الاجتماع. في مثل هذه الظروف، كنت أشبه بحيوان يبحث عن مأوى. ينبغي الحصول على مكان بأي ثمن. لست جشعا، ما أريده هو الظفر بركن صغير تحت شمس حي ماركوني. هل أطلب الكثير؟ لا أعتقد!

قررت الهجوم كنمرة تريد إطعام صغارها الجائعين. مرحلة تسخين العضلات دامت أكثر من اللازم والمباراة قد بدأت فعلا. لا أستطيع تضييع الوقت مثل الأوانس والسيدات خلال مشاوير التسوق! انطلقت كالسهم من ساحة فيرمي وعبرت شارع غريمالدي حتى وصلت إلى وجهتي النهائية. وقفت عند عتبة محل الاتصالات الهاتفية وألقيت نظرة خاطفة على اللافتة المعلقة المكتوب عليها:Little Cairo أي القاهرة الصغيرة. أخذت نفسا طويلا ودخلت بخطى واثقة، مطلقا رصاصاتي الأولى، أقصد كلماتي الأولى بالعربية في ذلك اليوم.

«السلام عليكم».

«وعليكم السلام».

رد علي شخص كنت قد رأيته في الصور الملتقطة له في مكة: حنفي. وهو صاحب المحل، فقد يكون هو قائد الخلية الإرهابية الأولى. إنه في الخمسين من عمره، ثخين البدن، عريض الكتفين، قصير القامة. كان يرتدي قميصا أسود في غاية الأناقة، لو أضاف إليه بدلة وقبعة ونظارة سوداء لكان نسخة عن الممثل الأمريكي الرائع جون بلوتشي في فيلم "ذي بلوز براذرز". يبدو من طينة التجار الأصلاء الذين يستقبلون الزبائن بابتسامة طويلة وعريضة لكسب ثقتهم. فالزبون في نهاية المطاف طفل يحتاج إلى فيض من الحنان والاطمئنان. في الزاوية اليسرى تحت السقف ثُبت بإحكام تلفاز يتدلى كعرجون التمر. حان موعد النشرة الإخبارية على قناة الجزيرة. أربعة شبان عرب يحدقون في

الـــتلفاز للاستماع إلى العناوين، لا يقبلون إزعاجا تحت أية ذريعة. لا يـــستبعد أن يطـــل أسامة بن لادن بالصوت والصورة ليوجه تهديدات جديدة.

طلـــبت الإذن مـــن حنفـــي لإجراء مكالمة إلى تونس، فرد علي بالمـــوافقة مطأطئا رأسه وأوماً لي بسبابته اليمنى لاختيار إحدى الغرف الهاتفـــية دون أن ينبس بكلمة لتركيزه هو الآخر على أخبار الجزيرة. اختـــرت دون تردد رقم ثلاثة لأنه رقمي المحظوظ. كان النقيب جودا (ســـأتحدث عـــنه فـــيما بعـــد) قد أعطاني أربعة أرقام هاتفية تونسية لاستخدامهما حتى لا أثير الشبهات. مع من سأتحدث؟ ماذا سأقول؟ لا جواب لي. لغز! أشعر كأني ممثل يقف على خشبة المسرح أمام الجمهور دون الاعـــتماد على نص مكتوب. علي أن أرتجل، ما لي خيار آخر. اتـــصلت بالـــرقم الأول، فوجدته مفتوحا. انتظرت بضع ثوان، فبلغ مـــسمعي صوت أنثوي يستفسر عمن أكون. ترددت قبل أجيب: «أنا عيسى»، فجاءني الرد سريعا: «ولدي يا كبدي». المفاجأة رقم واحد: لدي أم ثانية حنون وتتحدث اللهجة التونسية مثلي تماما!

دامـــت المكالمـــة عـــشر دقائق تقريبا. تحدثنا عن مواضيع شتى كالمـــشاكل الـــصحية للجد والجدة وتجارة الوالد وآخر أخبار الإخوة والأخـــوات وأحـــوال الطقس. المفاجأة رقم اثنين: لدي عائلة كبيرة، جـــدي وجدتي لا يزالان على قيد الحياة! كان ختام المحادثة مؤثرا، إذ جاء محملا بتوصيات أم عطوف لابنها المهاجر: «رد بالك من البرد وما تنساش العربـــي وما تثيقش في النسا خْلاصْ والقاوريات بالخصوص، ابعد على الشراب والديون، ما تقربش أولاد الحرام الخمج».

أعدت السماعة إلى موضعها وذهبت لتسديد ثمن المكالمة. انتظرت قليلا لأن حنفي مشغول بزبونين يريدان بطاقتين لشحن الهاتف الجوال.

عندما حل دوري، أخرجت من جيبي محفظة النقود وقدمت له ورقة نقدية بعشرة يورو. قلت له إني أجريت اتصالا بتونس، أريد أن يعرف الداني والقاصي أني تونسي، لكنه لم يكترث بتاتا. التفت نحو الكمبيوتر على يساره ليحدد مبلغ المكالمة، أخذ ثلاثة يورو وأعاد لي الباقي ولسان حاله يقول:«متشكرين ومع السلامة». لا، أنا آسف، هذا أمر لا أقبله. يا سيدي المحترم، لا أطلب منك أن تستضيفني في بيتك أو تدعوني إلى كأس شاي بالنعناع في المقهى. إني أطلب مجرد فرصة لأعرفك بنفسي. ألست زبونا جديدا؟ ألا أستحق القليل من الاحترام؟! أنت تاجر وبالتالي تعرف أن الزبون ملك في كل زمان ومكان. بدلا من مغادرة المكان خائبا مهزوما، التزمت موقعي كمسمار ثابت لا يتزعزع. انتبه حنفي إلى إصراري على البقاء، فقال لي:

«عايز حاجة تاني يا أخينا؟».

«أينعم».

اللعنة على كلمة نعم! لا أعرف ماذا أقول له! ينبغي أن أجد مخرجا بسرعة. لم أرغب في أن أكون سببا في فشل المهمة السرية. لقد نبهني النقيب جودا مرارا إلى ضيق الوقت. لحسن الحظ عثرت على مخرج بقدرة قادر.

«ممكن تعمل لي زوز نسخ من وثيقة الإقامة، من فضلك؟».

«على عيني وراسي. ما فيش مشكلة».

تجاوزت العائق بسلام، يمكنني مواصلة المشوار. ألقى حنفي نظرة مطولة على محتوى الوثيقة بلا حرج. ألم يسمع عن ذلك القانون اللعين حول حماية حرمة الخصوصية؟! إنه أشبه بشرطي حدود. لقد جمعتني مساوئ الصدف بأصناف وأشكال مختلفة من أعوان الشرطة في

المطـــارات التي مررت بها. انتهزت هذه الفرصة للقيام بالخطوة الأولى، فبادرته قائلا:

«ما تقوللّيش أنها مدلسة!».

«لا، ما ظنش. كنت بس بشوف العنوان. أنت ساكن في باليرمو مش كدا؟».

«أينعم. ما عنديش برشا مللي جيت لروما».

«هو أنت هربت من صقلية بسبب المافيا ولا إيه؟».

«عـــندك الحـــق، صحيح اللي أنا هربت لكن من البطالة. أنا توا قاعد نلوّج على سرير نرقد عليه وخدمة حلال نعيش منها».

«ربنا معاك».

«آمين».

«أنا اسمي حنفي، صاحب المحل».

«نتشرفو يا معلم حنفي. أنا اسمي عيسى».

«عاشت الأسامي يا عيسى. خلينا نشوفك يا باشا».

«إن شاء الله».

إن شـــاء الله يـــا معلم حنفي سترى خلقتي البديعة كل يوم! هذا عهـــد أقطعه على نفسي. بعد هذا التعارف، شعرت ببعض الطمأنينة. فقـــد حققت الإنجاز الأول لظهوري على الملأ في «القاهرة الصغيرة». طبعا، ليس أمرا خارقا للعادة كظهور مريم العذراء أمام الأطفال الرعاة الـــثلاثة في جوار مدينة فاطمة البرتغالية عام 1917. ينبغي التزام الحذر والتواضع. ما يهم هو تجنب الأخطاء. إلا أن كلمات حنفي حول المافيا ظلـــت تـــصول وتجول في ذهني ورحت أتساءل: «هل سنتمكن نحن الـــصقليين من التخلص من عبء المافيا الثقيل اللعين يوما ما؟». لست متفائلا على الإطلاق.

أحسنت صنعا عندما تجنبت إطالة الحديث مع حنفي. فقد أوصاني النقيب جودا بالحاح بعدم التسرع في كسب ود الآخرين. ينبغي التأني حتى لا أثير الشبهات والشكوك. أخطر ما يواجهني في هذه المرحلة هو الوقوع في فخ النفور. وهذا من شأنه أن يؤثر سلبا على مجريات العملية. يجب أن أتذكر دائما أنني تونسي وأن هذه المنطقة تقطنها أكثرية مصرية. الكثير من الإيطاليين والغربيين لا يعرفون أن ثمة مشاحنات بين العرب أنفسهم. مثلا هناك مشاكل بين السوريين واللبنانيين، بين الجزائريين والمغاربة، بين الليبيين والتونسيين، بين العراقيين والكويتيين، بين السعوديين واليمنيين، إلخ. لهذا السبب لم يتمكنوا من تحقيق الوحدة، رغم القواسم المشتركة من تاريخ وجغرافيا ولغة ودين وبترول. إن نموذج الوحدة الأوربية بعيد المنال.

غادرت «القاهرة الصغيرة» وقصدت موقف الحافلات في شارع ماركوني. وصلت في الوقت المناسب، فركبت الحافلة رقم 170 باتجاه شارع ناتزيونالي. جلست على مقعد قرب النافذة. رحت أفكر في مهمتي السرية: هل اتخذت القرار الصائب عندما قبلت المشاركة فيها؟ ألا يزال في وسعي الانسحاب؟ هل سأكون في المستوى المطلوب؟ أنا قلق ومشتت الذهن. تجتاحني أفكار وذكريات كرياح عاتية دون سابق إنذار. أحاول التركيز. لا أعرف لماذا تطفو على سطح الذاكرة صورة جدي ليوناردو. كنا متحابين جدا. عندما كنت صغيرا، كنا نجلس قبالة البحر في مزارا ديل فالو في صقلية وكنت أستمع إليه ساعات دون ملل.

كانت في جعبة جدي قصص كثيرة قد تملأ كتبا كثيرة. فقد ولد في تونس في كنف أسرة مهاجرة تنحدر من مدينة ترابني في صقلية. عاد إلى إيطاليا في سن المراهقة. كان في سنواته الأخيرة يرغب في رؤية مسقط رأسه. للأسف، كان يعاني من مرض القلب، لم يكن ليتحمل

الانفعـــالات القوية. الأكيد أنه كان يريد أن يدفن إلى جوار والدته في تونس. كان جدي رائعا، لم تكن قصصه حزينة، فهي بعيدة كل البعد عن شبح الحنين أو الوحش القبيح كما كان يسميه. أذكر أنه بكى مرة واحـــدة فقط لما استحضر ذكرى والدته التي ماتت وهو لا يزال طفلا صـــغيرا. هـــو من علمني الكلمات العربية التونسية الأولى: أش اسمك، شنيا احوالك، وين ماشي، يزي عاد، نحبك برشا.

نشأت في مزارا ديل فالو مع الكثير من الأتراب العرب، من أبناء الصيادين التونسيين. كنت أقضي معهم وقتا طويلا في اللعب والتشاجر والتـــصالح حـــتى صـــرت أعد واحدا منهم لأنني كنت أتكلم العربية التونسية بطلاقة.

زرت تـــونس أول مرة مع والدي في سن الثالثة عشر. أبحرنا في ســـفينة في الـــصباح ووصلنا إلى مرفأ تونس في المساء. مكثنا أسبوعين وشـــاهدت بعـــيني الأرض التي ولد فيها جدي. كانت رحلة رائعة لا تنسى. عدت لاحقا إلى تونس عدة مرات.

بعـــد الثانوية، لم يفاجأ أحد من الأهل والأصدقاء باختياري كلية اللغـــات الشرقية. فقد درست العربية الفصحى في المدرسة الابتدائية في مـــزارا ديل فالو حيث أدرجت العربية في المناهج الدراسية منذ عقود. وتولدت لدي رغبة شديدة في إتقان العربية، فدخلت الجامعة في باليرمو بعـــزم وحماس. كنت مولعا بالنحو الذي كان يدوخ الطلبة والأساتذة على حد سواء. كنت من المتفوقين، مما جعل البعض يشكك في أن لغتي الأم هي الإيطالية.

خصصت أطروحة التخرج في الجامعة لعلاقة الزعيم الوطني الإيطالي جوزبـــــي غاريـــبالدي بتونس. لم يكن أمرا يسيرا القيام بهذا البحث. لا أعرف لماذا أحب الأمور المعقدة! قضى غاريبالدي سنة كاملة في العاصمة

التونسية تحت اسم مستعار هو جوزبي باني، إثر هروبه من إيطاليا بسبب حكم الإعدام الصادر في حقه عام 1834 بتهمة المشاركة في عملية لقلب نظام الحكم. بعد الإقامة التونسية، واصل غاريبالدي مغامرته الثورية في البرازيل حيث ساند الحركات التحررية ضد المستعمرين البرتغال والإسبان. في عام 1859 عاد إلى تونس، لكن الباي لم يسمح له بالنزول من السفينة تلبية لضغوط القنصل الفرنسي. لا يزال اسم غاريبالدي يثير ردود أفعال عديدة: فهو في رأي المعجبين بطل ثوري، أما عند الناقمين فإنه قاطع طرق وإرهابي خطير.

بعد حصولي على شهادة التخرج، كنت أزور تونس باستمرار. لقد أسعفني الحظ بزيارة بلدان عربية أخرى مثل الجزائر والمغرب واليمن والأردن ومصر ولبنان وسوريا. في كل مرة، كانوا يحسبونني تونسيا! كنت أعتبر ذلك مجاملة كبيرة. كنت أرغب في مواصلة مشواري الجامعي، لكني لا أحسن أداء دور الخادم الذليل الذي يسهر على تنفيذ أوامر أسياده الأساتذة. شاركت في العديد من مسابقات الدكتوراه، غير أنهم أوصدوا كل الأبواب في وجهي. فهمت أن الجامعة أشبه بنظام المافيا، فاكتفيت بعمل متواضع كمترجم من العربية في محكمة باليرمو. المنحرفون العرب ومعظمهم من المغرب العربي يملؤون السجون الإيطالية، لسوء الحظ أم أقول من حسن الحظ، فأنا كثير العمل. ثم جاء النقيب جودا ليقلب حياتي رأسا على عقب.

بدأ كل شيء قبل بضع أسابيع.

كنت أهم بمغادرة قاعة المحكمة لتناول الغداء، عندما اقترب مني شخص في نحو الأربعين من عمره، طويل القامة ونحيف الجسم. كان يرتدي بدلة رمادية. حسبته قاضيا جديدا أو محاميا جاء يترافع في قضية ثم يعود من حيث أتى. قال بنبرة حادة: «السيد كريستيان مزاري؟».

«نعم».

«أنا النقيب ساندري من الاستخبارات، أريد أن أتحدث معك».

لم تخفني كلمة استخبارات، فقد تعاونت مع قسم مكافحة الإرهاب التابع للشرطة في ترجمة نصوص لمكالمات هاتفية ومناشير تحريضية مكتوبة بالعربية خلال السنوات الماضية، فالأمر لا يختلف كثيرا. صاحبته إلى خارج المحكمة وجلسنا في المقاعد الخلفية من سيارة كانت في انتظارنا. انطلق السائق باتجاه البحر. تجنب نقيب الاستخبارات اللف والدوران، مستغنيا عن مقدمات لا جدوى منها إلا تضييع الوقت وحرق الأعصاب. بدأ بجملة لا تحتمل التباسا: «نحتاج إلى خدماتك يا سيد مزاري».

أخرج ورقة من ملف وطلب مني قراءتها بتمعن. كانت نسخة عن وثيقة تحمل أختاما رسمية، تتخللها كلمات وجمل محذوفة. أما الخط، فيدل على أنها رقنت على الآلة الكاتبة.

الموضوع: عملية القاهرة الصغيرة Little Cairo

تلقت أجهزتنا الاستخبارية معلومة من مصدر موثوق ومؤكدة من طرف زملائنا الأمريكيين والمصريين، مفادها أن خليتين إرهابيتين إسلاميتين متعاونتين تستعدان لتنفيذ عملية إرهابية كبيرة. [redacted]

[redacted]

تمكنا لحد الآن من تحديد هوية أعضاء الخلية الأولى.

يرتاد المعنيون محل الاتصالات الهاتفية المدعو القاهرة الصغيرة Little Cairo والواقع في منطقة ماركوني بروما ويقصده مهاجرون، خصوصا من المسلمين. ويديره المواطن الأجنبي [redacted]

[redacted]

والحامل للجنسية المصرية.

هذه المعلومة الهامة تؤكد أطروحة الخبراء الذين ذهبوا إلى أن تنظيم القاعدة قد تبنى استراتيجية جديدة مقارنة بما سبق. وتتمثل في عدم إرسال إرهابيين إلى الدول الغربية، وإنما استخدام المهاجرين المسلمين المقيمين في بلادنا للقيام بعمليات إرهابية.

إن تفجيرات 11 مارس 2003 الدموية في مدريد تندرج في إطار هذا المخطط الإرهابي الجديد، إذ كان الإرهابي جمال زوغام وشركاؤه مهاجرين مغاربة مندمجين في المجتمع الإسباني.

[redacted]

ينبغي الاعتماد على جميع الوسائل الممكنة للدفاع عن أنفسنا من هؤلاء الإرهابيين الذين يعيشون بيننا. ليست لدينا معطيات كافية لتقييم بنية وطريقة تفكير هذه المجموعة الإرهابية. [redacted]

هناك أسئلة كثيرة تتطلب أجوبة. مثلا هل هاتان الخليتان الإرهابيتان مستقلتان أم تنتميان إلى إحدى المنظمات الإرهابية كالقاعدة؟ ما هي الأهداف الحساسة المختارة لضرب روما بوصفها عاصمة الدولة الإيطالية ومركز الفاتيكان؟ [redacted]

مع ذلك، نعرف منذ مدة أن ثمة أهدافا في أجندة الإرهابيين وهي الكولوسيو والحي اليهودي بروما وكنيسة القديس بطرس ومحطة ترميني والمترو وسفارة الولايات المتحدة في شارع فينيتو. [redacted]

من المحتمل أن تكون مهمة الخلية الأولى تقديم الدعم اللوجستي للخلية الثانية. نتوقع تواجد انتحاريين لإحداث أكبر عدد من الضحايا. لذلك،

ينبغي وضع خطة طوارئ كفيلة بإسعاف آلاف الضحايا وتحضير الرأي العام لأسوأ الاحتمالات.
إننا نعمل جاهدين حاليا لكشف أعضاء الخلية الثانية. من أجل كسب الوقت وإنجاح عملية القاهرة الصغيرة Little Cairo، قررنا [redacted]

[redacted]

روما، 21 أبريل 2005

لم أكن بحاجة إلى تفاصيل أخرى، فنقيب الاستخبارات كان في جعبته جواب لكل سؤال قد يخطر على بالي. بعد دقائق قليلة، أدركت المراد من مهمتي السرية: اختراق الجالية العربية المسلمة في روما والتجسس عليها. الغاية هي منع حدوث عمليات إرهابية فتاكة وإنقاذ حياة الكثير من الأبرياء. أكد لي أن حياتي لن تكون في خطر لأن العملية ستدور رحاها على أرضنا وليس في ملعب العدو. قال لي مطمئنا: «لا تخف يا سيد مزاري، سنكون دائما بجانبك». في نهاية المطاف منحني مهلة للتفكير ولإبلاغه قراري النهائي. عندما ودعني، شد على يدي بقوة قائلا: «لا تنس يا سيد مزاري، وطنك إيطاليا في حاجة إليك. نحن في حرب».

الوطن والحرب كلمتان خطيرتان. ما العمل؟ هل يجب علي تقمص دور منقذ الوطن؟ هل أصير غاريبالدي جديدا؟ الحق يقال، إن كلمة الوطن لا تستثير في أية مشاعر إلا عندما أسمع النشيد الوطني قبيل بداية مباراة للمنتخب الإيطالي! لا أقدر على استيعاب فكرة الوطن بعيدا عن ملاعب كرة القدم. لا أنكر أن هذا الموقف في غاية السذاجة والسطحية، لكنه الحقيقة. ليست قضية فردية، وإنما جماعية. قد يتعلق الأمر بمخيلتنا، إذ أصبح من الصعب الجمع كلمتي "وطن" و"حرب" دون أن يستدعي ذكرهما معا شبح زعيم الفاشية بينيتو موسوليني الذي قاد البلد إلى الدكتاتورية والدمار.

صوفيا

أول ما يرى المولود النور، يجد اسما ينتظره ويقول له: «أهلا، هل تراني؟ أنا اسمك! تشرفت بمعرفتك!». فلنفترض الآن أن الاسم المختار هو كريم أو جميل للذكر وكريمة أو جميلة للأنثى. في البداية، تسير الأمور كما تشتهي الأنفس، لكن عندما يكبر صاحب الاسم، يكتشف أن اسمه لا يتطابق مع طبعه أو مع شكله لأنه ليس كريما ولا جميلا. هذه مشكلة عويصة، لا يمكن للمرء أن يكون كريما وبخيلا، جميلا وقبيحا في نفس الوقت. لذا يصير الاسم عبئا ثقيلا ينهك عاتقنا وسيفا مسلطا على رقابنا.

لا يوجد شخص في العالم يختار اسمه. أعترف أن هذا الأمر ليس بحجم مآسي مهولة كموت الأطفال جوعا واغتصاب النساء في الحروب. ما أعنيه هو أن الاسم مسألة أساسية لجميع المهاجرين. أول سؤال يطرح على المهاجر هو ما اسمك؟ إذا كان الاسم أجنبيا، فإن حاجزا أوتوماتيكيا سيحدد الفاصل بين "نحن" و"هم". إن الاسم يحدد موقعنا في المجتمع. إذا كان اسمك محمد مثلا، فهذا يعني قطعا أنك لست مسيحيا أو يهوديا، وإنما مسلما. ومن المحتمل أن لا تكون إيطاليا لأن والديك ليسا إيطاليين. ليس مهما أن تكون مولودا في إيطاليا، أو تكون إيطالي الجنسية، أو تجيد اللغة الإيطالية، أو... يا عزيزي محمد، في عيون الآخرين لن تكون إيطاليا مائة في المائة أبدا. إذن فالاسم هو العلامة الأولى على هويتنا.

على كل حال، هناك من الماكرين من يبتدع اسما مستعارا. المشكلة معقدة لا تحل هكذا. إنه كمن يضع قناعا لإخفاء وجهه. الكذب على الذات وعلى الغير لا يدوم، والحقيقة ستطفو على السطح مهما طال الزمن. إذا أردت يا محمد اسما مستعارا، فتذكر أنه سيأتي يوم تذهب فيه إلى مصالح البلدية لاستخراج وثائق شخصية. ومن ستجد في انتظارك يا ترى؟ الاسم الأصلي. لا تقل إنها صدفة ليس إلا. هذا الحادث يكفي لينغص عليك بقية اليوم. من يرغب في اسم مستعار أقول له بلا تهكم: تفضل! اختر من الأسماء ما شئت.

أظن أن على الوالدين عدم التسرع في تسمية أولادهم اعتباطا. يجب أن ينتظروا قليلا حتى يتحققوا من طبع الأبناء وشكلهم الخارجي وما إلى ذلك. فالأسماء الخاطئة العشوائية تكلف غاليا لأنها تتسبب في نشوء العقد النفسية. قل لي ما اسمك، سأقول لك من أنت! واضح؟

في غالب الأحيان يستر الاسم إحباطات الآباء والأمهات. لكل اسم قصة. فلنأخذ على سبيل المثال لا الحصر اسمي أي صفية. اختاره أبي دون أن يستشير أحدا. ما أتعسه، كان ينتظر ذكرا وبحوزته اسم هو سعد. قبل ميلادي، كانت أمي قد أنجبت مولودتين، لذلك كانت العائلة تنتظر بفارغ الصبر قدوم الذكر. للأسف الشديد، ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

سعد اسم محبوب جدا في مصر، وينسب إلى البطل القومي سعد زغلول. إنه مثل جورج واشنطن عند الأمريكيين أو جوزبي غاريبالدي عند الإيطاليين. لما حملتني أمي في بطنها، كان أبي يفكر بهوس في الوريث الشرعي أي سعد الصغير. وجاء مولدي ليفاجئ الكثيرين، لا سيما أبي. شعرت بالذنب أول ما فتحت عيني، فقررت أن أهدي بكائي الأول لأبوي إشفاقا على حالهما. هذا ظلم! ثلاث

إناث الواحدة تلو الأخرى، بلا أية هدنة! ظلم! كنا في وضعية لا نحسد عليها. كان نسل العائلة مهددا بالانقراض كبعض السلالات من الطيور النادرة. وكنت سبب هذه المشكلة. رغم حداثة سني (دقائق معدودات لا أكثر)، لم أكن أرغب في أن أكون ناكرة للجميل، فقد أطلقت العنان لضحكة أطربت الحاضرين حتى أؤكد على عرفاني (لله أولا) أنني لم أولد في عصر الجاهلية. لا أريد أن أفكر في عادة الوأد عند العرب!

لم يرغب أبي الاستسلام للأمر الواقع وخيانة مثاله السياسي الأعلى. فقد أخبر الحاضرين بنبرة فيها الكثير من العزة والتحدي: «هيكون اسم البنت على بركة الله صفية زي مرات زعيمنا سعد زغلول!». يا له من عزاء جميل! طبعا لم يكن بوسعي الرفض رغم شعوري بثقل المسؤولية.

كانت صفية زغلول تلقب بـ "أم المصريين" وكانت ناشطة في الأعمال الخيرية ذات النزعة الإصلاحية كتعليم البنات. ويذكر اسمها في كتب التاريخ لسبب في منتهى الأهمية، فهي أول امرأة خلعت الحجاب على الملأ. كما أنها شاركت في ثورة 1919 ضد الاحتلال الإنجليزي.

غالبا ما يذكر اسم صفية زغلول لدورها الكبير في حياة زوجها وللبرهنة على صحة المقولة المشهورة: «وراء كل رجل عظيم امرأة». هذا القول المأثور لا يخلو من الالتباس ويحتمل تفاسير مختلفة. لم أفهم قط المغزى الحقيقي من كلمة امرأة: هل تحيل إلى الأم أم الزوجة أم الابنة أم الجدة أم الحفيدة أم العشيقة؟ ثم إن المرأة التي تختبئ وراء الرجل تثير في نفسي بعض الشك، فقد يسأل سائل: لماذا لا تتقدم هي إلى الأمام؟ ما هو هدف مؤامرتها؟ هل تريد أن تطعن الرجل المسكين في الظهر؟ هل هي جبانة أم خجول؟

هـــذه هـــي قصة اسمي الحقيقي صفية باختصار شديد. لكن منذ قدومي إلى روما، صار لدي اسم آخر هو صوفيا. فليكن الأمر واضحا، لـــيس اسما مستعارا، أي أنني لم أسع إليه، وإنما أتيته هدية. ألا يقال إن الهديـــة لا تـــرد؟ لمـــاذا يـــنادونني صوفيا؟ السبب غامض. لعل هناك فرضـــيتين، الأولى أن الناس يخلطون بسهولة وعن غير قصد بين صفية وصوفيا.

«أهلا، ما اسمك؟».

«صفية».

«صوفيا! يا له من اسم جميل!».

لا أحـــب أداء دور المعلمة التي توبخ تلاميذها: «الاسم هو صفية وليس صوفيا!». لا داعي للشعور بالإهانة ولاختلاق مشكلة من العدم. أمـــا الفرضية الثانية فهي أن أغلب معارفي الإيطاليين أجمعوا على أنني أشبه ممثلة إيطالية مشهورة، خصوصا إذا نـــزعت الحجاب.

«أهلا، ما اسمك؟».

«صفية».

«صوفيا! يا له من اسم رائع!».

«هل تعرفين من تشبهين؟».

«من؟».

«صوفيا لورين».

في الحقـــيقة صوفيا اسم يعجبني كثيرا، وصوفيا لورين امرأة رائعة الجمـــال. قـــصتها مدهـــشة فقد صارت نجمة ساطعة في سماء السينما العالمـــية، بعـــد أن عانت من فقر مدقع. هناك دائما ألسنة السوء من الحساد والأوغاد مستعدة لبث سمومها في كل مكان. يقولون مثلا إنها تزوجت منتجا سينمائيا كبيرا حتى يساعدها في مشوارها الفني. الحقيقة

أن صوفيا لورين موهوبة ومؤمنة بالحلم، مثلي تماما. ما طعم الحياة بلا أحلام؟ لا شيء. من له حلم ويسعى إلى تحقيقه، أدرك سر الحياة. هناك من الناس من يعتبر الحياة ليس هبة من الله، بل عقابا. يا للخسارة! فالحياة رغم كل شيء جميلة!

لا أذكر السنة بالتحديد، لكن لم يكن عمري قد تجاوز اثنتي عشرة سنة. كنا وقتها نقيم في السيدة زينب. وفي عصر أحد أيام الصيف، جاءت لزيارتي فاتن صديقتي الحميمة وابنة خالي وعلامات الاضطراب بادية على وجهها. كانت تخفي شيئا مهما تحت قميصها كأنها سرقت ثيابا داخلية وخرجت لتوها من السوبرماركت. قالت لي: «اقفلي الباب حالا، عايزة أوريكي حاجة». أخرجت من تحت قميصها مجلة نسوية أجنبية مليئة بالصور الملونة، وصرخت في وجهي بنبرة تحمل بعض التهكم: «شوفي حبيبتك مارلين عاملة إزاي!». ألقيت نظرة سريعة على الصور، وأجبتها مدهوشة:

«بتقولي إيه؟! إنتي اتجننتي؟! بتشبه لها شوية، ما خذتيش بالك إني دي سمرا».

«بالضبط، مارلين سمرا زيك وزيي يا عبيطة».

كانت الصور لمارلين مونرو فعلا وهي لا تزال في سن المراهقة أي قبل أن تصير ممثلة مشهورة. كانت تبدو جميلة ولكن لم تكن خارقة الجمال كمارلين صاحبة الشعر الذهبي التي نعرفها ولا نزال نعشقها. للأسف الشديد، فاتن كانت على حق: مارلين شقراء مزيفة. ما أقسى الحقيقة، وما أسوأ التعنت على عدم قبولها. لقد تجرعت مرارة خيبة الأمل، لكن الحمد لله، اكتشفت بعد سنوات قليلة أن أغلبية الشقراوات لسن أصيلات. كان الفرق بين مارلين السمراء ومارلين الشقراء واضحا للعيان. هكذا قطعت الشك باليقين: إن سر جمال

مارلين يكمن في شعرها الذهبـــي. بعد هذه الحادثة، بدأت آخذ مأخذ الجـــد تلك الحكمة العربية القائلة: «الشعر نصف الجمال». الإيطاليون يقولـــون: «طول القامة نصف الجمال Altezza mezza bellezza». قـــولهم لا يقـــنعني. لماذا؟ تخيلوا عاشقين يتجولان في وسط روما، هي طـــويلة القامـــة، بينما هو قصير. بالله عليكم كيف سيتصرف العاشق المـــسكين إذا أراد أن يقبل عشيقته أو يسر في أذنها عبارة رومانسية؟! القامة مشكلة حقيقية، وإذا أراد العاشقان إيجاد حل، فما عليهما إلا أن يحملا سلما صغيرا حيثما ذهبا! لا أرى مخرجا غير ذلك.

ينبغـــي أن أعتـــرف أن مارلين لم تكن السبب الوحيد في هوسي بالـــشعر الأشـــقر. مسكينه مارلين، أخذوها لحمة طرية شهية ورموها عظمـــة تصلح للكلاب مأكلا. ما أكثر الرجال الذين استغلوا طيبتها، بمن فيهم الأخوان كيندي. لقد خاب ظني في جون كيندي، إني لا أزال أتأثـــر عندما أشاهد لقطات اغتياله. بالمناسبة، لقد تساءلت دوما ما إذا كانـــت جـــاكلين على علم بخيانات زوجها لها؟ قرأت مرة في إحدى الصحف جملة منسوبة إلى جون: «إذا لم أضاجع امرأة خلال ثلاثة أيام، فإني أصاب بصداع لا يطاق». قال: «امرأة» و لم يقل: «امرأتي». يبدو أن جاكلين كانت منشغلة بمهام السيدة الأمريكية الأولى! مسكين جون كـــان مـــضطرا لتدبـــر أمره كما كان يفعل أمثاله من ذكور العصر الحجري كأن أدوية مكافحة الصداع لا وجود لها في الصيدليات!

هوســـي بالشعر الأشقر مسألة في غاية الجدية. يجب البحث عن السبب في الطفولة كما يقول فرويد. ربما أسحرتني الدمية باربـــي التي أهداها لي عمي سالم بعد سفره إلى لندن. كنت لا أستطيع النوم إذا لم أحتـــضنها. الأكـــيد أنني كنت أحسد قريناتي الصغيرات الشقراوات لـــشعرهن الأملس كالحرير. كان شعري طويلا أسود وأجعد. وكنت

أبكـــي مـــن شدة الألم كل صباح لما كانت أمي تمشط لي شعري قبل الـــذهاب إلى المدرســـة. كنت أفر من المشط كالدجاجة إذا أبصرت سكينة الذبح.

«صفية! حزعل منك! تعالي هنا دلوقتي حالا».

«موش عايزة يا ماما».

«دا أمر. بلاش دلع».

أنـــا بـــتدلع؟! يا سلام! كان تمشيط الشعر تعذيبا يوميا. بمرور الـــزمن، زاد هوســـي بالشعر الأشقر بدلا من أن يضمحل. من عادة الكـــبار تنغـــيص حياة الصغار بطرح ذلك السؤال الأحمق التافه: «يا أولاد، عايزين تعملوا إيه لما تكبروا؟». كان رفقائي في المدرسة يجيبون كشخص واحد: «دكتور» أو «مهندس». أما أنا فكنت أجيب واثقة مـــن نفسي وبلا تردد: «عايزة أشتغل كوافيرة». ماذا؟! نعم، كوافيرة. لم أكـــن غبـــية، وإنمـــا طفلة عادية جدا. ولم أكن أميل إلى الاستفزاز والمشاكسة. ذات يوم اشتكى معلم الرياضيات لأبـــي قائلا:

«بنتك مش راضية تذاكر».

«ليه؟».

«علشان عايزة تبقى كوافيرة لما هتكبر».

«يا خبر أسود! كوافيرة!».

«والله العظيم كدا. ها ها ها».

يا خرابـــي! لم يغضب أبـــي مني فقط، ولكن من أمي أيضا، إذ حملـــها مـــسؤولية عدم طموحي (كلمة الطموح فخ بالنسبة للنساء، ســـتولى جدتي شرح هذه المسألة عما قليل). الحمد لله، كانت عمتي أميـــنة تدافع عني: «لا يا خويا لا، بشويش على البنت. هي قالت إيه يعني؟! هي عايزة تبقى مغنية ولا ممثلة ولا رقاصة، فال الله ولا فالك!».

علمتني هذه التجربة كيف أحمي أحلامي وأخفيها إلى لحظة تجسيدها على أرض الواقع. الإكثار من الكلام مضر. أتفق تمام الاتفاق مع الفرنسيين عندما يقولون: «من يتكلم، لا يفعل ومن يفعل، لا يتكلم». لذلك، قررت أن ألتحق بحلم الأطفال الجماعي:

«أنا كمان عايزة أبقى دكتورة لما هكبر. نفسي أعالج الأطفال».

«يا حبيبتي! برافو عليكي! صفقوا لها يا ولاد!».

أعظم شيء يطمح إليه مجتمعنا هو أن يكتشف مكامن الأمومة في طفلة صغيرة! إنه دليل على نجاح التربية والأخلاق الحميدة. يحضرني اسم جارنا في القاهرة عمي عطية، كان يحلو له القول: «اللي ابتلاه ربنا بالبنات زي اللي ماسك قنابل في يده، لازم يرميها بعيد بسرعة». عندما كانوا يسألونه عن عدد الأبناء والبنات، كان يجيب: «تَلَت ذكور وأربع قنابل يدوية، هتخلص منها إن شاء الله وقنبلتين ذريتين، واحدة عانس والتانية مطلقة». ليس صدفة أن تكون كلمة قنبلة مؤنثة في العربية والإيطالية معا!

الحقيقة أنني فهمت مسبقا، قبل أن أطلع على كتب نوال السعداوي، أن مجتمعنا لا يحب الإناث ولا يغفر لهن الطموح. كانت جدتي توصينا: «بلاش غرور يا بنات، ما تطيروش في العلالي». من تخاطر في التحليق عاليا، مصيرها الفشل لأن العائلة ستتولى مهمة قص الجناحين بلا شفقة! القاعدة الذهبية الأولى لتجنب المشاكل هي عدم منافسة الذكور وطاعتهم. وفي المقابل، يمكن للأنثى أن تنعم بحماية الذكر طول العمر، من الأب إلى الأخ ومن الزوج إلى الابن. إذا أرادت المرأة عندنا الابتعاد عن أوجاع الرأس، ما عليها إلا أن تتقمص دور النعجة. نعم، نعجة. من الأفضل أن تكون نعجة مطيعة. وإذا سولت لها

نفسها الأمارة بالسوء أن تغادر القطيع، فمصيرها الموت بين أنياب الذئاب! واضح؟

من عادتنا نحن العرب القول: «المكتوب على الجبين، لازم تشوفه العين». لا نستطيع الهروب من القدر، من المكتوب، من القسمة والنصيب. عندما نولد يكتب ربنا على جبيننا كل صغيرة وكبيرة من المهد إلى اللحد. هناك من يعترض على كلامي قائلا: «الرضوخ للقدر هو نفي للحرية الشخصية». الإيمان بالمكتوب هو إقرار بوجود إرادة عليا تتجاوز إراداتنا الإنسانية، مما يساعدنا على قبول المآسي الجليلة مثل فقدان الأحبة. أعترف أن هذه المسألة معقدة لأنها تندرج في خانة الغيب.

يحضرني تفسير أستاذ العربية في الثانوية. في إحدى المرات، نشب نقاش حام حول بيت شعر شهير لأبي القاسم الشابي: «إذا الشعب يوما أراد الحياة، فلا بد أن يستجيب القدر». مسكين هذا الشاعر، توفي ولم يتجاوز عمره خمسة وعشرين ربيعا. اعتبر بعض الطلبة هذا البيت دليلا على كفره، وأصدروا فتوى بحرمانه من الجنة التي تجري من تحتها الأنهار. قالوا إن إرادة الله مطلقة فوق كل الإرادات. حاول الأستاذ تهدئة الأمور بالقول إن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء، وبالتالي على تغيير المكتوب أيضا.

عيسى

فكـــرت في عـــرض نقيب الاستخبارات مدة أسبوع، وتناولته من جوانب مختلفة. قلت في نفسي إن التجسس عمل قبيح مذموم. الجاسوس لا بـــد أن تتوفر فيه بعض الشروط الأساسية إذا أراد أن ينجح: إخلاء قلبه من الشفقة وسريان الخيانة في دمه. رغم ذلك، يجب أن لا أغطي الشمس بغـــربال، فالإرهابـــيون الإسلاميون موجودون فعلا، لم تخترعهم وسائل الإعـــلام من العدم. لقد برهنوا للعالم أجمع على مدى قدرتهم وعزيمتهم، فتفجيرات 11 سبتمبر دليل كاف. في آخر المطاف قررت قبول المهمة.

التقيت ضابط الاستخبارات مجددا في محكمة باليرمو. كان سعيدا بمـــوافقتي. أعطاني ثلاثة أيام لتدبير أموري. لم يكن أمرا صعبا اختلاق ذريعة لتبرير غيابـــي المقبل، قلت لأهلي: «سأسافر إلى تونس في مهمة عمل». والداي لم يقولا شيئا، إذ تعودا من زمان على هذا الابن كثير الأســـفار. غير أنني عانيت الأمرين في إقناع خطيبتي مارتا. فقد رغبت كعادتهـــا معـــرفة كـــل التفاصيل، وأجبرتني على الإجابة عن الأسئلة الخمـــسة: أين ومتى ولماذا ومن وكيف؟ طبعا لم تعجبها الحال لأنها لم تظفـــر بأجوبة شافية كافية، فالعين بصيرة واليد قصيرة. معلوماتي حول عملـــية القاهـــرة الصغيرة شحيحة وحتى لو كثرت، فكان مطلوبا مني التزام السرية التامة.

وصـــلت إلى روما برفقة نقيب الاستخبارات بعد العصر. ذهبنا للإقامـــة في شقة في شارع ناتزيونالي على مقربة من ساحة ريبوبليكا.

قضينا عشرة أيام في عزلة حقيقية، تلقيت خلالها دروسا مكثفة. تعلمت الكـــثير من أصول المهنة الجديدة. واشتغلنا طويلا على الشخصية التي سأتقمصها: مهاجر تونسي لا يتجاوز عمره الثلاثين، انتقل من صقلية إلى روما بحثا عن غد أفضل. بدأنا نخوض في التفاصيل شيئا فشيئا. تحتم علي تغيير اسمي وشكلي وهندامي، لذلك لم أتفاجأ عندما سألني النقيب:

«يجب أن نجد لك اسما عربيا يا تونسي، ماذا تقترح؟».

«عيسى».

«عيسى؟! وماذا يعني؟».

«اسم يسوع عند المسلمين».

«إذا ضـــربك أحد على خدك الأيمن، أدر له خدك الأيسر! هل تريد أن تعمل بهذه الوصية؟!».

«أنا أحب هذا الاسم، فقط لا غير».

«فهمت مقصودك، تريد توزيع الأدوار بيننا، واحد طيب والآخر شرير. من الآن أريدك أن تناديني جودا».

يـــا لها من تسمية! جودا هو الاسم الإيطالي ليهوذا الأسخريوطي الذي خان المسيح من أجل دنانير معدودة. أثناء فترة الاعتزال، اطلعت علـــى وثائق وأشرطة حول الإرهابيين. شد انتباهي فيلم وثائقي حول قائد تفجيرات 11 سبتمبر محمد عطا. كانت وصيته الأخيرة دليلا قاطعا علـــى جنونه: هل يعقل أن يطلب شخص على مشارف الموت أن لا تحضر جنازته امرأة حامل؟! أذهلتني مشاهد الانتحاريين وهم شبان في عمر الزهور من أندونيسيا وباكستان والهند وأفغانستان والعراق ومصر والجزائر والمغرب، مستعدون أتم الاستعداد للتضحية القصوى من أجل الحـــصول على الجنة. لماذا هم في عجلة من أمرهم؟ من أغراهم بأن في انتظارهم عذارى حور العين؟!

سلمني جودا وثيقة الإقامة بعد أيام قليلة. فبدأت رسميا حياة المهاجر في إيطاليا. صار اسمي عيسى، لقبي كاملي، تونسي المولد والجنسية. لحسن الحظ جعلوني عازبا بلا زوجة وأولاد. هذه المعلومة في غاية الأهمية لأن خطيبتي مارتا غيور، وحامية الأعصاب أيضا. لو أنها علمت بأنني متزوج بأي شكل من الأشكال (حتى ولو على الورق) فلن تتساهل معي ولن تمهلني الوقت المطلوب لأشرح لها جلية الأمر. فمن عادتها المبادرة بصفعة، ثم تسوية المسألة باستجداء العفو على وقع بكاء مؤثر.

شاركت في اجتماع في غاية الأهمية خلال فترة تحضير العملية. القاهرة الصغيرة عملية مشتركة بين الاستخبارات الإيطالية والمصرية والأمريكية. عرفني جودا على زميليه الأمريكي جيمس والمصري عنتر. كان مقر الاجتماع خارج روما، على مقربة من مدينة نتونو الساحلية. جلسنا في قاعة واسعة مجهزة بأحدث التقنيات. كانت هناك شاشة كبيرة تعرض فيها صور أعضاء الخلية الإرهابية الأولى على رأسهم حنفي وهو يدخل بيتا في مكة خلسة. علق ضابط الاستخبارات المصري قائلا: «تاريخ التقاط هذه الصور بالغ الأهمية لأنها تثبت أن حنفي لم يذهب إلى الأراضي المقدسة لأداء مناسك الحج. فكان من المفروض في ذلك اليوم أن يكون في وقفة عرفة كسائر الحجاج. السؤال المطروح الآن هو ماذا كان يفعل في مكة؟». جاء الجواب سريعا على لسان جيمس: «لدينا معلومات مؤكدة أن القاعدة تستغل أيام الحج لتنظيم اجتماعاتها دون إثارة الشبهات، ظنا منهم أنه يستحيل ضبطهم وسط ملايين الحجاج».

دعا النقيب جودا الحاضرين إلى التزام الحذر في نهاية الاجتماع: «فلنتجنب ارتكاب الأخطاء التافهة كما حدث مع المصريين الثلاثة في

مدينـــة أنـــزيو». لقد حدثني جودا مطولا عن هذه القضية، إذ تم في أكتوبـــر 2002 إلقـــاء القبض على ثلاثة مهاجرين مصريين مقيمين في مدينة أنـــزيو القريبة من روما بتهمة التخطيط لتفجير المقبرة العسكرية الأمـــريكية في مدينـــة نـــتونو المجاورة ومطاعم ماكدونادلز في روما ومطارهـــا الدولي. عثرت قوات الأمن في مسكن المتهمين على مسدس وكيلوغـــرام ونصف من المتفجرات. أفردت الصحافة مساحات واسعة لهـــذا الخبر، مركزة على الحزام الذي عثر عليه في خزانة أحد الموقوفين بعـــد ثمانية أيام من التفتيش الأول، وسرعان ما أطلق عليه اسم "حزام الانتحاري". في واقع الأمر الحزام لا علاقة له بالعمليات الانتحارية إذ يـــستعمله المـــسافرون وخاصة الحجاج للحفاظ على النقود والوثائق الشخصية أثناء أداء مناسك الحج. خلال المحاكمة تبين أن مالكة البيت الـــذي يقطنه المصريون الثلاثة لعبت دورا مثيرا للتساؤلات والشبهات، وأنهـــا كانت على خلاف معهم بسبب الإيجار. أما علاقتهم بالإرهاب الـــدولي والقاعدة، فحدث عن ذلك ولا حرج، هناك شيخ مسن من جيران المتهمين شهد أمام المحكم، قال إنه سمع أحد الثلاثة ينطق اسم بن لادن على درج المبنى، فسكنه الجزع وسارع إلى إخبار صاحبة البيت! وفي أبـــريل 2004 أفـــرجت المحكمة عن المصريين الثلاثة لعدم ثبوت الاتهـــام، بعد مكوثهم ما يقرب من عامين في السجن. من ورط هؤلاء الأبرياء؟ ولماذا؟

صوفيا

هـــناك ذكـــريات لا تمحـــى كالوشم. يحضرني مثلا اليوم الذي قصـــصت فيه شعر أختي نادية. كانت في حالة يرثى لها، لم يكن لديها مـــن المـــال مـــا تدفعـــه للكوافيرة و لم ترد أن يفوتها عرس زواج أعز صـــديقاتها. أولتني ثقتها كاملة وحسنا فعلت، فلم أخيب رجاءها. لقد وفقني ربنا في مسعاي. كانت التسريحة رائعة بشهادة الجميع. منذ ذلك الـــيوم، صـــرت الكوافيرة السرية لفقيرات الحي. لم يكن همي كسب المـــال، فقد كنت أقنع بعطايا صغيرة كقارورة عطر أو محفظة يدوية أو ثـــوب أو مجلـــة موضـــة، وغير ذلك. كان شغلي الشاغل هو مواكبة الجديـــد، لذلك كنت أواظب على قراءة المجلات الأجنبية المختصة. لم يكن من اليسير الحصول عليها.

مـــن عادة المراهقين المبالغة في الحماس والتفكير دون أخذ الواقع بعـــين الاعتبار. كان حلمي يكبر يوما بعد يوم. كانت أمنيتي أن أصير كوافيرة محترفة. الحلم مثل نبتة تحتاج إلى عناية دائمة وإلى توفر شروط طبيعية كالماء والشمس. أنا لا أبخل على أحلامي، فأنا كريمة بل في غاية الكرم. وأقدم أقصى ما أستطيع من جهد ومثابرة. كنت على دراية تامة بالـــصعوبات، إذ لـــيس من السهل تحقيق هذا المشروع في مصر أو في البلدان الإسلامية لكثرة المحجبات. هذا يعني أن الطلب قليل. شيئا فشيئا بـــدأت أقتـــنع أن المكان المناسب لتنفيذ حلمي هو باريس أو لندن أو روما أو مدريد أو نيويورك!

لم أتـــردد في اختيار اللغات في الجامعة. بذلت جهودا كبيرة لتعلم الإنجليزية والفرنسية. الحمد لله أن اتقاني للفرنسية أعانني كثيرا في تعلم الإيطالية فيما بعد. أنهيت دراستي الجامعية دون صعوبات تذكر. تقدم إلى خطـــبتي العديد من الشبان. طبعا أنا لست شقراء، بل شابة سمراء جميلة، ذات ملامح عربية أصيلة. كان جوابـــي في غاية الاحترام: «أنا آســـفة». كان من بين المترشحين للاقتران بـــي شاب مهاجر مقيم في إيطالـــيا، وهو خريج من كلية الهندسة المعمارية، يسكن أهله في الحي المجاور لحينا، وكان اسمه سعيد. قال إنه يعمل طباخا في مطعم كبير في رومـــا. عـــندما صرت زوجته اكتشفت أمرين هامين: أولا، لم يكن طـــباخا في مطعـــم فاخر وإنما طاهي بيتزا. ثانيا، ينادونه فيليشي وهي التـــرجمة الإيطالية لاسمه العربـــي أي سعيد. من عادة المصريين القول: «جـــاور السعيد تسعد». أنا لست جارته بل أنا زوجته، وعلى الرغم من ذلك، لا أزال أنتظر السعادة معه!

اعتـــرف لي الباشمهندس خلال فترة الخطوبة أنه كان مغرما بـــي من أيام الثانوية. كان يحبني ولكن في السر. لا أذكر أنني رأيته من قبل. فلـــنقل إنـــه كان كسولا بعض الشيء، ماذا كان سيكلفه لو بعث لي رســـالة غـــرام قصيرة أو أهدى لي وردة حمراء؟! يا للخسارة! سلسلة قصص الحب من طرف واحد لا تنتهي.

علـــى ذكـــر الخطـــوبة، الأمور تسير بشكل مختلف في مجتمعنا العربـــــي قياســـا علـــى هنا. يسمح للخاطبَين التحول اليد في اليد والجلـــوس في كافيتريا لاحتساء شاي وتبادل كلمات العشق والغرام، ولكـــن يمنع عليهما منعا باتا المضاجعة قبل الزواج. ماذا عن القبلات؟ من الأفضل نسيانها أو الاكتفاء بالتقبيل على اليدين والخدين. شتان بين المخطوبين والمتزوجين. هذه المسألة لن أتطرق إليها مرة أخرى.

ولتبسيط الأمور، نستطيع القول إن الخطوبة على الطريقة المصرية والعـــربية والإسلامية نوع من الحجز، بعد تقديم الشبكة. هذه الكلمة تحمـــل دلالات عديـــدة لأنهـــا لا تحـــيل فقط إلى المجوهرات المقدمة للمخطـــوبة، وإنمـــا إلى شـــبكة الصياد! السؤال المطروح: من يصطاد الآخر، الخطيب أم المخطوبة؟ في المقابل، ماذا يكسب العريس المستقبلي مـــن وراء هـــذه الصفقة؟ ستكون له الأولوية المطلقة في الظفر بسعيدة الحظ لأن السلعة من نصيب أول زبون حجزها! ما علاقة كلمات مثل حجز وصفقة وسلعة بالزواج؟! ألا يقال إن الزواج نصف الدين؟! لماذا الخلـــط بين التجارة والدين؟! مهلا مهلا، أنا على دراية بأمور الزواج والطلاق، ولا أتحدث جزافا.

قبلت الزواج من الباشمهندس بعد لقاءين فقط في صالون بيتنا. هل كان زواج مصلحة؟ بالتأكيد. وأين الضرر؟ فالزواج يكون قائما على مـــصالح مشتركة وإلا كان كلاما فارغا! لا مجال لحل وسط. الزواج المـــبني على الثرثرة له نهاية واحدة تتكرر في مشهد ممل في المسلسلات المـــصرية والبرازيلية والمكسيكية والتركية التي لا أطيقها. هذا مقتطف منها:

«كنت فاكراك أنك كريم ومخلص وحساس وعطوف والخ، بس بعد الجواز...».

«ما تقوللِيش كدا، أرجوك».

«كـــنت فاكـــراك إنـــك حبـــي الأول والأخير، ومعاك أحلف وأسافر وأعمل شوبينج ونعجز مع بعض، بس بعد الجواز...».

«كفاية، أرجوك».

«كنت فاكراك إنك عمري كله، بس بعد الجواز...».

«خلاص كفاية!».

يجدر القول إنني كنت حرة في اختياري. فمن حسن حظي، كان والـــداي لا يـــتدخلان كثيرا في أمور الزواج، ولا يمارسان ضغوطا أو مـــساومات كغيرهـــم. أبشع الضغوط على الإطلاق تلك المغموسة في النصيحة مثل: «دا عريس لُقطة يا بنتي، لازم تتجوزيه بسرعة، علشان مـــا تبقيش عانس»، أو «مش شايفة يا عبيطة انه بنات عمامك وبنات أخوالك كلهم اتجوزوا إلا نتي!». من عادتي أن أشكر كل من يقدم لي النـــصيحة، إلا أنني أرفض كل أشكال الشفقة. فليذهب المشفقون إلى جهنم!

في حقـــيقة الأمـــر، لم أكن سعيدة بالزواج بحد ذاته، إنما بفكرة الـــسفر للعـــيش في إيطالـــيا بوصفها قبلة الموضة. كنت أتخيل نفسي كـــوافيرة من الطراز العالي أو العمل مع مشاهير مصممي الأزياء مثل فلانتينو وفرساشي وأرماني وغوتشي ودولتشي وغبانا.

كنت متيقنة من النجاح في إيطاليا. فقد فكرت مطولا في تهافت الغـــربيات وبعض العربيات الثريات من أوانس وسيدات على الجراحة التجميلية. وبصرف النظر عن التكاليف الباهظة، ثمة مخاطر حقيقية تهدد الصحة. لقد شاهدت مرارا في التلفزيون وفي الشارع نسوة خضعن لهذا الـــنوع من الجراحة وصدمتني مشاهد النهود المنتفخة والشفاه الكبيرة الـــشبيهة بـــشفاه مهرجي السيرك. كنت أقول في نفسي: «ما أتعس النـــساء، لا يعـــرفن أن سر الجمال الأنثوي يكمن في العناية بالشعر». الـــشعر نـــصف الجمـــال! قـــبل أشهر، شاهدت برنامجا حول الممثلة الأمـــريكية ميشال فايفر. كم كانت جميلة في ذلك الفيلم الرومانسي رفقـــة آل باتشينو، حيث تقمصت شخصية نادلة في مطعم شعبـــي. لجـــأت هي الأخرى إلى عملية جراحية لتغيير الشفاه. برأيي، لم تكن بحاجـــة إلـــيها. لقد أخطأت العنوان، بدل أن تقصد كوافيرة ماهرة،

استسلمت لمشرط الجراح التجميلي. هل من الضروري الحديث عن الممثلة ميلاني غريفيت، زوجة أنطونيو بانديراس الوسيم؟ المسكينة في تدهور مستمر بسبب الإفراط في الأدوية والكحول. أفضل عدم التعليق.

لم يدم حماسي طويلا. للأسف الشديد، الواقع أقوى من الأحلام. قبل أيام قليلة من الزواج، طلب مني الباشمهندس ارتداء الحجاب.

«قلت إيه؟! ما سمعتش كويس. ممكن تقول تاني اللي قلته دا لو سمحت؟!».

«لازم تلبسي الحجاب يا روحي».

«إنت بتهزر مش كدا؟! كنت هأصدقك. والله دانت يا شيخ مصري بالقوي، تعرف تمثل كويس قوي قوي. ها ها ها».

«لا، أنا مش بهزر خالص. دا شرط. اللي أوله شرط، آخره نور يا روحي».

ارتداء الحجاب؟! ربما لم أفهم جيدا. هل سنستقر في روما أم في طهران؟ هل الحجاب إجباري في روما؟ الباشمهندس أي زوجي لاحقا لم يكن يمزح، بل كان يعني ما يقول. هذه ضربة ممنوعة أي تحت الحزام. لو كنا على حلبة الملاكمة، لأعطاه الحكم إنذارا. وكنت أنا سأكسب بعض النقاط مما يعزز حظوظي في الفوز. يجب احترام قواعد اللعبة، أليس كذلك؟ المشكلة الأساسية أننا نعيش في مجتمع حيث يكون الرجل هو الخصم والحكم في آن واحد. ما العمل؟! هل يمكن إحراز الفوز في مثل هذه الظروف؟

حاولت إقناعه كي يتخلى عن هذا الشرط الغريب العجيب. قلت له إن الحجاب ليس فريضة، ولا يمكن أن يكون ترمومترا لقياس أخلاق المرأة. فلنقل بوضوح إنه قطعة قماش ليس إلا، والتقوى كون بلا

حدود. إحقاقا للحق، الجملة الأخيرة ليست من إبداعي، لا أذكر متى وأيـــن سمعـــتها، لكـــنها تعجبني كثيرا، لهذا السبب أستشهد بها عند الضرورة. أليست جميلة؟

كـــنت وكأني محامية شغوف منهمكة في الدفاع عن طفل بريء مـــتهم بجريمة قتل. قلت له إني أقيم الصلوات الخمس يوميا منذ بلوغي العاشـــرة، لا أنسى أبدا إعطاء الصدقة للفقراء والمحتاجين، أصوم شهر رمـــضان المعظم كل عام، تنقصني فريضة الحج حتى أستكمل الفرائض الخمس. الحمد لله عمري الآن سبع وعشرون سنة، لدي الوقت الكافي لأداء مناسك الحج إن شاء الله. بالعربـــي الفصيح، أعتبر نفسي مسلمة صالحة حتى بدون حجاب. كان كلامي واضحا ومعقولا، ولكن على من تقرأ زبورك يا داوود؟!

بعـــد أن باءت كل محاولاتي بالفشل، فكرت في فسخ الخطوبة، لكني تراجعت عن الفكرة لأنها محفوفة بالمخاطر. خفت من كلام الناس ومـــن ألـــسنة السوء. الله ينجينا من القيل والقال. تخيلت مشهدا وقد يصلح لأحد المسلسلات:

«أهـــلا يـــا حبيـــبتي، زعلـــت قوي قوي لما سمعت خبر فسخ خطوبـــتك. هـــنعمل إيه بقي؟! دا قسمة ونصيب. فضفضي يا حبيبتي فضفضي. هو حصل إيه؟».

«طلب مني خطيبـــي ألبس الحجاب قبل أسبوع فقلت له: يفتح الله! أدي كل الحكاية».

«عايزة تقولي إن البكارة ما لهاش دخل في الموضوع»؟

«البكارة؟! لا، أبدا والله».

«عايزة تقولي إن الحجاب هو السبب الحقيقي؟».

«ايوة. دي الحقيقة».

«الحقيقة؟! ما تقولي غيرها يا شيخة! ها ها ها».

لو فكرنا في الموضوع بجدية، لوجدنا أن فسخ الخطوبة كالطلاق أو أسوأ. يا للكارثة! مجتمعنا كتاب مفتوح والحمد لله، من اليسير التمييز بين المسموح والممنوع. لا يحتاج المرء إلى عبقرية إينشتاين لتجنب المصيدة. وأنا أفهمها وهي طايرة! كنت على يقين أن فسخ الخطوبة سيجلب عواقب وخيمة. وستلقى المسؤولية على عاتقي. ولن تقف عائلة الخطيب مكتوفة الأيدي، بل ستسعى بشتى الوسائل للانتقام مني كنشر الإشاعات ومنها أنني لست عذراء. وسيقع الفأس على الرأس. هذه حيلة جهنمية لا نجاة منها أبدا، قد تدنس شرف عائلتي وسمعتي إلى يوم يبعثون، وتحرم أخواتي وبنات أعمامي وأخوالي من استيفاء نصف دينهن، وستصدر عليهن حكما بالعنوسة المؤبدة. لو فسخت الخطوبة قبيل الزواج، لصرت قنبلة ذرية أكثر فتكا من قنبلة هيروشيما! لا حول لي ولا قوة لتحمل هذه المسؤولية الجسيمة.

إن البكارة في مجتمعنا هاجس مركزي دائم، أمر ملفوف بالقداسة. سمعت مثلا مغربيا يقول: «عانق وبوس، وخلي رحبة العروس». قررت تأجيل جلسة المرافعة عن الحجاب إلى ما بعد الزواج. كنت أعتقد أن القضية لم تحسم بعد، ولدي آمال في ربحها. ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

انتظرت عاما كاملا في بيت أهلي لاستكمال إجراءات التجمع العائلي للالتحاق بزوجي الباشمهندس. وصلت إلى روما مع ابنتي الرضيعة في يوم صيف قائظ وكنت أرتدي الحجاب. انتقلنا للعيش في هذه الشقة في حي ماركوني والمتكونة من غرفة نوم وغرفة صغيرة وصالون صغير ومطبخ وحمام. نسكن في الطابق الرابع والحمد لله على وجود المصعد.

في الأيـــام الأولى مـــن وصـــولي، خُيل إلي أني لا أزال أعيش في القاهـــرة لكثـــرة ما رأيت من المصريين. وكنت أتساءل بين التعجب والحيرة: « يا عالم يا هو، هي روما راحت فين؟!».

عيسى

هل سأحصل على صفة الزبون الدائم في«القاهرة الصغيرة»؟ هو كذلك على ما يبدو. هو اليوم السادس على التوالي الذي أرتاد فيه هذا المحل. المثابرة خصلة لا تخيب الآمال أبدا. أحتاج قليلا من الصبر وكثيرا من الحظ. هل ثمة خطر من افتضاح أمري؟ تساؤل في غير محله! أنا مهاجر تونسي مسكين جاء إلى روما من أجل لقمة العيش، معروف أن القادمين الجدد هم دائما في حاجة إلى يد المساعدة خلال المرحلة الأولى. أنا هنا بين إخواني العرب، ما المشكلة؟!

تلفنت لوالدتي التونسية كما في الأيام الماضية. بدأنا نعرف بعضنا البعض أكثر. هي ثرثارة أكثر من اللازم، لكن لا بأس. عشر دقائق كافية لمعرفة آخر الأخبار: أخي عادل (هل يصغرني أم يكبرني؟ لا أعرف)، المتخرج من الجامعة قبل أربعة أعوام تحصل أخيرا على منصب شغل في البنك بفضل وساطة خالي عز الدين. ابن عمي محسن انتقل مع زوجته إلى فرنسا. أختي آمال حامل، خبر مُفرح حقا. أخيرا سأصير عما! مرحى!

بعد المكالمة قررت البقاء في «القاهرة الصغيرة». جلست أتفرج على الجزيرة إلى جانب شابين (يبدو أنهما من مصر). هناك إعادة بث لبرنامج ذائع الصيت في العالم العربي كأنك تحضر مبارزة ديوك: ضيفان شرسان يدافعان عن وجهتي نظر متضاربتين، يتوسطهما منشط يدير النقاش كحكم محايد شكليا على الأقل. موضوع الحلقة خطير هو

هـــل من الصائب تصدير الديمقراطية إلى العالم العربـــي بقوة السلاح؟ هل المحافظون الجدد مصيبون أم مخطئون؟ المنشط يقود المبارزة بحنكة إلى درجـــة المكر، إذ لا يفوت فرصة لرمي الزيت على النار وتأجيج الفتنة بينهما باستعمال جمل مستفزة، مثلا يقول للأول: «تقول بلا حياء إنك مـــع تـــصدير الديمقراطية بالسلاح، ألا يعني هذا أنك خائن في خدمة الأمـــريكان؟ أجـــب حـــالا على هذا السؤال!»، ويقول للثاني: «أين تعـــيش، في المـــريخ؟! إن العـــرب لـــن يتمكنوا من دمقرطة أنفسهم بأنفسهم. فاشرح لنا بلا عنتريات إذن، ما هو المخرج؟». عجيبة حال العرب: يرون الخيانة والمؤامرات في كل مكان. إنه داء حقيقي، تأكدت من استشرائه خلال رحلاتي في الدول العربية.

خـــلال الفاصـــل الإعـــلاني القصير، أردت استغلال الفرصة لتجاذب أطراف الحديث مع الشاب الجالس على يميني. حتى أنا لدي مـــا أقول عن الديمقراطية. من حق الجميع دونما استثناء التعليق على الديمقراطية، فالأمر ليس حكرا على جورج بوش ومستشاريه. بادرته قائلا:

«حـــسب رأيي، تصدير الديمقراطية كأنها سلعة، كلام ما يحط ما يهز».

«يـــا أخيـــنا، مين اللي جاب سيرة الديمقراطية؟! دا الغرب عايز يحتلنا من جديد».

«عندك الحق».

«ممكـــن تقول لي، ليه ما بيصدروش الديمقراطية بتاعتهم لكوريا الشمالية ولا كوبا بتاعة فيديل كاسترو؟!».

«صحيح».

«عاوزين البترول بتاعنا، أدي كل الحدوتة».

أبـــديت مـــوافقتي بطأطأة من الرأس. للأسف الوقت لا يسمح بمواصـــلة الحديث معه، فقد عاد المتصارعان إلى الحلبة. ينبغي أن أنتظر الفاصل الإعلاني التالي. رفع أحد المتنافسين من صوته وبدت علامات الغضب على وجهه، ثم راح يصرخ: «الغربيون منافقون، يتحدثون عن الديمقراطية للدفاع عن مصالحهم فقط. لقد ساندوا طويلا أسوأ الأنظمة الديكـــتاتورية في العـــالم العربي». إلا أن خصمه لم يستسلم وهاجمه كالثور المجروح: «هكذا نحن العرب، نعشق ندب الأحناك والبكاء على الأطـــلال واستعمال الغرب كشماعة نعلق عليها كل مصائبنا. إذا كنا مـــضطهدين وفقـــراء وأشقياء وأميين وعاجزين جنسيا و... إلخ، فإن المذنبين هم المستعمرون الغربيون». فجأة، سمعت صوتا يناديني.

«التونسي!».

«نعم يا معلم حنفي».

«إنت لسة بتدوّر على سرير؟».

«أينعم».

«أمـــك داعية لك يا سيدي! فيه سرير فاضي في شقة قريبة من هنا».

صار الجميع يناديني إما عيسى التونسي أو التونسي فقط. لا بأس. هـــناك ســـرير شاغر ينتظر نـــزيلا جديدا ينام عليه. ربما سأصير أحد المقـــيمين الشرعيين في حي ماركوني. أخذ حنفي ورقة صغيرة وكتب عليها رقم هاتف صاحبة البيت، اسمها تريزا. ثم أعطاني بعض النصائح المفـــيدة. يجب أن أتصل بها فورا ولا أنسى ذكر أني من معارف المعلم حنفـــي (أنـــا صقلي وأعرف تمام المعرفة نظام الوساطات، فالكل يريد ضـــمانات). كما ينبغي أن أصر على موعد في نفس اليوم. فالسرير لن يبقى شاغرا إلى الأبد، هناك الكثير من المحتاجين مثلي. يجب أخذ زمام

المبادرة بلا مماطلة. في نهاية المطاف، حذرني حنفي من جشع صاحبة الشقة:

«خذ بالك من تيريزا، دي مكارة. هتطلب منك 250 يورو عشان هي محتاجة الفلوس بتاعة السياحة».

«فلوس متاع السياحة؟!».

«بالضبط. احنا بنسميها تيريزا فاكنسا أي تيريزا إجازة. هي بتحب الأسفار والأجازات موت، الولية دي عايزة فلوس على طول».

«واش باش نعمل توا؟».

«إديها 200 يورو، أنت عندك الوثائق. ما تخليهاش تعاملك زي اللي ما عندهمش ولا حاجة».

أومأت برأسي موافقا دون أن أنبس بكلمة. أخذت رقم التلفون وذهبت للاتصال بتيريزا. لحسن الحظ ردت علي بعد ثلاث محاولات. طلبت مني أن أنتظرها في «القاهرة الصغيرة» ريثما تفرغ من التسوق في سوبرماركت قريب. بعد هذه المكالمة، تنبهت لمسألة لم أعرها اهتماما من قبل. ينبغي أن أتحدث بلغة إيطالية ركيكة، حتى أبدو مقنعا. المطلوب تقمص شخصية عيسى، المهاجر التونسي. حاولت تذكر طريقة كلام ونطق معارفي العرب، خصوصا التونسيين من أجل تقليدهم. الحل الأمثل هو أن أتحدث بلغة إيطالية ذات صبغتين: عربية لأني تونسي، وصقلية مكسرة لأنني أقمت في جزيرة صقلية مهاجرا. من الأفضل استعمال الإيطالية عند الحاجة فقط. قررت تعطيل بعض القواعد اللغوية مؤقتا. طلبت المعذرة من آباء اللغة الإيطالية العظماء على رأسهم النابغة دانتي أليغييري!

لم تمض دقائق قليلة حتى أقبلت تيريزا محملة بكيسين كبيرين من المستلزمات. هي في الستين من عمرها، قصيرة القامة، مدورة الوجه،

ثخينة الجسد، ضخمة النهدين. شعرها مصبوغ بالأحمر ووجهها مزركش بألوان وألوان. تبدو في صحة جيدة، ربما عادت لتوها من عطلة استجمام. قرأت في إحدى الصحف ذات مرة أن السفر أداة لمعالجة الانهيارات العصبية، وأن أكبر مشكلة يعانيها العالم المتقدم هو رفض المسنين والمسنات للشيخوخة. قالوا لي مرة في الجزائر مثلا شعبيا جميلا: «لي عاش وقته، ما يطمع في وقت الناس».

بدا لي أن تيريزا تنوي إغرائي لغويا باستعمال لهجة أهل روما، ولكن باءت محاولتها بالفشل الذريع، فلا هي تملك سحر النجمة السينمائية آنا مانياني الرائعة ولا هي في خفة روح الممثل ألبرتو سوردي. صوتها قبيح منفر أشبه بصوت السياسي ماورو غابري الذي يتناثر البصاق من فمه كلما تكلم. شيء مقرف حقا! خطر على بالي أن أرد عليها باللهجة الصقلية، السن بالسن والعين بالعين والبادئ أظلم، إلا أنني تراجعت عن هذه الخطوة حتى لا ينفضح أمري.

«أيها الشاب، هل أنت مصري أيضا؟».

«لا، أنا تونسي».

«تونس! يا له من بلد جميل! زرته أربع مرات. في السنة الماضية، ذهبت إلى الحمامات، فانتهزت الفرصة لزيارة قبر كراكسي والترحم على روحه. هل تعرف من يكون بيتينو كراكسي؟».

فضلت عدم إخبارها بأن كراكسي شخصية معروفة جدا في تونس. قصته مثيرة للجدل. كان أول سياسي اشتراكي يتولى رئاسة الحكومة في الثمانينات. ساند القضايا العربية وعلى رأسها القضية الفلسطينية. في بداية التسعينيات، اتهمه القضاء بالفساد وتلقي الرشاوي، فبدل أن يسلم نفسه، فر إلى تونس حيث مات عام 2000، ودفن في الحمامات. منا من يعتبره رجل دولة من الطراز الرفيع، وقع

ضحية للمؤامرة والاضطهاد من جهة، ومنا من يصفه بالفاسد والمرتشي والفار من العدالة من جهة أخرى.

سارت الأمور بلا مفاجآت تذكر مطابقا لسيناريو حنفي. فقد وافقت تيريزا على 200 يورو، بعد أخذ ورد. ولكنها استطاعت خداعي بخصوص العربون المقدر بـ 400 يورو. أين الخدعة؟ لن أدفع شيئا من جيبي، فالدولة هي التي تتولى تغطية المصاريف، أنا في مهمة رسمية.

عقب الاتفاق على التفاصيل، طلبت مني تيريزا إذا كنت أرغب في رؤية الشقة، فأجبتها بنعم. اتصلت عبر الهاتف الجوال بأحد سكان الشقة. بعد وقت قصير جاء شاب آسيوي في الثلاثين من عمره، قصير القامة ونحيف الجسد. قال إنه بنغالي واسمه عمر ويعمل بائعا للخضار والفواكه في سوق الحي. شدت انتباهي ابتسامته. من حيث المبدأ، أنا لا أثق كثيرا في التجار وابتساماتهم الملعونة. فهم ماكرون وهاجسهم الأول والأخير هو كيف يخطفون المال من جيوب الناس دون أن يشعروا.

اتفقت مع تيريزا على الالتقاء في اليوم التالي لتسليمها المبلغ نقدا. هي تجنبت الحديث عن عقد الإيجار والصك البنكي والحوالة البريدية وما شابه ذلك، فهمت أنها تريد أن تتهرب من الضرائب.

في طريقنا إلى الشقة أفادني عمر ببعض المعلومات عن المستأجرين الآخرين. يمثل المصريون الأغلبية، وتنحصر الأقلية في ثلاثة أشخاص: سينغالي ومغربي وبنغالي أي هو. ثم قال لي ضاحكا: «المهم أننا مسلمون جميعا».

الشقة قريبة من «القاهرة الصغيرة» وتقع في الطابق الثالث. فتح عمر الباب، فدخلنا. لم نعثر على أحد. ألقيت نظرة على المطبخ

والحمام والغرفتين، حسبت في ذهني عدد الأسرة. ستة أسرة بطابقين، المجمـــوع هو اثنا عشر سريرا. هذا المكان هو مبيت وليس شقة بالمعنى المتعارف عليه.

بعـــد هـــذه الزيارة التفقدية، دعوت البنغالي إلى فنجان قهوة في المقهـــى المجاور. هذا أدنى ما أفعله لشكره. بقينا دقائق عديدة نتجاذب أطراف الحديث. في الواقع، أنا لم أتكلم كثيرا وإنما استمعت إلى قصته باهـــتمام. وصل إلى روما قبل عشر سنوات بعد رحلة طويلة أتت على أمـــوال الأســـرة كاملة. لم تكن هجرته عفوية بل مدروسة من جميع النواحي. لقد اختارت العائلة عمر من بين إخوته الخمسة لأنه الأنسب، فقـــد تعلـــم الكـــتابة والقراءة ويتمتع بصحة جيدة. هذان الشرطان ضروريان للنجاح في مشروع الهجرة. وشتان بين المهاجر والمغامر.

فهمـــت مـــن البـــنغالي مسألة هامة كنت على علم بها ولا أعي مـــداها. لكـــل مهاجر مشروعه يسعى إلى تحقيقه ويضعه نصب عينيه كبناء بيت أو الزواج. بالمقابل ننظر نحن الإيطاليين إلى المهاجر على أنه مـــسكين يحتاج إلى الشفقة ونخلط بين المهاجرين واللاجئين الفارين من الحروب.

أمـــا هـــذا النوع من الهجرة فهو أقرب إلى التجارة. يتم استثمار الموارد البشرية والمادية من أجل جني الثمار مستقبلا. عمر مقاول صغير في خدمـــة مـــشروع عائلي. لجأ إلى منظمة متخصصة في الهجرة غير الـــشرعية للوصـــول إلى إيطاليا، وقد دفع عشرة آلاف دولار. تمكنت عائلته جمع هذا المبلغ الباهظ عن طريق الاستدانة. بدأت رحلته الطويلة التي استغرقت شهرين من مسقط رأسه في البنغلاديش، مرورا بموسكو والعديـــد مـــن دول أوروبا الشرقية، وصولا إلى إيطاليا بطريقة سرية. قضى الأسابيع الأولى في ضيافة أحد أقاربه في مدينة بريشا في الشمال،

ثم التحق بصديق له في روما. حصل على وثيقة الإقامة إثر تسوية وضعية المهاجرين، مما مكنه من العودة إلى البنغلاديش لرؤية أهله وطلب يد إحدى قريباته.

استطاع البنغالي خلال سنوات من العمل والتضحية أن يتخلص من عبء الديون. كما ساهم بفضل ما أرسله من مدخرات إلى الأهل في بناء بيت جديد للعائلة وتجهيز أخواته للزواج والتكفل بتعليم إخوته الصغار. عمر سعيد جدا بما أنجزه. يعمل حاليا في إدارة محل لبيع الخضار في سوق الحي برفقة شريكين بنغاليين. أردت أن أفهم لماذا لم يؤجر مسكنا أو على الأقل غرفة، بدلا من سرير في بيت مزدحم. سألته فأجابني:

«يا صديقي، استأجرت سريرا حتى أدخر بعض المال».

«هل تستطيع أن تعيش مع أحد عشر شخصا؟».

«بالتأكيد. عشت مع عشرين شخصا في بيت واحد!».

«كيف تستطيع أن ترتاح في هذه الظروف؟».

«أرتاح؟! أريد أن أرتاح ولكن ليس الآن وليس هنا».

«إذا متى وأين؟».

«عندما أعود إلى البنغلاديش وأتزوج».

فلتذهب الراحة إلى الجحيم! أدركت أنني لا أزال أفكر كإيطالي ولم أفلح بعد في فهم طريقة تفكير المهاجرين. ما أكثر الإيطاليين الذين يتساءلون عن سبب بقاء محلات المهاجرين مفتوحة طوال أيام الأسبوع. إذا عرف السبب بطل العجب. لقد جاؤوا إلى إيطاليا للعمل وليس للراحة. فهم ليسوا سياحا وإنما عمالا، هدفهم كسب لقمة العيش وإعانة أهاليهم. للأسف أوقفنا هذه المحادثة القيمة لأن عمر مجبر على العودة إلى السوق.

رجعت إلى «القاهرة الصغيرة» لأشكر حنفي على وساطته. لسوء الحظ وجدت أن برنامج مبارزة الديوك على الجزيرة قد انتهى. جلست لمتابعة نشرة الأخبار. هناك تركيز على التفجيرات المتتالية في بغداد. يبدو أن أخبار الموت والدمار هذه لم تعد تستثير أحدا من الإيطاليين. قد يهتم الإعلام بخبر سرقة متجر سجائر أو نهش كلب شرس لأوراك أحد المارة، بدلا من الاكتراث بما يصيب عشرات العراقيين من قتل وحرق ودمار. رغبت في الابتعاد عن أخبار الجزيرة، فرحت أفكر في نتائج مهمتي السرية. فقد تعرفت على الكثير من الشبان، خصوصا من المصريين. لم يدعني أحد لكأس شاي أو فنجان قهوة، ولكني لم أفقد الأمل. كنت على قناعة من أنني في الطريق الصحيح. التقيت مؤخرا في «القاهرة الصغيرة» بشاب تونسي يعمل في قطاع البناء. في البدء استبد بي بعض القلق، لكني تخلصت منه بسرعة. كان ولد بلادي من سوسة، أي أنه ليس من تونس العاصمة مثلي. تحدثنا في مواضيع شتى كالحرب في العراق وآخر العروض التجارية الخاصة بالهواتف الجوالة والسياسة والبطولة التونسية لكرة القدم. قدمت نفسي على أني مناصر للترجي الرياضي التونسي، وهو ناد عريق مثل يوفنتوس في إيطاليا تقريبا. أنا محظوظ جدا لأني مطلع على أخبار تونس أكثر من العديد من المهاجرين التونسيين الحقيقيين. لا أنكر أنني مهاجر مزيف ولكني أملك طاقات مدهشة!

ركبت الحافلة للعودة إلى شارع ناتزيونالي. بعثت رسالة أس أم أس إلى النقيب جودا للاجتماع به في الحين. وصلت إلى هناك بعد عشرين دقيقة تقريبا وجدته في انتظاري. بادرني قائلا:

«هل من جديد؟».

«نعم، وجدت سريرا في شقة مهاجرين في ماركوني».

«عظيم! برافو عليك يا تونسي وماذا بعد؟».

النقيب جودا لا يحب الاختصار كثيرا ويعشق الخوض في التفاصيل. فهو نمام محترف. في الواقع، أراد أن يفهم جيدا عملية استئجار السرير. هل هو فخ؟ هل هي حيلة من حنفي وشركائه لمراقبتي؟ هل انكشف أمري؟ على كل حال، ينبغي التدقيق في كل شيء. لحسن الحظ لي ذاكرة قوية بفضل دراستي للغة العربية ولجوئي المستمر إلى لسان العرب! هناك قرابة ثلاثمائة كلمة لوصف السيف فقط! رويت لجودا التفاصيل من أولها إلى آخرها. استوقفني مرارا للاستفسار أو التعليق. استمعت إلى توجيهاته كمريد مخلص بين يدي مرشده.

«نحن على وشك تدشين المرحلة الثانية من العملية، هل أنت جاهز يا تونسي؟».

«نعم».

«الآن ستبدأ الصعوبات».

كان النقيب جودا متأكدا من أن استئجار السرير في تلك الشقة فرصة ثمينة. لقد صرت أحد المقيمين في ماركوني، بإمكاني قضاء ما أشاء من الوقت في «القاهرة الصغيرة» والاتصال بأسرتي التونسية ومشاهدة الجزيرة، دون أن يثير وجودي أي شبهة. كما أنه من السهل خلق صداقات جديدة والتعرف على الزبائن الذي يرتادون المكان ومراقبة حنفي وشلته على وجه الخصوص. كان علي بذل جهد أكبر للحصول على نتائج مرضية. فالهدف الرئيسي هو اكتشاف أعضاء الخلية الإرهابية الثانية.

قبل العشاء، وصل أروع ثنائي في العالم: عنتر وجيمس. الأول أسمر والثاني أشقر مثل شخصيتي الشرطيين الأمريكيين الشهيرين

ستارسكي وهاتش. كان الأمريكي جيمس متوترا لأننا لم نتوصل بعد إلى تحديد هوية أي عضو من الخلية الثانية، وفيما تواصلت ضغوط الدوائر العليا في "سي أي أي" للحصول على توضيحات وتفاصيل بخصوص عملية القاهرة الصغيرة، ثمة مخاوف كبيرة من استهداف السفارة الأمريكية في إيطاليا بين لحظة وأخرى. وهذا سيوقع ضربة موجعة على إدارة الرئيس بوش الابن. حاول جيمس توضيح وجهة نظر رؤسائه قائلا: «تسعى القاعدة إلى إثبات أن الولايات المتحدة عاجزة عن الدفاع عن نفسها، وتعتبر سفارتنا في روما هدفا رمزيا واستراتيجيا». حاول جودا طمأنته، مؤكدا على أن الأجهزة الأمنية الإيطالية تسهر على مراقبة المنطقة المحيطة بالسفارة. إلا أن عنتر لم يكن مقتنعا: «جربت القاعدة تكتيكا جديدا في تفجير السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتانزانيا. وحقق الأوغاد هدفهم مما عزز اعتقادهم بأنه من السهل ضرب أي هدف باستعمال قذائف موجهة عن بعد واللجوء إلى العمليات الانتحارية». أيد جيمس رأي زميله المصري وقال: «إن استهداف السفارة الأمريكية إهانة للولايات المتحدة ولإيطاليا وللاتحاد الأوربي وللفاتيكان. وعندها سيفتح باب جهنم على مصراعيه».

استمع النقيب جودا إلى زميليه في صمت، ثم نهض وذهب إلى الشرفة للتدخين. فجأة توقف والتفت إلينا قائلا: «ينبغي أن نعثر على الخلية الثانية فورا».

شرعت في السهرة في تحضير الحقيبة التي سترافقني إلى المسكن الجديد. في تلك اللحظة فقط أدركت معنى كلمات جودا حول المرحلة الثانية من العملية! دققت طويلا في اختيار الملابس المناسبة، وتخليت مرغما عن بدلتي الزرقاء الداكنة وقميصين بيار كاردان وثلاث ربطات

عـــنق مـــن الحريـــر. قلت في نفسي إن هذه الملابس ليست في مقام المهاجرين إلا إذا كانوا مجرمين في قطاع الدعارة أو المخدرات، فخلال عملـــي في محكمـــة باليرمـــو مع المهاجرين، شاهدت بأم عيني عجب العجـــاب. تركت مؤقتا بعض أغراض كريستيان مزاري مثل الوثائق الشخـــصية والصور العائلية. أحسست أنني أودع هذا الشخص الذي رافقني منذ الولادة. قبل أن أخلد إلى النوم، سمعت هاتفا داخليا يقول: «لن تستطيع العودة إلى الوراء وحياتك ستنقلب رأسا على عقب!».

صوفيا

أتـــصل بأهلـــي في مصر عادة مرة كل أسبوع. أحاول جاهدة التواصل معهم حتى لا أقع فريسة الحنين. مضت سنتان على غيابنا عن مصر. لماذا كل هذا الغياب؟ الإجابة بسيطة. نتجنب العودة إلى الوطن ســنويا بـــسبب تكاليف السفر، فتذكرة روما – القاهرة ذهابا وإيابا باهظة. ولا ننسى الهدايا للأقارب. في السفرية الماضية طلبنا سلفة لمجابهة المصاريف.

عندما يعود المهاجر إلى بلده لقضاء العطلة، يتملكه هاجس إثبات نجاحـــه أمام أعين الجميع. فهو مجبر على تقمص دور الغني. أولا يجب علـــيه ارتـــداء ملابس أنيقة مثل نجوم السينما، ثم توزيع الأموال على القريب والبعيد. باختصار شديد، عليه أن يمثل في مسرحية طويلة ومملة، أسوأ بكثير من المسلسلات التلفزيونية.

عـــندما تعـــود إلى أهلك سالما يا عزيزي المهاجر، أنصحك بعدم الحـــديث عـــن الجوانب المنفرة من الغربة مثل البطالة والعمل الأسود وغـــلاء الإيجار والعنصرية والخوف من فقدان وثيقة الإقامة والحنين إلى الأهـــل و... إلخ. لا جدوى من الشكوى، من يصدقك؟! إذا سألك أحد: «كيف هي المعيشة في الغرب، في أوروبا، في إيطاليا؟». تذكر أن الإجابـــة الـــصحيحة هي: «جنة على الأرض!». هذه النقطة في غاية الأهمـــية. لا ضرر من الاستعانة بخيالك الخصب. مثلا يمكنك أن تقول لمن يسألك ما يلي: عندما تصل إلى مطار روما الدولي أول مرة، ستجد

في انتظارك أرباب العمل يلوحون بلافتات مكتوب عليها: نبحث عن عمـــال، مـــضمون المأكل والمبيت والراتب الجيد! لست مطالبا بقبول عـــروض العمل في الحين لأنك وصلت لتوك وتحتاج إلى الراحة. فرص العمل لن تفوتك. عندما تركب القطار إلى وسط المدينة، ستجلس إلى جانـــبك شـــقراء حسناء مكشوفة الفخذين وابتسامتها تشبه ابتسامة مارلين مونرو. ستتحدث معها في مواضيع غير معقدة في متناول الجميع كالـــسياسة والرياضـــة. عند وصولك إلى المحطة، لن تتركك الشقراء الجميلة تذهب إلى الفندق وستلح عليك لاستضافتك في بيتها. أوصيك أن توافق. تشجع يا صديقي تشجع! لن تنام في غرفة الضيوف وإنما في ســـريرها. لن أقول لك ماذا ستفعلان طوال الليل. تستطيع أن تتخيل الأمر. على كل حال، هذه حياتك وأنت حر فيها.

يا عزيزي، الأوربيات لسن مثل نساء بلدك المعقدات المتخلفات. هن متفتحات بجميع معاني الكلمة. ماذا تقول؟ لم أسمع جيدا. هل يمكن أن تعيد سؤالك من فضلك؟ حسنا، تسألني عن البكارة. ها ها ها، لن يرغمك أحد على الزواج من الشقراء الحسناء لمجرد أنك تمتعت بدفئها. هذه أمور تحدث في بلدك الأصلي فقط. تسألني عن الوثائق؟ لا تقلق. ومـــاذا عن عمليات التفتيش والمداهمة لقوات الأمن؟ ما أنـــزل الله بها من سلطان. وماذا عن مراكز حجز المهاجرين غير القانونيين؟ لا وجود لهـــا مـــثل الـــصحون الطائرة. وماذا عن صعوبة تعلم الإيطالية؟ يمكن الاســـتغناء عـــنها لأن الـــناس لا تتواصـــل بالكلام، وإنما بالإشارات والحـــركات الجـــسدية. بعد إقامة وجيزة في بلد اسمه الجنة، يمكنك أن تـــذهب إلى البنك لاستلاف ما تحتاجه من مبالغ، تستطيع أن تشتري كـــل ما طاب لك: سيارة فيراري وفيلا مطلة على بحيرة غاردا الرائعة وزوجة جديدة مطيعة كالنعجة و... إلخ.

أرجوك يا عزيزي المهاجر أن لا توقظ المساكين الحالمين من أحلام اليقظة. ولا تشك حالك للذين بقوا في البلد وهم يتحرقون شوقا لمغادرة جهنم والالتحاق بك في جنتك. وتذكر دائما: ليس من حق من يعاني من آلام الأسنان أن يشتكي وضعه لمريض يصارع سرطان المثانة أو المخ! هناك حدود لا يمكن تخطيها، يجب احترام المشاعر والأحاسيس لمن ينتظر فرصته للهجرة. واضح؟

يفضل العديد من المصريين تأجيل عودتهم إلى أرض الوطن لتجنب المتاعب والديون. من عادتهم القول بنبرة فيها الكثير من الانكسار والحسرة: «ما فيش نصيب السنة دي. إن شاء الله السنة اللي جاية».

ما أقسى قول الحقيقة. يحبذ المهاجرون الكذب على أهاليهم عندما يعانون من محنة البطالة أو من الاستغلال في أماكن العمل أو من سوء معاملة قوات الأمن أو من .... لماذا؟ لأنهم يخشون أن لا يتعاطف معهم الآخرون فيُحكم عليهم بالفشل. أخشى ما يخشاه المهاجر أن يعد من الفاشلين! يجب أن يصير غنيا بقطع النظر عن الظروف القاسية التي يعيش فيها. كيف؟ لا تهم الكيفية، بل النتائج.

أذهب عادة إلى محل الاتصالات الهاتفية يرتاده العرب كثيرا، من المصريين خاصة. صاحب المحل صديق لزوجي اسمه حنفي، وهو فخور جدا بكونه من المهاجرين الأوائل الذين جاؤوا واستقروا في حي ماركوني. يمكن تشبيهه بمكتشف القارة الأمريكية كريستوفرو كولومبو. أنا متيقنه أن الأجيال القادمة ستقرأ في كتب التاريخ أن حنفي من مؤسسي الحي المصري أو القاهرة الصغيرة في روما. وقد اختار اسما لمحله هو Little Cairo حتى يذكره الجميع.

حنفي شخصية محورية في حينا. إنه يشبه الفتوة في حارات القاهرة الشعبية في الماضي. وهو وسيط لا يمكن الاستغناء عنه في جميع

الخدمات مثل استئجار بيت أو غرفة أو سرير، وتنظيم سفرية إلى مصر أو إلى البقاع المقدسة، والبحث عن عمل أو زوجة، وتجديد وثيقة الإقامة، وتقديم طلب للحصول على الجنسية الإيطالية و... إلخ. إنه كالمنشار، طالع واكل ونازل واكل. من يرى حنفي وهو يتفانى في خدمة المحتاجين، يعتقد أنه خدوم مثل متطوعي منظمة "كاريتاس" الخيرية الكاثوليكية أو الصليب الأحمر. في الحقيقة، خدماته ليست لوجه الله. إنه تاجر من رأسه إلى أخمص قدميه. إذا ساعدك في استئجار سرير، يجب أن لا تستعمل الحيلة لخداعه، لا يكفي أن تقول له: «متشكرين يا معلم وربنا يخليك». هذا تصرف مذموم محفوف بالمخاطر لأنه قد يعتبره إهانة. من الأفضل أن ترضيه بقليل من النقود كي تجده في وقت الشدة.

يعيش حنفي في روما مع زوجته وثلاثة من أبنائه. هناك شائعات متواصلة تشير إلى أنه متعدد الزوجات، إذ يملك زوجتين إضافيتين في السر، الأولى في مصر والثانية في السعودية. مما يفسر أسفاره المتتالية إلى الخارج رغم التكاليف الباهظة. يذهب إلى مكة سنويا بذريعة الحج، هذه حيلة لا تنطلي إلا على الحمير. فالحج لمن استطاع إليه سبيلا وتكفي مرة واحدة لاستيفاء الركن الخامس. يبدو أن الأمور اختلطت على المعلم لأنه استبدل الحج برمضان. السؤال يظل قائما: لماذا يسافر إلى مكة كل سنة؟ من أجل امرأة؟ الله أعلم.

حنفي مطلع على أسرارنا. أسئلته أفخاخ محكمة ويصعب عدم الوقوع فيها. يلتقط أدق التفاصيل ويتذكر كل شيء. هناك من يعتقد أنه يملك جهازا للتنصت على مكالمات الزبائن. أمر ممكن. من السهل تسجيل المكالمات عن طريق الحاسوب. ومن يحصل على أسرار الناس باستطاعته استخدامها للتلاعب بمصيرهم أو لابتزازهم.

حنفي مصاب بعقدة الطاووس، مثلا يحب أن يناديه الناس: حاج أو معلم. مزاجي اليوم جيد، لذلك سأرضي غروره.

«صباح الخير يا حاج حنفي».

«صباح النور يا مدام، إزيك؟».

«كويسة».

«زاي صحتك؟».

«الحمد لله».

«وزاي الشغل؟».

الشغل! يخرب بيتك يا حنفي! سألني عن العمل وهو يعرف أنني ربة بيت، على الأقل رسميا. ماذا كان يقصد إذن؟ لعله على علم بسري. منذ سنة تقريبا أزاول نشاطي ككوافيرة للأوانس والسيدات ولكن في الخفاء في بيت صديقتي سميرة. عندي زبونتان كل أسبوع. زوجي لا يعرف شيئا. لم يزد حنفي كلمة حول هذه المسألة. هل سيلتزم الصمت أم سيفضحني على الملأ؟

حاولت تصنع ابتسامة لأخفي حرجي. دخلت إلى غرفة الهاتف واتصلت بأختي زينب ولكن لا حياة لمن تنادي. شكلت رقم بيتنا بالقاهرة بطريقة آلية لأنني أحفظه عن ظهر قلب.

«صباح الخير يا ماما».

«صباح الخير يا حبيبتي، إزيك؟ زاي جوزك والبنت الصغيرة؟».

«الحمد لله كلنا كويسين».

«إنتو جايين الصيف اللي جاي؟».

كنت أترقب هذا السؤال. الجواب جاهز: «ما فيش نصيب السنة دي، إن شاء الله السنة اللي جاية». طبعا أتجنب قول الحقيقة حول غلاء أسعار تذاكر السفر والهدايا. يا له من إحباط! كم أنا مشتاقة

لـــرؤيتهم واحتضانهم. تتدافع الدموع إلى مقلتي، ولكني لا أستسلم لها بـــسهولة. الحمد لله هناك مفاجأتان لترفعا من معنوياتي. أولا، سيؤدي والـــداي هذا العام فريضة الحج، كم أنا سعيدة من أجلهما. طالما حلم أبـــــي بـــزيارة الكعبة الشريفة. ثانيا، ستتزوج أختي الصغرى ليلى في نهايـــة الـــسنة بعد خطوبة دامت خمس سنوات. في نهاية المطاف وبعد مشقة كبيرة نجح الخطيبان في العثور على شقة.

عندما وضعت السماعة، تنبهت إلى الدموع المنحدرة على خدي. فـــتحت محفظتي الصغيرة ورحت أبحث عن منديل ورقي. الله يلعنك يا شـــيطان. لم أكن أرغب أن يراني حنفي على تلك الحال. ولم يكن في مقدوري البقاء في ذلك المكان طويلا. عندما هممت بالخروج، قدم لي شـــاب ذو شنب منديلا ورقيا. أخذته منه وشكرته، ابتسم لي دون أن ينـــبس بكلمة. لم أره من قبل. جففت دموعي وقصدت حنفي لأسدد ثمن المكالمة.

وفي طريقـــي إلى البيت، استطعت بلا مشقة تحديد سبب بكائي. ما يحزنني هو عدم حضوري حفل زواج أختي. ما أقسى أن لا تشارك أحبتك لحظات الفرح. ومن أجل مخادعة الحزن أو ربما مهادنته، رحت أتفلسف في الزواج والطلاق. بالنسبة لفتاة مسلمة مصرية كأختي ليلى الزواج لن يكون مسك الختام، وإنما البداية فقط. الامتحانات لا تنتهي أبدا. ينبغي الاستعداد لمواجهة تحديات أخرى، أهمها على الإطلاق هو تجنب الطلاق! إن المطلقة تحمل على عاتقها عبء الفشل مدى حياتها. إنهـــا لا تعـــدم كبقية المحكوم عليهم بالإعدام مرة واحدة وكفى وإنما مـــرات عديدة. فكل نظرة شفقة هي اتهام، وكل حكم هو إدانة. إن المـــوت الاجتماعي أقسى من الموت الجسدي. المجتمع لا يرحم المطلقة لأنهـــا امرأة لم يمت لها زوج ولم تدم لها بكارة. لو كانت أرملة، لهان

الأمـــر، فالـــذنب ليس ذنبها. هذا قضاء وقدر. لكن لما يقع الطلاق، تختفـــي القسمة ويختفي النصيب كليا وتصير المطلقة كبش فداء والمذنبة الوحيدة التي تستحق العقاب.

ما أصعب أن أشرح للناس هنا أن المرأة عندنا عندما تتزوج تنتقل مـــن كفيل إلى آخر، من سلطة الأب إلى سلطة الزوج، كمحل تتحول ملكيته من مالك إلى آخر. بداية الزواج فيض من الأمل والحماس، لكن بمـــرور الوقت نكتشف أن الوضعية لم تتغير، بل تدهورت. «انتقلنا من ســـيء إلى أسوأ» هكذا يقول الجد جوفاني (سأتحدث عنه لاحقا). ما يهم هو أن المتزوجة خرجت سالمة غانمة من سوق العوانس. أما سوق المطلقات فهو الأسوأ على الإطلاق بسبب انتشار المفترسين والمستغلين والمـــتطفلين. فالأولى للمرأة أن تكون عانسا، لا مطلقة. أنا متأكدة من هذه المسألة.

عيسى

مـــضى أســـبوع على انتقالي إلى هذه الشقة. أعاني من مشاكل عويـــصة في الـــتأقلم مـــع الوضع الجديد، إذ لا أستطيع النوم ساعتين متتاليـــتين ليلا. ما حيلتي؟ ليس ذنبـــي إذا كنت متعودا على العيش في غـــرفة لا يشاركني فيها أحد. وأدمنت على عادات مختلفة غريبة مثل النوم عاريا إذا ما سمح لي البرد بذلك بطبيعة الحال. كما أحب القراءة قبل النوم، خصوصا سير العظماء. الآن لا يسمح لي المقام بتمثيل دور المهاجر المثقف العصامي المولع بالقراءة. يتحتم علي أن أغير نمط حياتي بـــسرعة. لـــو تجاســـرت على النوم عاريا، سأقدم صورة خاطئة عن ميولاتي الجنسية. قد يعتبرونني من قوم لوط، وهذا سبب كاف لطردي من هذا البيت شر طردة. المسلمون ذكوريون ويعلنون ذلك على الملأ، أما نحن الإيطاليين، فنفضل ممارسة الذكورية في سرائرنا بالاعتماد على الـــنفاق والتـــشدق بالمـــساواة بين الجنسين والدفاع عن حقوق المرأة والشواذ وغيرها من الأكاذيب.

لم أستوعب بعد كيف يستطيع المرء النوم ليلا دون إطفاء الأنوار. هناك هرج ومرج دائمان في هذه الشقة بسبب العائدين من العمل بعد منتـــصف اللـــيل أو الذاهبين إلى ورديـاتهم بعد الفجر. أما عن ضجيج صـــنابير المـــياه وتحريك الكراسي وصفق الأبواب، فحدث عنها ولا حـــرج. في المحصلة صرت أعاني من الأرق، وهو داء لم يعترض طريقي مـــن قبل. لقد عشت طول حياتي أنعم بالنوم السهل رغم تغيير الأسرة

باســـتمرار خـــلال الأسفار. هيهات أن أكون كثير الشكوى بسبب حرماني من الرفاهية. لكن إذا لم آخذ كفايتي من الراحة، فكيف لي أن أركز على مهمتي السرية؟

«توقف عن الشكوى أيها الصغير!»، هكذا كان يقول لي جدي ليوناردو. خلال هذا الأسبوع غير الهين، بدأت رويدا رويدا في التعرف علـــى ســـكان البـــيت: ثمانية مصريين ومغربـــي وبنغالي وسينغالي. لاحظـــت أن المطبخ يتحول عند الضرورة إلى مرقد كيفما اتفق يتسع لشخـــصين، يكونان من أهل المقيمين أو من أصدقائهم أو من أصدقاء أصـــدقائهم. مـــن المعروف أن العرب مضيافون. طيلة قرون عديدة، طـــوروا مهـــارتهم في معاملة الضيوف. بالتأكيد وجدوا ظروفا مناسبة بسبب اتساع الصحراء. ثم أليس من السهل إقامة خيمة وتفريش بساط للضيوف؟! أليس من اليسير الميسر إطعامهم بكوب من الحليب وحفنة من التمر؟!

ما دمنا لا نعيش في الصحراء بين الجمال والنخيل، فإن الضيافة في أيامنا مكلفة وعديمة القيمة أيضا. في إيطاليا ممنوع أن تستضيف شخصا في بيتك إذا لم تعلم الشرطة بوجوده خلال مدة لا تتجاوز يومين. دخل هـــذا القانـــون حيز التنفيذ في السبعينيات لمواجهة الإرهابيين يساريين كانوا أو يمينيين. لم تعد الضيافة شأنا خاصا بالمواطنين، فالدولة تشترط معـــرفة من ينام في بيتك. فليكن الأمر واضحا، بالنسبة لنا كإيطاليين وجـــود القانـــون لا يعني ضرورة تطبيقه. شتان بين النظرية والتطبيق. أضـــف إلى ذلك أننا شعب يكره القانون ويتحايل عليه بكل الأشكال والطرق. أبرز مثال هو صاحبة البيت تيريزا التي تفضل الإيجار بعيدا عن القانون حتى تتهرب من الضرائب. تقول الحكمة الشعبية الشائعة: «تغد بالدولة قبل أن تتعشى بك!». لا يوجد حل ثالث.

في نظر قوات الأمن، أنا وبقية المقيمين في هذا البيت لا نحترم القانـــون، لـــذلك لـــيس لنا الحق في الإقامة الشرعية في ماركوني. لاحظـــت في العمارة التي نسكنها أن ثمة الكثير من الطلبة (الأغلبية طالـــبات) فجامعة روما الثالثة قريبة جدا. قبل يومين التقيت بطالبة عند مدخل العمارة، جاءت من أجل استئجار سرير في شقة. كانت الدمـــوع تـــتدافع إلى مقلتيها لأنها عادت خالية الوفاض. توقفت للاستماع إليها من باب التضامن الإنساني، كانت تريد أن تتكلم مع شـــخص حـــتى تروح عن نفسها. بذلت كل ما في وسعي لإخفاء هويتي الإيطالية وتقمصت شخصية المهاجر التونسي. لحسن الحظ لم يكن لدى الطالبة ادعاءات ومطالب عنصرية كأن ترفض الحديث مع غـــير إيطـــالي. أين تكمن مشكلتها؟ أراد صاحب البيت استئجار السرير لطالبة تقبل القيام بتنظيف البيت! يا لعجب العجاب! هناك خلـــل في الأمر: ماذا تفعل الطالبة المسكينة؟ هل تتفرغ للدراسة أم تقوم بمهام عاملة التنظيف؟ لقد تجاوز ابن القحبة هذا كل الحدود، في المرة القادمة سيؤجر السرير لطالبة أخرى ولكن بشرط أن تكون بارعة في الرقص الشرقي أو في طهي السوشي أو في فنون الجماع! كل هذا من أجل سرير حقير ملعون. طلبت مني مساعدتها. فكرت في التـــنازل لها عن سريري ولكني تراجعت. الفكرة صعبة التحقيق على أرض الواقع. هل يعقل أن تقتسم شابة إيطالية غرفة مع خمسة شـــبان مهاجرين؟ الفكرة معقولة لإنتاج فيلم بورنوغرافي أو لتخيل مـــشهد اغتصاب نابع من مخيلة شخص يحقد على المهاجرين. يمكننا أن نراهن على بعض العناوين التي ستتصدر صفحات الجرائد الأولى وبـــالخط العريض: **5 مهاجرين مسلمين يغتصبون طالبة إيطالية في ماركوني.** لا، العنوان غير مناسب لأنه طويل جدا. لا بد من عنوان

قصير يكون مؤثرا، مثلا: **مسلمون يغتصبون طالبة**. الخبر رائع فعلا لأنه حافل بالتفسيرات والافتراضات. مثلا كلمة "مسلمون" قد تعني "جميع المسلمين" أي مليار ونصف نسمة! الاستنتاج النهائي يقول إن مليار ونصف من المغتصبين يصولون ويجولون كما يحلو لهم في أنحاء العالم ويعيثون في الأرض فسادا! الأمر الذي يدعو للقلق والحيرة أنهم ينتمون كلهم بلا استثناء إلى نفس الديانة!

الطلبة المساكين ضحايا أصحاب البيوت الماكرين. ينبغي أن أوسع دائرة تعاطفي لشملهم أيضا لأنهم يعانون من مشكلة السكن مثل المهاجرين. ربما بطريقة أسوأ، فأغرب الغرباء الغريب في وطنه.

تتكون شقتنا من مطبخ وحمام وغرفتين ولا تتجاوز مساحتها ستين مترا مربعا. توجد ثلاثة أسرة ذات طابقين في كل غرفة. لو قسمنا هذه المساحة على اثني عشر شخصا، لكان نصيب كل واحد خمسة أمتار. من عادة المحامين إجراء مثل هذه العمليات الحسابية لصالح موكليهم المساجين لاستثارة شفقة القضاة لتخفيض أحكام السجن أو لحث البرلمانيين لاستصدار قانون للعفو عنهم. هل هذا يعني أن الغرفة التي أبيت فيها زنزانة؟ لا، لا أقصد ذلك. ما أريد قوله إن المقارنة بين شقة تيريزا والسجن لها ما يبررها، إذ ثمة العديد من النقاط المشتركة. إضافة إلى الاكتظاظ، هناك قانون شرف يجب احترامه. إن تجربتي المهنية في محكمة باليرمو (في تواصل شبه مستمر مع السجناء) تساعدني على استيعاب بعض التصرفات بسهولة.

يتأسس قانون الشرف على نظام تراتبي من جهة، وعلى قواعد غير مكتوبة من جهة ثانية. من لا يفهم أو يتغابى، فإنه سينال جزاءه. إن أقسى أنواع العقاب ليس العنف، وإنما الإقصاء من الجماعة. هذا

مـــا أريد تجنبه بالتحديد. أرغب في نيل رضا الجميع واستحسانهم. لذلك أنا مستعد كل الاستعداد لقبول كل قوانين الشرف بلا قيد أو شرط.

لقـــد اكتـــشفت العديد من الأمور الهامة. أولا هناك نظام تراتبـــــي يقوم على أساس ديني، رغم أننا مسلمون جميعا. يتمتع المتديـــنون بمكانـــة متميـــزة داخل البيت، فلهم حق الأفضلية في استعمال الحمام. ما هو السبب؟ إن إقامة الصلاة في أوقات محددة تـــتطلب الوضـــوء، والصلاة في المحصلة هي موعد يومي مع الله، فالتأخير ينم عن قلة الاحترام. لذلك، فإن الطابور من أجل الحمام لا ينسحب على معشر المصلين. إذا باغتني البول، فهذه مشكلتي. يجب أن أتدبر حالي بالإسراع إلى إحدى مراحيض المقاهي المنتشرة في ماركوني.

ويمنع جلب الخمور ولحم الخنـــزير بمشتقاته المتنوعة واصطحاب النـــساء إلى البـــيت مـــنعا مطلقا. ما عدا صورة فرانشيسكا باربيريني الـــصغيرة (غـــير المأخوذة من التقويم السنوي حيث تظهر عارية كما ولـــدتها أمها)، فإنه لا يوجد أثر أنثوي يذكر. ويحق للمدخنين ممارسة طقسهم متى أرادوا ولكن شريطة أن يبتعدوا عن الأنظار والانـــزواء في شـــرفة المطـــبخ. ما العمل في أيام البرد والمطر والثلج؟ هذه مشكلتهم. علـــى كل حال، على المدخنين تقديم الشكر لله على أن فتوى طالبان بتحـــريم التدخين لم تصل سطوتها إلى الديار الإيطالية. لا أحد يستطيع التنـــبؤ بالمـــستقبل، قـــد يعتنق بعض هؤلاء المتدينين عقيدة الطالبان، وتضاف السجائر إلى قائمة المحرمات.

هناك تراتبية من نوع مختلف وتستند إلى البلد الأصلي، فالمصريون الثمانـــية يحسبون أنفسهم أصحاب البيت الشرعيين. ربما انتقلت إليهم

العـــدوى الـــتي تصيب جميع الأغلبيات في كل زمان ومكان: إخضاع الأقليات وإذلالها!

وغني عن القول أن العامية المصرية هي اللغة الرسمية في كل أرجاء البـــيت. فالأغاني المسموعة بكثرة هي أغاني أم كلثوم. أنا شخصيا لا تعجـــبني لأنهـــا تكرر نفس المقطع مرات عديدة. إن العرب يعشقون التكـــرار ولا يملون منه، ألهذا السبب يرضون بحكام يتشبثون بالسلطة مدى الحياة ويقبلون وعودهم المتكررة؟ الأطعمة الأكثر انتشارا هي من الطـــبخ المـــصري. هـــناك لوحات لأهرامات الجيزة وبعض القرى الـــسياحية في شـــرم الشيخ معلقة على جدران المطبخ وغرفتي النوم. يرفـــرف علم مصري صغير فوق الثلاجة. هل ثمة حاجة للمزيد؟ نحن نعيش في مستعمرة مصرية صغيرة على الأراضي الإيطالية. هذا كل ما في الأمر.

أمـــا بقية المقيمين في البيت من غير المصريين، فينقسمون إلى قسمين: أحتل أنا ومحمد المغربـــي المرتبة الثانية لأننا عرب ونستطيع التواصـــل لغـــويا مع الأغلبية مما يقلل من حجم الخسائر. ويأتي في المـــرتبة الأخيرة السنغالي والبنغالي، فهما مجبران على القبول بالأمر الواقع أو يغادرا البيت. لا يكفي أن يكون المرء مسلما. من الأفضل أن يكـــون مـــسلما عربيا، بل من الأروع أن يكون مسلما عربيا مصريا!

وهناك تراتبية أخيرة وهذه مفروضة من الخارج. نحن لا نعيش في جزيرة معزولة، وإنما في مجتمع يؤثر على خياراتنا ويحدد حريتنا، لذلك ينقسم سكان البيت إلى مهاجرين غير قانونيين ومهاجرين قانونيين.

يعـــيش أفـــراد المجمـــوعة الأولى في فزع دائم بسبب خوفهم من الاعـــتقال والاحـــتجاز في مراكز موحشة ومن ثم الترحيل من البلد.

يـــتحدثون بتوجس وهوس عن التسوية القانونية لوضعيتهم مما سيسمح لهـــم بالحـــصول علـــى وثائق الإقامة. يرغبون في العيش علانية وليس كالمجـــرمين والفـــارين من العدالة. إنهم يرتعدون خوفا عند سماع اسم الشرطة وخصوصا الكرابنييري وهم أشد قوات الأمن شراسة. يتعرض هـــؤلاء المـــساكين للابتزاز باستمرار ويتحملون المهانة وسوء المعاملة. وكثيرا ما يتجرعون مرارة المشهد التالي:

«الآن سأستدعي الشرطة أيها المهاجر الحقير».

«من فضلك يا سينيور، لا تعرض حياتي للخطر».

«تخـــاف من الشرطة إذن؟ ماذا يحدث لو اتصلت بالكاربنييري، هل ستبلل سروالك؟!».

«لا تفعل ذلك، أستحلفك بكل غال عندك».

أمـــا المهاجـــرون القانونيون، فإنهم يستفيدون من تخفيض الإيجار بمقـــدار خمسين يورو. هذا من كرم تيريزا وتميزها العنصري. كما لا يخافـــون لـــومة لائـــم ولا ترتعد فرائصهم لذكر كلمات مثل الشرطة والكاربنييري والترحيل ومراكز الاحتجاز وحزب رابطة الشمال الحاقد على المهاجرين و... إلخ.

«الآن سأتصل بالشرطة».

«سأعطيك رقم التلفون يا ابن الخنـــزيرة».

«لا تخاف من الشرطة، إذا سأتصل بالكاربنييري».

«ماذا تنتظر يا ابن القحبة الخنـــزيرة؟!».

يـــشاركني في الغـــرفة أربعة مصريين والسنغالي. توطدت علاقتي بـــسرعة مع المصري صبري الذي يشغل السرير المتواجد تحتي. يعجبني لأنـــه خفيف الروح ومرح جدا. لا يتجاوز عمره ثلاثة وعشرين عاما ولا يخـــتلف عـــن أنـــداده الإيطاليين في ارتداء ملابس الموضة والعناية

بالـــشعر واقتـــناء الهواتف الجوالة المتطورة. من حيث الهيئة يخاله المرء إيطالـــيا، فهو شاب ظريف يميل إلى السمرة المتوسطية مثلي. قد يحسبه البعض إيطاليا بالفعل إذا التزم الصمت، ولكن هيهات، فصبري ثرثار. مشكلته أنه لا يستطيع نطق حرف P، ويستبدله بانتظام بحرف B. جاء إلى روما قبل أربع سنوات، ولكنه لا يحمل وثيقة الإقامة. يعمل في أحد المطاعم مساعدا لطاهي بيتزا ويتمنى أن يترقى قريبا إلى رتبة طاهي بيتزا حتى يكسب أكثر.

طلب مني صبري أن أتحدث معه بالإيطالية. قال لي ضاحكا: «من كتـــر الكلام بالعربـــي والعيش والعمل مع العرب، الواحد بينسى انه عايش في إيطاليا!». لا يمل من الحديث عن الفتيات وكرة القدم. حلمه الأكـــبر أن يـــصير لاعبا مشهورا، علق على يمين سريره صورة كبيرة للقائد باولو مالديني لأنه من مناصري نادي ميلان. أنا على غرار الكثير مـــن الصقليين أناصر يوفنتوس. لحسن الحظ لست مرغما على إخفاء هـــذا العـــشق الرياضي حتى لا أعرض المهمة السرية للخطر. أنا قرير العـــين، فجزء من مناصري يوفنتوس من المهاجرين. لا غرابة في الأمر، ففي الماضي القريب، لم يكن مناصرو يوفنتوس من أهل الشمال فقط، بل من الوافدين من الجنوب الإيطالي.

ليـــست كـــرة القدم هواية صبري الوحيدة. الهواية الثانية اسمها فرانشيـــسكا باربيريني وهي نجمة في عالم الفن، أكرمتها الطبيعة بجسد فيه مكورات وانحناءات مغرية. عملت عارضة أزياء، فصارت تقدم برامج تلفـــزيونية وتمـــثل في أفلام ومسرحيات. بلغت شهرتها كافة الربوع الإيطالـــية قـــبل سنوات قليلة عندما ظهرت عارية في التقويم السنوي. ألصق صبري فوق سريره صورة صغيرة لها مأخوذة من إحدى المجلات وهـــي تسير على منصة عرض الأزياء. من عادته قبل الخلود إلى النوم،

بـــصم قـــبلة على الصورة قائلا: «تصبحي على خير يا فرانشيسكا». ويفعل نفس الشيء عندما يصحو: «صباح الفل يا فرانشيسكا يا روح قلبي».

في إحدى المرات نظر إلي وقال لي بصوت خافت حتى لا يسمعه الآخرون:

«شـــايف فرانشيسكا حلوة قد إيه؟ هتكون من نصيبـــي في يوم من الأيام إن شاء الله».

«رد بالك، ما تحلمش بارشا».

«يـــا عيـــسى، أنا مش محتاج أكتر من دقيقة واحدة عشان أقدر أكـــسب قلـــبها. انت ما تعرفنيش كويس. ما حدش يقدر ينافسني في الموضوع دا».

«باهي! فهمني توا، كيفاش باش تعمل باش توصل لها؟».

«ما فيش مشكلة. هي اللي هتجي لحد عندي».

شـــرح لي صـــبري نظريته، وأخبرني عن أمور تخص فرانشيـــسكا بـــاربيريني كـــنت أجهلها. تلك الشابة الحسناء تقع في غرام الرياضيين المشهورين الأغنياء. إضافة إلى كونها عاشت قصة غرام مع أحد الأمراء الخليجـــيين قـــبل ســـنوات. لذلك فهي ليست عنصرية ضد العرب والمـــسلمين. هـــل الأمـــر سيان بين أمير عربـــي ومهاجر غير قانوني مـــصري؟ غـــير أن صبري لا يبالي بالمسألة كثيرا لأن لديه استراتيجية بالأحـــرى مخططا في أربع مراحل: أولا، التحول من مهاجر غير قانوني إلى مهاجـــر قانـــوني. ثانيا، البروز في ناد لكرة القدم (من الأفضل أن يكـــون نـــادي مـــيلان)، المهم اللعب في بطولة الدرجة الأولى. ثالثا، المشاركة بانتظام في برامج تلفزيونية من أجل التعريف بنفسه، قد يكون مفيدا جدا لو صار ضيفا دائما في برامج ذائعة الصيت أو لو أدى دورا

في فيلم كوميدي رفقة الممثل كريستيان دي سيكا يعرض في فترة أعياد الميلاد. رابعا وأخيرا، الاستيلاء على قلب فرانشيسكا باربيريني. خطة رائعة حقا، لا تحتمل إلا ملاحظة واحدة بسيطة: ألا يكون من المفيد تكريس بعض الجهد لتحسين النطق الإيطالي؟ ألا يزال الأمل قائما لاكتساب حرف P؟ في نهاية المطاف قررت الاحتفاظ بملاحظاتي اللغوية، فليس من عادتي التنغيص والتنكيد على الأحلام الجميلة!

صوفيا

الـــزواج لـــيس آخر الامتحانات. أنا مثلا تخطيت بعون الله عقبة البكارة بلا مشاكل تذكر في ليلة مفعمة بالحرج. البكارة ليست حكرا علـــى النساء دون الرجال كما هو متداول. أنا كنت عذراء وكذلك زوجـــي. فهو متدين يطبق تعاليم الدين بحذافيرها، لم يجامع امرأة قبلي خشية الوقوع في مطب الزنا. هذه نقطة في صالحي. أنا على قناعة تامة بـــأن زوجي لن يخونني مع امرأة أخرى، ليس لأنه يحبني وإنما خوفا من الله. أيتها الإيطاليات لا تقلن لي: «كم أنت محظوظة!». ليست المسألة بهـــذه البـــساطة. الزواج من مسلم تقي له إيجابيات وسلبيات. عزيزتي الإيطالـــية، إذا أردت أن تتزوجي من رجل بهذه المواصفات، يجب أن تضعي في الحساب بعض المنغصات الصغيرة مثل تعدد الزوجات. كما تقـــول صديقتي الحميمة سميرة في لهجتها الجزائرية: «هذا هو السوق، ادي ولا خلي». أي إما أن تأخذي كل شيء أو تتركي كل شيء. يا عزيـــزتي، لـــيس من السهل على المرأة مهما أوتيت من جمال وذكاء وشجاعة أن تنافس ثلاث نساء يتصارعن على رجل واحد. هل تريدين مشهدا لهذا الموضوع مقتبسا من إحدى المسلسلات؟

«عايز أقول لك حاجة مهمة يا حبيبتي».

«قل لي يا روحي».

«قررت أتجوز عليكي».

«ليه؟».

«دا شرع ربنا والشرع بيقول أربعة. هو انتي نسيتي ولا إيه؟».

«عملتلك إيه بس؟!».

«الدنيا كدا يا حبيبتي. أنا راجل وأعمل كل اللي عايزه».

«دا ظلم».

«أنا ظالم!؟ ها ها ها. إيه الكلام دا. أنا بطبق القرآن يا حبيبتي».

«بس القرآن بقى ما فيهوش نص صريح بخصوص تعدد الزوجات».

«يا حبيبتي، أنا عايز أقتدي برسولنا صلى الله وسلم، فاهمة؟».

مصيبة المرأة ليس مع القرآن أو السنة. صحيح أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، ولكن يحتاج دوما إلى التفسير. وهنا تكمن المشكلة إذ لا يوجد تفسير نسوي واحد معتمد. هذا المجال حكر على الرجال فقط. هناك إقصاء كبير للنساء في العديد من المواقع الهامة. لا يوجد مثلا نص قرآني أو حديث شريف يمنع المرأة من الصعود إلى المنبر يوم الجمعة. رغم هذا، لم أر في حياتي امرأة تؤم الصلاة. كم أكره أولئك الرجال الذين يتشدقون بقدوة الرسول صلى الله عليه وسلم، بينما يشبعون زوجاتهم وأولادهم ضربا. لم يكن الرسول رجلا عنيفا مع زوجاته. أعرف سيرته جيدا ومن الحماقة تلخيصها في تعدد الزوجات. رغم أنه عاش قبل أربعة عشر قرنا كان أكثر انفتاحا من مسلمي اليوم!

تسألوني عن تعدد الزوجات في الإسلام؟ لا تخيفني الأسئلة. لست خريجة الأزهر إلا أنني قرأت كثيرا حول الموضوع. الآيات القرآنية التي تتناول هذه المسألة لا تعدو عن ثلاث وكلها واردة في سورة النساء، إذ يقول المولى عز وجل: «فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً». صدق الله العظيم. حسب رأيي المتواضع، فإن تعدد الزوجات مرتبط بشرط لا يمكن تحقيقه. كيف

يمكن لرجل أن يكون عادلا مع أربع زوجات؟ ينبغي عليه اقتسام كل شيء على أربع: الوقت والأموال والقبلات والهدايا و... إلخ. أعتقد أنه من الأسهل رؤية القمر في الظهيرة من معاملة أربع زوجات بطريقة مماثلة عادلة. هذا جنون! يا للزوج المسكين! لا، إنه لا يستحق الشفقة لأنه هو الذي اختار هذا المأزق.

أقول بأسف شديد إن المعركة ضد تعدد الزوجات في بلادنا معركة خاسرة مسبقا. لماذا؟ سبق لي أن أجبت على هذا السؤال. حسنا، سأكرر الجواب ولكن للمرة الأخيرة: في مجتمعنا الإسلامي، الرجل هو الخصم والحكم في آن واحد. فاهمين؟ على كل حال، فيما يخصني لا داعي للقلق على مصيري لأن زوجي الباشمهندس ليس غنيا. فتعدد الزوجات ليس في متناول جميع الجيوب!

تسألونني عن ليلة الزفاف؟ الحمد الله مضت بسلام، رغم نقص التجربة عند الطرفين. لا أريد الكشف عن المستور. يمنعني الحياء من الخوض في التفاصيل. والإسلام يحرم على الزوجين الحديث عن حياتهم الجنسية مع الآخرين. ما يحدث في مضجع الزوجية يجب أن يبقى سرا. لكن هذا من الناحية النظرية فقط، لأن الأمر عمليا مختلف كل الاختلاف، فنحن معشر النساء نحب الثرثرة مع الصديقات الحميمات وتبادل النصيحة والمشورة. في المحصلة، تتحول الأسرار الزوجية إلى مادة خامة لتصنيع النميمة وإنتاج الشائعات.

إن امتحان البكارة هو الأول في القائمة، يليه مباشرة اختبار الخصوبة. من المفيد التذكير أن العقم يؤدي أحيانا إلى الطلاق في المجتمعات الإسلامية والعربية. إذا فشل الزوجان في الإنجاب، فالذنب كل الذنب يقع على عاتق الزوجة المسكينة كأن العجز الجنسي والعقم الذكري ليس لهما وجود.

الحمـــد لله حبلت بلا تماطل. تخطيت عقبة امتحان صعب آخر. فرح الجميع وبدأت التوسلات والأدعية أن يكون القادم الجديد ذكرا. كـــان الاســـم جاهـــزا منذ وفاة حماي رحمه الله. لكني رزقت بأنثى وأسميناها على بركة الله سارة. عمرها الآن أربع سنوات. إنها نور عيني. ولدت بعد تسعة شهور بالتمام والكمال من الزواج. ألست امرأة جادة وماهرة؟!

الحمد لله أيضا على أن التقاليد المضرة بالنساء لا تدوم إلى الأبد. ويبقى ربك ذو الجلال والإكرام. فالتغيير آت لا محالة مثل الشمس التي تـــذيب جـــبال الثلوج. في زمن جدتي كانت المرأة التي تنجب الإناث فقط يعتبرها الناس نصف عاقر وكان خطر الطلاق يتربص بها من كل الجهـــات. فالخصوبة مشروطة بإنجاب الذكر. كان هوس الرجال بهذا الكـــلام غير معقول كأنهم ملوك متربعون على العرش ويترقبون بفارغ الصبر مجيء ولي العهد حتى لا تتوقف السلالة الملكية. وترغم أم الإناث زوجهـــا علـــى أن يصير نصف أب. فهو يشبه من انقطع نسله، وهذا كـــاف لنيل عطف الناس وشفقتهم. وقد يسمونه نكاية واستهزاء: أبو البنات!

كانـــت شـــهوري الأولى في إيطاليا قاسية جدا. كان الناس لا ينظرون إلي وإنما إلى حجابـــي عندما كنت أسير في ماركوني. هل أنا شـــبح مرعب أو ضيف غير مرغوب فيه؟ كثيرا ما شككت في ملبسي وقلـــت في نفـــسي: «هو فيه إيه! بيبصولي كدا ليه؟ هو أنا ماشية بلا هدوم ولا إيه؟». كنت أرى في عيونهم ضحرا وضيقا وخوفا.

بعـــد وقـــت قصير اكتشفت الحقيقة. كان حجابـــي كالضوء الأحمـــر في تقاطـــع الطرق، يتوقف المارة بالضرورة عنده. إنها اللحظة المناســـبة للتنفـــيس عن الخوف والقلق والتوتر. كنت مثل كيس الرمل

الذي يتدرب عليه الملاكمون. في الواقع لم أكن أسير وحدي، بل كنت دائمـــا في صـــحبة العديد من المرافقين الوهميين ولكن أسماءهم معروفة لـــدى الخاصـــة والعامة مثل جهاد وكاميكاز و11 سبتمبر والإرهاب وتفجيرات والعراق وأفغانستان و11 مارس والقاعدة و... إلخ. «وزيد يـــا بـــوزيد» كما تقول سميرة. باختصار شديد، كنت في أعين الناس أســـامة بـــن لادن في لباس أنثوي! كان علي أن أصمد حتى لا أصير حبيسة أربعة جدران ولقمة صائغة للانهيار العصبـــي.

قـــررت عدم الاستسلام. في البداية كرست جهدي ووقتي لتعلم اللغة الإيطالية. ثم رحت أرتدي حجابا ملونا. تخليت عن اللون الأسود لأنـــه رمـــز الحداد والحزن. كنت أتفنن في المزاوجة بين الألوان: حمار وردي أو أخضر أو بنفسجي وبقية اللباس أبيض أو أزرق أو أخضر. لا تفـــارقني الابتسامة، عملا بالحديث النبوي: «الابتسامة في وجه أخيك صـــدقة». لقد قاومت حتى لا أفقد الثقة في نفسي. كم كانت الرحلة شاقة!

أعترف أن الوضع قد تحسن الآن. في البداية كان الحجاب هوسا يستبد بـــي ليل نهار. كنت أخشى أن يمنعني من تحقيق حلمي. من يجرأ علـــى تشغيل كوافيرة محجبة؟ في تلك الفترة عانيت من كابوس كان يلاحـــق منامـــي ككلب مسعور. كنت أرى فيما يرى النائم مارلين مونـــرو مرتدية الحجاب والدموع تنهال على وجنتيها! وعادت صوفيا إلى عادتهـــا القديمة، إذ عدت أنا إلى إقناع الباشمهندس زوجي بضرورة نـــزع الخمـــار واستبداله بقبعة نسوية. حربت كل الحيل، رويت له قـــصة مـــصرية محجبة تقيم في ماركوني والتي رفض ابنها الذهاب إلى المدرسة حتى يتجنب سخرية أقرانه: «والدتك تشبه نساء طالبان!» أو «يا ابن الطالبانية!» أو «والدتك أخت بن لادن!».

وحـــذرت الباشمهندس من العواقب على مصير ابنتنا سارة. لماذا نـــسمم حياتها بعقد نفسية هي في غنى عنها؟ لسوء الحظ لم يكترث لي ولتوسلاتي واكتفى باجترار كلمات كالببغاء. «كل زوجات صحابـــي لابـــسين الحجـــاب، هـــيقولو علـــيّ إيـــه المصريين والمسلمين بتوع ماركوني؟!». اللعنة، يفكر في نفسه وفي سمعته فقط. لا يهمه أمري ولا أمر ابنته. ثم أنا من ترتدي الحجاب وليس هو ولا يحس بالجمرة إلا من يكتوي بها.

عيسى

تشبه الغرفة التي أنام فيها مخزنا لتكديس البضائع. يعود الفضل إلى السنغالي إبراهيما. أكياسه الكبيرة المعبئة بالسلع المقلدة مبعثرة هنا وهناك، تحت الأسرة وفوق الخزانة. إذا باغتتنا عملية تفتيش لقوات الأمن، فسيكون مصيرنا السجن.

إبراهيما بائع متجول للسلع المقلدة كحقائب اليد النسوية على غرار أبناء بلده، وهي مهنة غير معترف بها من طرف السلطات، ومحفوفة بالمخاطر. يعيش في إيطاليا منذ خمسة عشر عاما. قضى سنوات في مدن الشمال قبل أن يستقر في روما. يكره اللومبارديين من أهل ميلانو وبيرغامو، ولكنه لم يتخلص من طريقتهم في السب والشتم. هو في الثلاثينات من عمره، إلا أنه يبدو أكبر بكثير، فهو ينتمي إلى تلك الفئة من الشباب التي تريد أن تشيخ قبل الأوان. يهمل الشبان هندامهم وشكلهم الخارجي عندما يفقدون الرغبة في مغازلة الجنس الآخر، وهذا ما يقع للمتزوجين فعلا. قرأت هذا التعليق في إحدى المجلات.

لدى إبراهيما خمسة أولاد يعيشون مع أمهم في داكار. تزوج في سن المراهقة. أراني بافتخار صور ابنه البكر الذي لا يزال يدرس في الثانوية وسيلتحق بالجامعة بعد سنتين. يحلم السنغالي باليوم الذي يرى فيه ابنه طبيبا. الأحلام ليست بالمجان، تتطلب تمويلا متواصلا حتى تتحقق يوما. يعيل أسرته بحوالة شهرية مقدارها مائتا يورو.

نظر إلي بتمعن وقال لي:

«يا أخي قوات الأمن أبناء أقحاب. ينغصون حياتنا صباح مساء. يعاملوننا كأننا سراق أو أسوأ».

«عملك مخالف للقانون».

«يـــا أخـــي أيـــن المشكلة؟ نحن نشتري ونبيع، نحن تجار ولسنا مجرمين!».

«في إيطاليا لا بد من رخصة لممارسة التجارة».

«يا أخي السوق والأرصفة ملك الجميع لا ملكية خاصة».

«أنت مخطئ، إنها ملك البلدية».

«قل كلاما آخر!».

نـــدمت في الحين لأنني تصرفت معه كأنني واعظ. ما الفائدة من إسماعـــه الخـــزعبلات حـــول احترام القوانين؟ القانون في يد الأقوياء والأغنـــياء. أنا صقلي وأعرف ما أقول. شتان بين من يستطيع توكيل محام مشهور وبين المسكين الذي يقنع بمحام فرخ مغمور. ليس صحيحا أن كلـــنا سواسية أمام القانون. قرأت مؤخرا مقالا يشرح كيف يسير نظـــام العدالـــة في بلادنا. وقف متهمان أمام القاضي، أما الأول فهو مهاجر ألباني سرق بقرة لإطعام طفله الصغير وحكم عليه بالسجن، أما الـــثاني فهو كاليستو تانـــزي، المالك السابق لشركة بارمالات الكبرى للحلـــيب ومـــشتقاته والـــذي استولى على أموال آلاف من المدخرين الـــصغار. الآن ينعم بشيخوخته ليس في السجن وإنما في بيته مع أحبائه تحت غطاء الإقامة الجبرية!

أعترف أنني معجب بالباعة المهاجرين المتجولين مثل إبراهيما. إنهم الفوضـــويون والـــثوريون في ســـاحة التجارة، لا يكترثون بالرخص والـــضرائب ولا يخافـــون لومة لائم. السوق ملك الجميع وهو مكان للتواصـــل والتبادل. لماذا لا ترفع البلدية يدها الملعونة عن هؤلاء الباعة

المغلوبين على أمرهم؟ أمرهم يذكرني بفيلم المخرج فرانشيسكو روزي "إي ماياري" مع ألبرتو سوردي ورِيناتو سالفاتوري. ويروي مغامرات مجموعة من التجار الإيطاليين المتجولين في الخمسينيات في ألمانيا والذين يبيعون أقمشة مغشوشة بلا رخص.

في هـــذه الأيام تعرفت على مقيم آخر في البيت، مغربـــي اسمه محمد ويبلغ عمره خمسة وأربعين عاما. يقيم في إيطاليا منذ 1988. كان يعـــيش مـــع زوجته وولديه في روما ثم ساءت أموره قبل عامين عندما طردوا من السكن وفشل في استئجار شقة جديدة. هكذا أعاد أسرته الصغيرة إلى المغرب وعاد هو إلى سرير مستأجر في بيت مشترك. يعتبر هـــذه الوضـــعية دليلا على فشله وظلما وعقابا لا يستحقه. لقد عمل دائما بإخلاص ونـــزاهة في هذا البلد. يعاني من اكتئاب بسبب التأخير في تجديـــد وثـــيقة الإقامـــة. يشتغل في معمل نجارة، وهو عمل خطير يتطلب الكثير من التركيز. قال لي والحزن يلف كلماته:

«أنـــا خايف دابا، كنقطع واحد صبع يا الله يخرجني من الخدمة بلمـــا يفكـــروا في المـــصير ديالي. أنا ماشي نيش بخير مع راسي. أنا مصخصخ».

«رد بالك على روحك».

«والله مـــا قادر. مشيت عند الطبيب وأعطاني شي حبوب باش نعس».

«شدة وتزول».

«صابتني قرحة من القنوط. دابا عام ونصف وأنا كنتسنى يعطوني الأوراق».

روى لي محمـــد قصته التعيسة الطويلة لتحديد وثيقة الإقامة. لقد قلـــص قانون الهجرة الأخير مدة الصلاحية من أربعة أعوام إلى عامين،

ممـــا أربك عمل دوائر الشرطة وأدخلها في دوامة من الفوضى. رغم أن القانـــون يلـــزم وزارة الداخلية بتجديد الإقامة في مدة لا تتعدى ثلاثة أســـابيع، ولكـــن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. هناك مهاجرون اســـتلموا وثائـــق الإقامـــة الجديدة بعد ترقب طويل وقد انتهت مدة صلاحيتها!

في انـــتظار الـــتمديد، يتحصل المهاجر المسكين على وصل عديم الفائـــدة، إذ لا يحق له فتح رصيد بنكي أواستصدار بطاقة التعريف أو استئجار بيت بشكل قانوني أو ... إلخ. هذا الوصل اللعين، وهو عبارة عـــن قطعـــة صغيرة من الورق، لا يصلح حتى لتنظيف المؤخرات! في المحصلة يتحول المهاجر التعيس إلى رهينة أو سجين.

قلب المغربـــي مملوء عن آخره والظاهر أنه في حاجة إلى التنفيس عن نفسه:

«كلمة ماروكينوMarocchino أي مغربـــي دابا ما تعنيش واحد جـــا من المغرب. صارت شتيمة مثل نيغرو وابن حرام وزامل. عرفتي علاش كيحقد الطليان علينا المغاربة؟».

«لا، علاش؟».

«قالـــوا الجـــنود المغاربـــة اغتصبوا الإيطاليات في الحرب العالمية الثانية».

«وهو صحيح».

«أنـــا ما كننكرش. لكن كلشي غايقابل الله بوحده. أنا ما درت والـــو. هـــاذ الجـــنود أولاد الحرام حاربو مع فرنسا ماشي تحت راية المغرب. كان خصهم يتحاكمو على داكشي الي داروا».

دفعـــتني كلمات محمد إلى التفكير في المخيلة الإيطالية. لقد ارتبط أمـــر اغتصاب الإيطاليات بالجنود المغاربة خلال زحف جيش الحلفاء

علـــى روما، رغم أنهم كانوا أقلية. وأطلق على هؤلاء المغتصبات نعت ماروكيـــناتي Marocchinate أي المغـــربات مما جذر الكراهية تجاه المغاربة خصوصا والعرب عموما. ولا يزال الناس يذكرون نحيب صوفيا لـــورين وصـــرخة استغاثتها بعد اغتصابها هي وابنتها الصغيرة في فيلم "لاشوشارا" للمخرج الكبير فيتوريو دي سيكا. وهو مقتبس من رواية مـــشهورة للكاتـــب ألـــبرتو مورافيا. قد لا يعلم الكثيرون أن الجنود الإيطاليين اقترفوا هم أيضا مثل هذه الجرائم وحتى أسوء منها في إثيوبيا والـــصومال خلال الحقبة الفاشية. السؤال المطروح هو هل من العدل الانـــتقام من المهاجرين المغاربة اليوم؟ إيطاليا لا تستطيع الاستغناء عن موضة كبش الفداء، فبعد المغربـــي المغتصب جاء دور الألباني المنحرف الـــسارق في التـــسعينيات. ثم برزت إثر تفجيرات 11 سبتمبر موضة المسلم الإرهابـــي. لمن الدور في المرة القادمة يا ترى؟

مـــررت بـــ «القاهرة الصغيرة» بعد الغداء. ألقيت نظرة خاطفة علـــى نشرة الجزيرة. تابعت تقريرا عن الحرب في العراق. الوضع يزداد ســـوءا يـــوما بعد يوم. هناك مؤشرات مقلقة لحرب أهلية ستأتي على الأخضر واليابس، لن تبقي ولن تذر لأنها شاملة: شيعة ضد سنة، أكراد ضـــد تركمان، عرب ضد أكراد، مسلمون ضد مسيحيين، الكل ضد الكل. يحن الكثير من العراقيين اليوم إلى عهد صدام حسين. يقولون إنه علـــى الأقـــل خلال الدكتاتورية لم يمت الناس في تفجيرات عبثية في طريقهم إلى السوق أو أثناء تشييع جنازة. يبدو أنهم نسوا ما تجرعوه من قمع وتعذيب وقتل ومجازر على يد صدام وحزب البعث.

بعـــد ذلـــك قررت الاتصال بدارنا في تونس. شكلت الرقم و لم تجبني الوالدة كالعادة وإنما صوت ذكري: «أهلا، أنا خوك عادل. شني احوالك؟». لا أذكر هل يكبرني أم يصغرني. هذا معلومة غير مهمة. ما

يهـــم هو الانغماس في الحديث وحشوه بأسئلة مناسبة تمليها الظروف مـــثل اش تعمـــل؟ شني أحوال الوالدين والأحباب والجيران؟ اكتفيت بالاستماع إلى الأجوبة. ركز شقيقي التونسي كلامه على عمله الجديد في البنك. وكنت أتدخل من حين إلى آخر بكلمة أو كلمتين لأؤكد له أنني منتبه لما يقوله ولأشجعه على المزيد.

فجأة التفت إلى يميني، فأبصرت فتاة محجبة في الغرفة الهاتفية المحاذية، كانـــت تبكي وهي تتحدث في التلفون. ما أجملها. جذبتني ملامح وجهها وحـــركاتها العفوية. استغرقت النظر فيها لدقيقتين أو أكثر. لم تنتبه لنظراتي ولم تنتـــبه للدموع التي تبلل وجنتيها لأنها غائصة في آلامها. في لحظة معينة استفاقت من حالتها وسعت إلى استعادة السيطرة على نفسها. دست يدها في محفظـــتها الـــصغيرة وراحـــت تفتش عن شيء ما ولكن بلا جدوى. حدســـت مـــا كانـــت تبحث عنه، فقررت إيقاف المكالمة مع عادل بعد تـــوديعه وتبلـــيغه سلامي للأهل والأحباب. خرجت من الغرفة وانتظرت الفتاة تفرغ من مكالمتها. قدمت لها منديلا ورقيا وبادرتها قائلا:

«تفضلي».

«متشكرة قوي».

لم يتيـــسر لي أن أرى وجههـــا بمـــا يكفـــي. بقي صدى كلمة "متشكرة" يتردد على مسمعي مما سمح لي بتسجيل صوتها الرخيم. الأمر الأكـــيد أنهـــا مـــصرية. رأيتها تتجه نحو حنفي لتسديد ثمن المكالمة ثم خرجت دون الالتفات إلى الوراء. كنت أود أن أعرف أصلها وفصلها وســـبب بكائها. قاومت رغبة جامحة في تقفي آثارها أو مساءلة حنفي عنها، فهو يعرف جميع الزبائن بما يروي ظمأ فضولي، ولكني تراجعت. فـــضلت عدم المخاطرة. خمنت أن فتاة محجبة في ماركوني قد لا تكون طالبة جامعية وإنما سيدة متزوجة.

ذهبت إلى موعدي مع النقيب جودا في شارع ناتزيونالي في حدود الساعة السادسة مساء. وصلت قبل الأوان، فقررت الاستحمام. يا حسرتي على رائحتي الزكية، لقد ذهبت في خبر كان! حالي أشبه ببائع سمك أو شحاذ لم يغتسل منذ أسابيع. من أراد أن يستحم في شقة ماركوني، فعليه الاستيقاظ قبل الفجر بساعة لأن طابور المتوضئين قبل الصلاة طويل والسخان قديم. صاحبة البيت لا تكترث لطلبات المشتكين لاستبداله لأن رحلاتها السياحية المتلاحقة لا تسمح لها بتحمل هذه المصاريف، لذلك راح نزلاء الشقة يتدبرون أمر الماء الساخن بشتى الوسائل «دبر راسك!» كما يقال في تونس والجزائر. ما أكثر الذين يسخنون الماء في الطناجر ويغتسلون به على طريقة الحمام العمومي في بلادهم.

بعد الاستحمام وفيما كنت أنتظر جودا، قررت تفقد بريدي الإلكتروني. عثرت على خمسين رسالة جديدة: ثلاث من أختي (الحقيقية) إيلينا واثنتان من أخي (الحقيقي) كارلو ورسالة واحدة من أختي الصغيرة (الحقيقية) ساندرا وخمس عشرة رسالة من خطيبتي مارتا! ماذا حدث؟ قرأت رسائل خطيبتي واحدة تلو الأخرى بالتتابع الزمني المعكوس أي من آخرها إلى أولها. لحسن الحظ كل شيء على ما يرام. بطبيعة الحال تريد أن تعرف كيف حالي ولماذا انقطعت أخباري و... إلخ. قررت الاتصال بها فورا. استعملت بدافع الحيطة بطاقة هاتفية دولية، فرسميا أنا موجود في الخارج وليس في إيطاليا.

«أهلا يا مارتا».

«حبيبي! كيف حالك في تونس؟».

«كل شيء على ما يرام».

«لمـــاذا لم تتـــصل بـــي يا كريستيان؟ لماذا لم ترد على رسائلي؟ لماذا...؟».

كـــم تعشق مارتا كلمة لماذا! لسوء الحظ أنا لا أشاركها في هذا العـــشق اللغـــوي. أعرف مارتا جيدا، فقد تجاوزت علاقتنا عتبة العام الرابع. تركتها تتحدث على راحتها كي تفرغ ما في جعبتها. هذه حيلة ذكـــية لتحاشي الإجابة عن أسئلتها. استراتيجية فعالة وبحدية خصوصا مع الجنس اللطيف. من عادة النساء طرح الأسئلة وتقديم الأجوبة في آن واحد. ليس لدي خيار آخر هذه المرة، فأنا مجبر على كتمان السر. ولا تخلو أية محادثة بيننا من الخاتمة التالية:

«هل تحبني يا كريستيان؟».

«طبعا، أنا أحبك».

«أنت حياتي يا كريستيان».

ثم اتـــصلت بوالدي، فمرت المكالمة دون معوقات تذكر. لم يقلقا مـــن غيابـــــي، فقد تعودا على أسفاري ويعلمان أنني لست غريبا في تونس أرض أجدادي. إثرها أجريت مكالمات بأختَي وأخي (الحقيقيين) من أجل تحية سريعة.

وصـــل النقيب جودا. شربنا فنجان قهوة قبل الشروع في تحليل آخر تهديدات القاعدة الموجهة لإيطاليا عبر الإنترنت. اغتنمت هذا الجو الهادئ للقيام بدور الوسيط وفاعل الخير، قلت له:

«هل يمكن أن أطلب منك معروفا؟».

«ماذا تحتاج يا تونسي؟».

«هل تستطيع أن تساعد محمد للحصول على وثيقة الإقامة».

«من يكون محمد هذا؟».

«محمد المغربـــي الذي يسكن معي في البيت».

«ما هذا الطلب يا تونسي؟ هل نسيت هدف مهمتنا؟!».

«لا، لم أنس».

«عـــوض أن تبحث عن الإرهابيين، تتسلى في أداء دور المساعد الاجتماعي. برافو عليك».

«أنا أبذل كل ما في وسعي».

«هذا لا يكفي».

اســـتمعت إلى شكوى جودا على مضض، فقد صرت أحفظ عن ظهـــر قلب جمله مثل: «الإرهابيون جاهزون لضرب روما» أو «ستقع كارثـــة عظمـــى، أبشع من تفجيرات نيويورك ومدريد» أو «إننا الآن نلعـــب في الدقائق الأخيرة من المباراة». أسوأ جملة يتلفظ بها وتستفزني أيمـــا اســـتفزاز هـــي «إنـــك تحط من شأني أمام الزملاء الأمريكيين والمـــصريين». الجميع يسعون إلى الحصول على نتائج وفورا. وربما هو يـــريد فقط التنفيس عن ذاته. يجب أن أتفهم وضعيته، فهو عبد مأمور يتعرض لضغوط شديدة. إذا حدثت مصيبة ما، فإن العواقب ستقع على رأسه كاملة. ماذا يمكن أن أفعل أكثر من هذا؟ أنا أبذل كل ما وسعي بالفعل.

قبل انصرافي، وعدني بالتدخل لحل مشكلة محمد. هل من الحكمة الوثـــوق بوعد ضابط في الاستخبارات، علاوة على أن اسمه جودا أي خائن المسيح؟! إن غدا لناظره قريب!

صوفيا

أستيقظ كل يوم الساعة السادسة صباحا، تعودت على هذا النظام منذ زمن. من السهل أن أستغني عن المنبه. أما الباشمهندس زوجي فينام إلى غايـــة منتـــصف النهار. تسير أيامه على نفس الوتيرة منذ سنوات. عطلـــته الأســـبوعية هي يوم الاثنين، إذ تغلق معظم المطاعم في إيطاليا أبـــوابها في هـــذا اليوم. جدوله لا يتغير إذ يخرج إلى العمل في حدود الـــرابعة مساء ويعود إلى البيت بعد منتصف الليل، يتعشى ويرتمي على كنبته يتابع الفضائيات العربية (خصوصا السينيورة الجزيرة) حتى طلوع الفجـــر. لا يفوته أي برنامج على المباشر بفضل الإعادات. إنه مطلع جـــدا علـــى قـــضايا السياسة الدولية مثل الحرب في العراق والسلاح النووي الإيراني وحزب الله وحماس و... إلخ. لو سمعه أحد يتحدث في هـــذه المواضـــيع، لا جـــزم بأنـــه خبير في إحدى مراكز الدراسات الاســـتراتيجية وليس طاهي بيتزا! يمكنه -لو أراد - أن يكون مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة في الشرق الأوسط. فالكفاءة لا تنقصه.

في المقابـــل يكاد لا يعرف شيئا عما يحدث في إيطاليا. نظريته في غايـــة البساطة: إذا لم تتطرق الجزيرة للشأن الإيطالي، فهذا يعني أنه لا جديـــد تحـــت الشمس. يوصيني دائما بعدم الوثوق في وسائل الإعلام الإيطالية لتحاملها على الإسلام والمسلمين أينما وجدوا ومهما فعلوا.

لا أشاطر الباشمهندس هذا الطرح. قلت له مرارا إنه مخطئ. عندما يعيش المرء في بلد ما، عليه إعطاء الأولوية للأخبار المحلية. أنا مثلا أهتم

كـــثيرا بأخبار روما وما جاورها. أريد أن أعرف ما يحدث هنا أي في المديـــنة الـــتي أقـــيم فيها وليس في كابل أو بغداد. الفضائيات مكيدة حقيقـــية بالنـــسبة للمهاجـــرين العرب الذين صاروا متعلقين ببلدانهم الأصـــلية تعلقا مرضيا. كيف يمكن للمرء أن يعيش منقسما بين بلدين؟ أنا لا أستطيع متابعة أخبار إيطاليا والعالم العربـــي في آن واحد. ينبغي الاختيار بينهما. ليس الأمر معقدا على ما أظن.

لـــدي متسع من الوقت كامل النهار لأني لا أعمل. أنا ربة بيت كمـــا يقال. أبذل قصارى جهدي كي أتحاشى الملل. الوقت شيء ثمين جـــدا. أشغل نفسي دائما بأمور مفيدة. في الصباح أقوم بشؤون البيت بـــسرعة وأخصص ساعتين لدراسة الإيطالية. أنا عصامية، لم أتلق أي درس في الإيطالـــية على يد معلم. أعترف أن معرفتي للغة الفرنسية قد أعانتني كثيرا. غالبا ما ألجأ إلى القاموس لفهم الكلمات الصعبة. أملك كراســـة أســـجل فيها جميع المفردات الجديدة. الحمد لله لدي استعداد فطري لتعلم اللغات، فقد طورت منهجية شخصية للاقتصاد في الوقت والجهـــد. أولي أهمـــية قصوى لمسألة النطق. إذا أراد المرء تعلم لغة ما، فعليه التحدث بها باستمرار. هذا من البديهيات. أتابع القنوات الإذاعية والتلفـــزيونية الإيطالـــية حتى يتعود سمعي على لحن الكلمات، واللغة الإيطالـــية موسيقية بامتياز. ولا أشاهد القنوات العربية إلا من حين إلى آخر، فإني أنـــزعج من أمرين اثنين: الإفراط في أخبار السياسة الدولية وانتشار المسلسلات.

نـــشأت في بيئة مصرية تحتل فيها المسلسلات مكانة هامة. بمرور الـــوقت صـــرت لا أطيقها لأنها تبتز المشاهدين وتنتزع منهم الدموع طـــوعا أو غـــصبا. تلعب كل القصص على نفس الوتر وتجتر مواضيع مملـــة. ولا يخلـــو أي مسلسل تقريبا من مشهد كهذا: عاشقان (شاب

وشـــابة، أحدهما فقير معدم بالضرورة) تواجههما عدة عوائق لتحقيق حلمهمـــا الكبير ألا وهو الزواج. وتتصدى لهما العائلة الغنية بالمرصاد. يـــصمد العاشقان أمام كل الزوابع. في الحلقة الأخيرة ينتصر الحب، إذ تظهر العشيقة بلباسها الأبيض والعشيق ببدلته السوداء. وعاشا في تبات ونبات وأنجبا صبيانا وبنات كما تختم شهرزاد قصصها.

كـــثيرا ما يمدحني الإيطاليون لاتقاني لغتهم. تارة يحسبونني إيطالية اعتنقت الإسلام وتارة ولدت في إيطاليا من أسرة مهاجرين أو وصلت إلى الـــبلد في الـــصغر وتلقيت تعليمي في المدارس الإيطالية. ابنتي سارة شاطرة مثلي إذ تتحدث العربية والإيطالية معا. إنها ذكية جدا. عمرها أربـــع سنوات ولا تذهب إلى الحضانة. أتولى تربيتها شخصيا لأنه ليس لـــدي عمل ثابت. ثم إن الحضانات العمومية في إيطاليا قليلة ومكتظة رغم أن نسبة الولادات منخفضة جدا وهي الأكثر انخفاضا في أوروبا. عندما أتجول في شوارع روما، أرى الكثير من المسنين والمسنات. أحيانا الكلاب تفوق الأطفال عددا في الحدائق العامة. هل ستتحول إيطاليا إلى بلد بلا أطفال؟

غالـــبا ما أستمع إلى الراديو فيما أقوم بالشؤون المنـــزلية. هناك برنامج على إحدى القنوات العمومية حول الإسلام والإرهاب بحضور خبيرين مختصين. استوقفني تعليق أحدهما: «إن الشر متجذر في الإسلام وقـــد أنتج العنف والصراعات على مر القرون. الطامة الكبرى هي أن المسلمين لا يعرفون معنى الحب». ولكن الضيف الثاني رد عليه: «لقد اســـتخدم المـــسيحيون واليهود والهندوس وغيرهم العنف باسم الدين. يكفينا نحن الكاثوليك ذكر محاكم التفتيش في القرون الوسطى».

رحـــت أكـــرر في ذهـــني هذه الجملة: «الطامة الكبرى هي أن المـــسلمين لا يعرفون معنى الحب». هذا حكم نهائي في منتهى الخطورة

لا يقـــبل الاســـتئناف. ومعناه أننا حيوانات وهمج ولا نمت للإنسانية بـــصلة. لـــذلك لـــيس لنا الحق في الوجود! أطفأت الراديو ووضعت أســـطوانة لأم كلثوم، وهي مطربة الحب بامتياز، فانطلق صوتها يشدو كالبلبل:

رجعوني عينيك لأيامي اللي راحوا
علموني أندم على الماضي وجراحه
للي شفته قبل ما تشوفك عينيّ
عمر ضايع يحسبوه زاي علي
انت عمري اللي ابتدي بنورك صباحه.

عيسى

قـــبل يومين تلقى محمد المغربـــي مكالمة غريبة الأطوار من دائرة الـــشرطة في رومـــا. طلبوا منه الحضور في اليوم التالي لاستلام وثيقة الإقامـــة الجديـــدة. رجح أن الأمر مجرد مزاح. مع ذلك استيقظ عند الفجـــر حـــتى لا يتأخر عن الموعد، ظنا منه أنه سيجد الطابور المعتاد المخصص للمهاجرين.

عـــندما فتحت الدائرة أبوابها، قصد مكتب الاستعلامات فوجد شـــرطيا خلـــف الزجاج وعلامات الكسل والملل بادية على وجهه. أخـــبره بأمـــر المكالمة وأعطاه وصل وثيقة الإقامة. فيما راح الشرطي يـــتأكد من وجود اسمه في القائمة الطويلة الموجودة بين يديه، أخذت الوســـاوس تحاصـــر المغربـــي من كل الجهات. لام نفسه على عدم امتلاك دليل مكتوب يستظهره عند الضرورة لإيقاف كل واحد عند حـــده وإفحـــام كل من تسول له نفسه التشكيك في صحة المكالمة المباركة. ثم لام نفسه أكثر على أنه لم يطلب من الشرطي الذي اتصل بـــه في اليوم السابق مزيدا من المعلومات كرقم المكتب الذي يجب أن يـــذهب إلـــيه أو اسم الشرطي المكلف بملفه. لقد صار بحكم تجربته الطويلة خبيرا في شؤون البيروقراطية الإيطالية وكذلك في سيكولوجيا أعوان الشرطة وموظفي البلدية، فابتدع نظاما متطورا في التعامل مع الإدارات المختـــلفة لمجابهة الأسئلة الاستفزازية والابتسامات الصفراء الساخرة و... إلخ.

لحسن حظه سار كل شيء على ما يرام. قال له الشرطي بابتسامة عريـــضة وطويلة: «إنهم في انتظارك في المكتب الدبلوماسي، خذ بطاقة المرور يا السينيور محمد». لم يصدق أذنيه، ربما قال في قرارة نفسه: «ما هذا الذي يحدث لي؟» أو «أولاد الحرام، إنهم يسخرون مني» أو «إنني نـــائم أحلم، وعما قليل أستيقظ من سباتي». كلمات مثل "السينيور" و"المكـــتب الدبلوماسي" و"بطاقة المرور" لا تنتمي إلى قاموسه اليومي. لذا احتاج إلى وقت حتى يتأقلم مع الوضع الجديد.

انتظر دوره في قاعة الاستقبال التابعة للمكتب الدبلوماسي، فأبصر وجـــوها مرتاحة للغاية (من أبناء السفراء ورجال الأعمال ومهاجري درجـــة أولى مـــن أمريكان وكنديين) لم يتعود على رؤيتها في دوائر الـــشرطة، فقـــد درج على التقاء مهاجرين من الدرجة الثانية خائفين متوتـــرين حـــانقين. في نهاية المطاف منحوه وثيقة إقامة جديدة مدتها سنتان. شعر بدوار طول اليوم. كان متوجسا ومرعوبا من تسلم وثيقة انـــتهت صلاحيتها! الآن يمكنه أن ينعم بهدنة لا تقل عن العامين. هنيئا له!

لم يتخلص محمد من وقع المفاجأة بسهولة. لم يعثر على تفسيرات شافية كافية بخصوص مكالمة الشرطة والاستقبال الحار الذي حظي به، فراح يصف لي ما جرى بأنه معجزة. وبقي حائرا لا يعرف هل يشكر الله الذي ربما جزاه خيرا على صومه رمضان الأخير أم الوالدة التي تدعو له بالخير دائما. وددت لو كشفت له هوية فاعل الخير، إلا أنني مطالب بالحفاظ على السرية.

لم أنتظـــر طـــويلا في طابور الحمام. فيما كنت أرتدي ملابسي للخروج، طلب مني صبري التريث لأنه يريد أن يخبرني شيئا مهما. هل ســـيحدثني عن الحسناء فرانشيسكا باربيري أم عن نادي ميلان؟ ألقى

نظـــرة سريعة ليتأكد من عدم وجود شخص آخر في الغرفة ثم أسر لي بصوت منخفض:

«عايز أقول لك حاجة مهمة».

«خير؟!».

«فيه جاسوس في البيت بيتجسس علينا».

«جاسوس؟».

«أيوه، ابن الشرموطة هيقع في الفخ وهيندم على اليوم اللي ولدته فيه أمه».

«شكون هو؟».

«شكينا في واحد، بس ما عنديناش أدلة».

«يتجسس لحساب مين؟».

«الشرموطة تيريزا».

اللعـــنة على القحبة الخنـــزيرة. كاد قلبـــي أن يتوقف بل كدت أتـــبول في سروالي من شدة التوتر. خفت أن ينفضح أمري. كشف لي صـــبري عن تفاصيل أخرى بخصوص الجاسوس المشبوه مؤكدا على أن تيريزا مطلعة على كل صغيرة وكبيرة تقع بين جدران البيت. فلا شك أنهـــا على علم بالضيوف الذين ينامون في المطبخ. قد تتخذ من هذا مبررا لرفع العدد الرسمي للنـــزلاء بإضافة سرير ذي طابقين في كل غـــرفة. قـــد تأتينا بالبشرى: «أعزائي المهاجرين المسلمين، كما ترون فهـــذه الـــشقة تسع ستة عشر شخصا». وبذلك ستجني مبلغا إضافيا محترما يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة يورو شهريا، ستستثمرها أحسن اســـتثمار في رحلة سياحية جديدة. الحقيقة أن هذا البيت يشبه سجنا مكتظا. أما الخبر السعيد فهو أن ثمة جاسوسا غيري مكلفا بمهمة تختلف عن مهمتي السرية!

وفيما كنت متوجها إلى «القاهرة الصغيرة»، تلقيت أس أم أس من النقيب جودا يطلب مني الحضور على عجل. عادة نلتقي بعد العصر. لماذا غير البرنامج؟ أمضيت عشرين دقيقة للوصول إلى شارع ناتزيونالي. فتح لي جودا الباب وطلب مني اصطحابه إلى الشرفة. أخذ سيجارة ولكن لم يشعلها على الفور. أثناء هذه الفترة، بدأت أتعرف على طبعه ومزاجه. مثلا عندما يكون متوترا يفضل الوقوف في الهواء الطلق. لماذا يفعل ذلك؟ ربما تحاشيا لنظرات محاوريه فيما يتظاهر بانشغاله برؤية المارة والأشجار والعصافير والسيارات و... إلخ. هذه طريقة جيدة لإخفاء مشاعره. رويت له مغامرة محمد مع الشرطة لتلطيف الجو، استمع إلي صامتا وعلامات الملل ظاهرة عليه. قلت له:

«أريد أن أشكرك على خدمتك».

«هل أنت مسرور من أجل صديقك المغربي؟».

«بالتأكيد، كان على حافة الانهيار العصبي».

«رائع! لقد صرنا مساعدَين اجتماعيَين! بدلا من ترصد الإرهابيين، نبذل قصارى جهدنا لعلاج المهاجرين من المشاكل النفسية. لسنا أقل شأنا من متطوعي الجمعيات الخيرية».

«لماذا استدعيتني؟».

«لإبلاغك خبرا سعيدا».

«قل لي».

«يا عزيزي التونسي، أصدقاؤك الجدد في ماركوني على وشك الظفر بمؤخراتنا!».

«ماذا تقصد؟».

«تلقينا معلومة استخباراتية مرعبة مفادها أن خمسين كيلوغراما

من المتفجرات من نوع غوما - 2، وهي نفس المادة التي استعملت في تفجيرات مدريد، قد وصلت إلى روما في الأيام الأخيرة».

«حقا؟».

«إننا نبحث عن تأكيدات. إذا كانت المعلومة صحيحة، فإننا لن نتمكن من إيقافهم».

لم يـــدم لقاؤنـــا طـــويلا لأنه لا فائدة من الكلام. رجعت إلى ماركوني قلقا ومرعوبا. أخذت مشاهد تفجيرات مدريد تمر أمام عيني بـــلا توقف. لا بد من فعل شيء لإيقاف الإرهابيين. ولكن كيف؟ لا أدري.

صوفيا

في حـــدود العاشرة صباحا أخذت سارة وذهبنا إلى حديقة ساحة ميوتـــشي. إنهـــا تفضّل مناداتي باسم صوفيا وليس ماما ولكن خارج البـــيت فقط، فهي تحب المزاح. ما إن وصلنا حتى أسرعت ابنتي للعب والمـــرح مع أقرانها. جلست إلى جانب أنجلا وهي صديقة إيطالية من رومـــا تـــشرف على الأربعين وتشتغل في وكالة عقارية. لها ابن كثير الحـــركة ولا تمـــل أبدا من الشكوى من مصاعب الأمومة في إيطاليا، خصوصا من لا يحظى بمساعدة من العائلة. تقول لي دائما: «لا تستطيع المـــرأة في بلادنـــا العمل وأداء دور الأم في آن واحد». مثلا لا توجد ضمانات كافية لحماية العاملات الحاملات اللواتي يعملن بعقود مؤقتة، عـــادة لا يحـــصلن على التمديد بعد الإنجاب. تتحسر أنجلا كثيرا على زوال نمـــوذج العائلة الموسعة حيث كانت المعيشة ميسرة وأعباء العناية بالأبـــناء مقسمة بين الأجداد والعمات والأعمام والخالات والأخوال وأبناء العمومة و... إلخ.

أنجـــلا ليست متزوجة، ولكنها تعاشر رجلا هو في نفس الوقت أبو ابنها. لا تناديه أبدا: «زوجي» وتكتفي بكلمة: «رفيقي». لذا فهي رفـــيقة وليـــست زوجة. يقيمان تحت نفس السقف ويقتسمان نفس السرير، ولكنهما غير متزوجين! هذه مسألة معقدة قليلا بالنسبة لمسلمة مـــصرية مثلـــي. طبعا أنا لست غبية، وأفهم الأمور عندما تشرح لي. أعتـــرف أن المـــشكلة لا تكمن في الفهم وإنما في القبول. أليس الرفيق

مرادفا للصديق؟ فشتان بين الزوج والصديق! الحقيقة أني لا أستطيع أن أتصور نفسي في مكانها أي أن أعيش مع رجل وأنجب منه بلا زواج. بالنسبة لي هذا من رابع المستحيلات، قد أقع تحت طائلة الزنا والعياذ بالله. ثم ما ذنب المولود المسكين في خطيئة لم يرتكبها؟ في عيون الناس يكون ابن زنا أو ابن حرام وسيبقى كذلك إلى الممات.

شرحت لي أنجلا مرات عديدة السبب الذي يدفع الرجال والنساء إلى اختيار المعاشرة بلا زواج. والسبب الرئيسي هو أن إجراءات الطلاق مرهقة ومكلفة للغاية وتتطلب ثلاث سنوات على الأقل للحصول على الانفصال النهائي في حالة التراضي أما إذا اعترض أحدهما فإن القصة ستطول أكثر. في بلادي الطلاق سريع كالبرق، يكفي أن يتلفظ الزوج بكلمتين اثنتين: «أنت طالق»، وإذا بالمسكينة تتحول من زوجة إلى امرأة مطلقة. أعترف أنه من الصعب جدا شرح مسائل الطلاق الأول والثاني والثالث وبالأخص أمر المحلل لغير المسلمين، إذ تبدو الزوجة المطلقة مغلوبا على أمرها كأنها دابة أو سلعة أو عبدة تنتقل من مالك إلى آخر. وإنه لمن المضحك المبكي أن تسمع أو تقرأ عن القصص حول المحلل، وهي تملأ الصحف. وقد اطلعت مؤخرا على قصة سيدة مصرية غنية أرادت أن تعود إلى عصمة زوجها السابق بعد الطلاق الثالث، فعرضت على خادمها مبلغا محترما مقابل القيام بدور المحلل. فتزوجها ولكنه رفض تطليقها فيما بعد، وإثر فشل كل المحاولات لإقناع الخادم على احترام الاتفاق المبرم، لجأت السيدة التعيسة الحظ إلى المحاكم للفصل في القضية.

للأسف أعرف تمام المعرفة مسألة الطلاق، فقد طلقني زوجي مرتين ثم تصالحنا. أذكر الحيثيات جيدا، ففي الأولى تخاصمنا بعد أن ألححت عليه أن أعمل، وفي الثانية تشاجرنا إثر رفضي الإنجاب مرة

أخـــرى. لم أكن ضد الإنجاب ولكني طلبت مهلة للتفكير قبل الإقدام علـــى هذه الخطوة. الباشمهندس شخص طيب غير أنه سريع الغضب. عـــندما يفقد السيطرة على نفسه يغدو كالسكران، بل كالحيوان الهائج العدواني.

علـــى كـــل حال بعد الطلاقين الأول والثاني، طلب مني أن أسامحه باكيا. اعترف بأخطائه وأنا قبلت اعتذاره. ماذا كان بوسعي فعلـــه؟ لم يكـــن ممكنا رفض وساطة الإمام زكي، فهو ابن حارتي وأخته صديقتي خلال فترة الطفولة. الحقيقة أني وضعت مصلحة ابنتي في المقـــام الأول. بعد الطلاق الثاني غضب الإمام زكي من زوجي كثيرا وقال له بالحرف الواحد: «هو أنت فاكر إن الطلاق لعبة!». ثم توقـــف مطـــولا عـــند الحديث القائل: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق». في نهاية المطاف حذرنا من مغبة الاستمرار في لعبة الطلاق والمـــصالحة: «خـــذوا بالكو يا جماعة، إنتو بتلعبوا بالنار. الطلاق التالت بقى هيكون نهائي ما فيش رجعة تاني». من عادتي الاستماع إلى كلمـــات الإمـــام بلا تعليق أو تعقيب، ولكن في تلك المرة لم أستطع كتم صوتي، فقلت بنبرة غاضبة: «مش أنا اللي طلقت، هو المـــسؤول علـــى كـــل حاجة». لا أريد التفكير في الطلاق الثالث وعواقبه الوخيمة الآن. أنا مؤمنة بالقضاء والقدر، لهذا السبب أنظر إلى المـــستقبل بسكينة وأمل. يجدر الذكر أن عصمة الطلاق ليست دائما بيد الرجل، قد تكون بيد المرأة أيضا في بعض الحالات النادرة عندما تكون في مركز قوة.

الـــتحقت بنا صديقتنا الألبانية أنيتا بعد عشرين دقيقة تقريبا. هي مسلمة مثلي ولكنها لا ترتدي الحجاب. تسهر على عناية شيخ إيطالي يتنقل من مكان إلى آخر بمشقة الأنفس واسمه جوفاني (اعتاد الناس على

مـــناداته بـــ Nonno أي الجد). لا يزيد عمر أنيتا عن تسعة وعشرين عامـــا وتقيم في روما منذ ست سنوات. لا تزال تقاوم تبعات الكابوس الذي عاشت فيه بعد مغادرتها بلدها الأصلي. بدأ كل شيء قبل عشر ســـنوات، كانـــت أنيـــتا في مقتبل العمر وتعيش سعيدة مع أهلها في العاصمة تيرانا. كانت تحلم بدراسة الطب في الجامعة. ذات يوم مشؤوم ملعـــون تعـــرفت على شاب جميل غازلها بلا هوادة، قال لها إنه يحبها ويـــريد أن يتزوجها. سلمته أنيتا أمرها وقلبها وجسدها، خاصة عندما تقدم لخطبتها رسميا (التفاصيل الأخيرة تصلح أن تكون الحلقة الأولى من مسلـــسل مـــصري أو برازيلـــي أو تركي). بعد شهرين من الخطوبة، وافقت على مرافقته في رحلة سياحية إلى إيطاليا. ما إن وطئت قدماها الـــبلد حـــتى تحـــول حلمها الرومانسي إلى كابوس، إذ اكتشفت أن الخطـــيب العاشـــق ما هو إلا محتال شرير يستعمل وعد الزواج طعما لاصـــطياد فتيات جميلات. لقد بيعت أنيتا جارية لعصابة من المجرمين وأجـــبرت علـــى الدعارة. قضت أربع سنوات في الجحيم ثم تجاسرت وتمردت بفضل مساعدة جمعية خيرية تحارب الاستغلال الجنسي للفتيات المهاجـــرات، إذ أقنعتها هذه الجمعية بتبليغ الشرطة عن أفراد العصابة. هكـــذا تحررت أنيتا من قيود العبودية وحصلت على وثيقة الإقامة، ثم انتقلت للاستقرار في روما. لم تعد إلى ألبانيا قط لأنها لا تزال تشعر بالعار وتخشى من رد فعل الناس وربما من انتقام مستغليها. أنيتا تحقد علـــى الـــرجال وتبكي كثيرا عندما تتذكر تلك الليالي الباردة على قارعـــة الطـــرق المعزولة وهي تنتظر زبائن الجنس. أحاول مواساتها دائما.

أمـــا الجد جوفاني فقد تجاوز عمره الثمانين، وقد مسه الصمم وبـــوادر الخـــرف. يجلس دائما على نفس المقعد في الحديقة لقراءة

صحفه اليمينية. والويل كل الويل لمن يجرؤ على إزعاجه بسؤال أو طلب على شاكلة: «كم الساعة الآن يا سينيور؟». قد يثور ويقيم الدنيا ولا يقعدها. من الأفضل تركه وشأنه. بعد الانتهاء من قراءة المقالات، ينطلق كالخيل الجامح في تعليقاته المعتادة: «أتمنى أن أموت قبل أن تنضم رومانيا إلى الاتحاد الأوروبي» أو «سيغزونا الغجر الرومانيين كالجراد» أو «ماذا تنتظر الحكومة لإغلاق جميع المساجد وزج المصلين المسلمين الإرهابيين في السجون؟!» أو «إذا أراد المهاجرون المسلمون الاندماج في مجتمعنا، فعليهم أن يعتنقوا المسيحية!» أو «اللعنة على الشيوعيين!» أو «آه يا وطني، ما أجملك وما أتعسك!».

يناديني دائما: «يا راهبة!». قلت له مرارا: «أنا لست راهبة لأني مسلمة ولا رهبانية في الإسلام». فيرد: «لكن أنت تشبهين الراهبات في اللباس». عندئذ أحاول إقناعه بالقول: «وكيف لي أن أكون راهبة ولي زوج وبنت؟». فيجيبني بابتسامة لا تخلو من المكر: «فهمت، المسلمون مغرمون بالنساء لدرجة أنهم يتزوجون الراهبات أيضا». لا أرغب البتة في إفهامه أن الزواج عندنا هو نصف الدين، جل المعاصي مرتبطة بالشهوات الجنسية، فالزواج وسيلة لإشباعها في إطار الشرع. ربما هذا ينطبق الحديث على الرجال أكثر منه على النساء، أليس كذلك؟

كاد الجد جوفاني في إحدى المرات أن يقتلني من الضحك. حملق في لئوان، ثم أمطرني بوابل من الأسئلة:

«تقول صحيفة ليبيرو إن الأمريكيين قد استسلموا للأمر الواقع، إذ لن يظفروا بأسامة بن لادن لا حيا ولا ميتا. أعذريني أيتها الراهبة، هل يمكن أن أطرح عليك سؤالا؟».

«تفضل».

«أين يختبئ بن لادن؟».

«لا أعرف».

«كـــيف لا تعرفين أيتها الراهبة؟! لا يمكن أن يكون قد تبخر في الهـــواء هكذا بين عشية وضحاها. لقد خبأتموه في مكان ما كما فعلتم مع صدام حسين».

«أنا آسفة، لا علم لي بذلك».

«حسنا حسنا، أنت لا تثقين في لأنني لا أنتمي إلى دينك. لا شك أنك تعرفين أنني كنت في الجيش خلال الحرب العالمية الثانية، لذلك أنا خبير بالأمور العسكرية. لدي فرضية حول مخبأ بن لادن».

«صحيح؟!».

«أليس بن لادن سعوديا أيتها الراهبة؟».

«نعم».

«إذا هو مخبأ في مكة، داخل ذلك المعبد المستطيل والذي تسمونه ك... ك... كاميكاز أو كوازاكي».

يا للروعة! فرضية في غاية العبقرية. صارت الكعبة الشريفة بقدرة قـــادر دراجـــة نارية يابانية! يا له من مسكين، فهو مجرد ببغاء يجتر ما يقـــرأه في الصحف كل صباح ضد المهاجرين والمسلمين. الحمد لله أنه مـــصاب بالـــصمم. رب ضارة نافعة. لو كان بمقدوره متابعة البرامج التلفزيونية والإذاعية، لكانت الحصيلة أكثر سوءا.

مـــررت بمكتـــبة ماركـــوني لاستعارة كتاب أو شريط فيلم قبل الذهاب إلى السوق لشراء بعض المستلزمات. لاحظت أن جل العاملين فـــيها من الجنس اللطيف، وهن في غاية الرقة واللباقة. اخترت كتيب أطفـــال لـــسارة. ثم صعدت إلى الطابق العلوي المخصص للصحف،

فـــرأيت العربـــــي بلا اسم أي ذاك الشاب الذي أعطاني المنديل في «القاهـــرة الصغيرة». تظاهرت بعدم رؤيته فيما راح يختلس النظر إلي. عـــدت إلى البـــيت عـــند منتصف النهار لتحضير الغداء. بعد الأكل، اســـترخى زوجـــي على أريكته لمتابعة الجزيرة. أحيانا يخيل لي أن هذه القـــناة غـــريمة، بل عشيقة رسمية لا تكترث لوجود الزوجة الشرعية. يقضي الباشمهندس جل وقته في البيت برفقتها. ما المشكلة؟ ربما صرت زوجة غيورا

غـــادر زوجي البيت للذهاب إلى العمل في حدود الرابعة مساء. عـــندئذ أخذت سارة وقصدنا بيت صديقتي سميرة. إننا نسكن في نفس العمارة، يكفي أن أنـــزل طابقين لأزورها. هي بمثابة أختي الكبيرة إذ تكـــبرني بعشر سنوات. إنها جزائرية ومتزوجة من تونسي يشتغل سائقا للشاحنات. تقيم في روما منذ خمسة عشر عاما ولها ثلاثة أبناء وهي ربة بيت مثلي ولكنها غير متحجبة. تعرفت عليها عندما وصلت إلى روما. صـــرنا صـــديقتين في ظرف قصير. عادة نلتقي بعد العصر لندردش في مواضـــيع شتى ولتبادل المشورة والنصيحة. عندما تكون لدي مشاوير مهمة وأفضل أن أكون بمفردي، أأتمنها على ابنتي.

رجعت إلى البيت قبل الثامنة. بعد العشاء حملت سارة إلى السرير وقرأت لها قصة كي تنام. قضيت السهرة في مشاهدة التلفزيون. شدتني قـــناة لبنانية تعرض فيلما غراميا كلاسيكيا مع عبد الحليم حافظ ومريم فخر الدين. وتروي القصة علاقة عشق بين شاب فقير موهوب يريد أن يصير مطربا وشابة جميلة غنية. هل يشبه هذا الفيلم قصص المسلسلات الطـــويلة المملة؟ لا، أبدا. هذا فيلم رومانسي يحتوي على أغان رائعة. يذكـــرني بفتـــرة المراهقة. أنا أيضا تذوقت حلاوة الحب، فقد أحببت طبيـــبا له زوجة وأطفال. كان عشقا أفلاطونيا مقتصرا على النظرات

والأوهـــام. شـــاهدت هذا الفيلم مرات عدة وأحفظه عن ظهر قلب. أحـــب كـــثيرا المشهد الذي يجمع البطلين على حافة النيل على مرأى النجوم فيما يشرع العندليب الأسمر في الغناء:

بتلموني ليه، بتلموني ليه
لو شفتو عينه، حلوين أدي إيه
هتأولو انشغالي وسهد الليالي
مش كتير عليه.

عيسى

بعـــد العـــصر ذهـــبت إلى «القاهرة الصغيرة» كالعادة. اتصلت بـــتونس، فـــرد علي صوت نسائي ولكنه ليس صوت أمي التونسية: «أهـــلا خـــويا الصغير، أنا آمال». أختي الحامل! لم يكن صعبا تجاذب أطراف الحديث، إذ كرسنا كل الوقت للمولود الجديد. قبل كل شيء يجب أن نختار اسما مناسبا. هناك مشاورات حثيثة ومفاوضات مضنية لا تخلو من العراقيل. فزوجها يريد أن يسميه باسم جدته الراحلة إذا كان القـــادم الجديد أنثى. أختي التونسية ليست موافقة وترفض الفكرة من أساسها. ودافعت عن وجهة نظرها:

«توا معقول نسميو طفلة تولدت في 2005 باسم سعدية؟!».

«صحيح هذا اسم قديم».

«أنـــا عارفة أن اسم سعدية عنده قيمة كبيرة لأنها تفكرنا بالمرأة الـــتي ربـــت سيدنا محمد لما صار يتيم. توا إحنا نخزرو للمستقبل ولا للماضي؟».

«المستقبل».

«شفت حتى أنت تخمم كيفي أنا. ما تعطيش اسم سعدية لبنتك. هكا ولاّ لا؟».

وراحت أمال تسرد قائمة طويلة من الاعتراضات، فهي مقتنعة أن البـــنت (الأمر سابق لأوانه، فالمولودة لم تر النور بعد!) لو سميت بهذا الاســـم لعاشت حياتها كلها ضحية لعقدة الدونية ولن تجد عريسا يقبل

لها. لا فرصة للمسكينة سعدية في منافسة قريناتها ذات الأسماء العصرية مثل ليندا وباربرا وباميلا وسوزان وكلارا وإزابيلا و... إلخ. يرجع الفضل كل الفضل للمسلسلات البرازيلية والمكسيكية التي تعرض أسماء من كل الأنواع ولجميع الأذواق.

أختي التونسية متحمسة لاسم ماريا لكن زوجها يرفضه رفضا قاطعا إذ يعتبره اسما مسيحيا. هذه الحجة تغضبها لأنها لا ترى أي تعارض مع الإسلام بل العكس تماما، كانت إحدى زوجات الرسول اسمها ماريا القبطية وقد اعتنقت الإسلام. وضع آمال لا يطمئن. أتمنى أن يكون المولود ذكرا كي لا يتعرض زواجها إلى الخطر. أنهيت الاتصال بعد سلسلة من التوصيات المقدمة عادة للمرأة الحامل ثم ذهبت لتسديد ثمن المكالمة.

فيما كنت أنتظر النشرة على الجزيرة، رحت أدردش مع شاب مصري حول الحرب في العراق. قال لي محاوري وهو خريج كلية علاقات دولية إن هدف الأمريكان ليس التبشير بالديمقراطية في العراق وإنما زعزعة أركان النظام في سوريا وخاصة في إيران. يا له من تفسير لامع واكتشاف رائع! هذا كلام يعرفه الداني والقاصي وحتى الجمال الهائمة في الصحراء. تظاهرت بالاستماع إليه وكنت أثري النقاش بملاحظة أو تعليق مقتضب من حين إلى آخر. لا يعجبني أداء دور الأبله الذي ليس لديه ما يقول. لست تلميذا يستمع إلى أستاذه صامتا خاضعا طائعا.

على كل أنا متعدد المواهب وأستطيع الخوض في مواضيع شتى كالسياسة والرياضة والاقتصاد والتاريخ وعلم الآثار والطب و... إلخ. أنا مستعد للمساهمة في كل النقاشات. ما يهمني هو التعريف بنفسي وكسب صداقات جديدة. لا شك أن شخصية المهاجر التونسي التي أتقمصتها لطيفة ومتفتحة. وهذا عامل إيجابي لإنجاح المهمة.

فجـــأة حولت بصري من الشاشة إلى ما حولي، فرأيت الحسناء المـــصرية المحجبة. هذه المرة لا أرى دموعا على وجنتيها بل ارتسمت على وجهها ابتسامة. ما أجملها. إنها رائعة بحجابها الملون. عندما همت بالخروج، حاولت أن أسجل صورتها في ذاكرتي. كما تمكنت من رؤية غـــلاف الـــسيي دي في يدها: "عودت عيني" لأم كلثوم. قررت ألا أترصـــد خطواتها. أنا مكلف بمهمة محددة، وهدفي الرئيسي هو العثور على أعضاء الخلية الإرهابية الثانية.

لحد الآن استضفت الكثير من الشبان العرب على القهوة والشاي مـــن أجل إنشاء صداقات. تأكدت أن المصريين كالنابولتانيين، يعرفون من أين تؤكل الكتف إذ يسعون دائما إلى كسب ود الآخرين باعتماد خفـــة الـــروح، تارة ينجحون وتارة يفشلون. من المؤكد أنهم مولعون بحب الظهور ويريدون البقاء تحت الأضواء دوما. لهذا السبب يتضايقون كـــثيرا إذا لم يـــنالوا الاهـــتمام المطلوب. إنهم لا يكفون عن المغازلة باستخدام العامية المصرية المعروفة في أرجاء العالم العربـــي وفي أوساط الجالـــيات العربية في الخارج. يمكن لكل مصري أن يكون ممثلا محترفا. قالـــت لي صديقة تونسية ذات المرة: «إن المصري لا يتكلم عفويا وإنما يعـــتمد على سيناريو مكتوب». كانت محقة. لا مجال لمقارنة المصريين بأهل المغرب العربـــي. من الصعب فهم المغاربة والتونسيين والجزائريين عندما يتحدثون مع بعضهم البعض.

أوقفـــت المحادثة مع الشاب المصري حول الديمقراطية والحرب في العراق، لما سمعت جون بلوشي أي حنفي يناديني:

«يا تونسي!».

«أينعم».

«لسة بتدوّر على شغل؟».

«مازلت».

«إن شاء الله فيه حاجة ليك، عايز تشتغل في غسل الصحون؟».

رائع! لدي عرض عمل. حسنا صنعت عندما واظبت على المجيء إلى هـــنا يومـــيا. «القاهرة الصغيرة» مكان استراتيجي، إذ يرتاده جمع كـــبير من المهاجرين مما يسمح بتبادل المعلومات حول عروض الإيجار والعمـــل والجديد في القوانين الخاصة بالمهاجرين ومشاكل الرجال مع زوجاتهم و... إلخ.

حنفـــي تاجـــر ماهر وذكي، إذ يجمع هذا الزخم من المعلومات ويقـــوم بـــدور الوسيط بين العرض والطلب، فعلا يستحق الإعجاب. أخـــبرني حنفي إن فرصة العمل هذه في متناولي وأستطيع مباشرة العمل مـــن اليوم إن شئت. والأمر المغري أن المطعم متواجد على مقربة من «القاهرة الصغيرة»، فلا أحتاج إلى انتظار الحافلة وقتا طويلا ليلا، فأنا لا أريـــد أن أبـــتعد عن ماركوني. ثم نصحني بالذهاب فورا إلى المطعم والحـــديث مع صديقه طاهي البيتزا: الباشمهندس فيليشي. يا له من اسم غريب! ماذا يفعل مهندس في مطعم؟! قال لي حنفي مازحا:

«يا عم التونسي، أنا اللى لاقيتلك فين تسكن فين تشتغل».

«يعيشك يا حاج حنفي».

«لو انت عايز هدور لك على بنت الحلال كمان».

«لا، شكرا. هذا شغل الوالدة».

«خير البر عاجله. خذ بالك دا الجواز نصف الدين».

شكرت حنفي على وساطته. أخذت العنوان وقصدت المطعم بلا تماطـــل. وصلت إلى عين المكان بعد دقائق قليلة. سألت عن فيليشي، فقيل لي إنه الشخص الواقف أمام الثلاجة. سلمت عليه قائلا:

«جيت من طرف الحاج حنفي».

«أهلا وسهلا، أنا اسمي سعيد بس هنا بينادوني فيليشي، دا اسمي الحركي ها ها ها».

«نتشرفو، أنا عيسى».

«حنفي كلمني كويس عليك. قال لي إنك ابن حلال، مش زاي التوانسة اللي بيتاجروا في المخدرات».

«كل واحد مسؤول على نفسه».

«معاك حق».

لم أهتم كثيرا بالفكرة النمطية حول المهاجرين التونسيين المتهمين عادة بالمتاجرة بالمخدرات. أنا في منأى عن الأفكار المسبقة. فقد مللت من الاستماع إلى استنتاجات سطحية فارغة كالقول إن الصقليين من المافيا والنابوليتانيين من الكامورا والغجر سراق والمسلمين إرهابيين وما إلى ذلك من تفاهات. فيليشي لم يغير اسمه الحقيقي وإنما أوجد له ترجمة بالإيطالية. جلسنا وشربنا فنجان قهوة وأخذنا في الحديث. أخبرني أنه يقيم في روما منذ اثني عشر عاما. تخرج من جامعة القاهرة كلية هندسة معمارية. إنه لا يزال متمسكا بالأمل في أن يمارس مهنته الأصلية التي أفنى من أجل دراستها سنوات من عمره. متزوج وله طفلة. استنتجت من طريقة كلامه ومفرداته أنه متدين جدا لكثرة استعماله للآيات القرآنية والأحاديث النبوية كأنه إمام. أوقفنا محادثتنا الجميلة مرغمين عندما وصل صاحب المطعم واسمه جانباولو، رجل في الستينيات من عمره. قدمني فيليشي إليه على أني ابن حلال وأهل للثقة. حدق في لبعض الثواني ثم ترك العنان لأسئلته كأنه شرطي خبير في فنون الاستنطاق:

«من أين أنت؟».

«من تونس».

«هل تتحدث الإيطالية؟».

«نعم».

«هل لديك وثيقة الإقامة؟».

«نعم».

«وما اسمك؟».

«عيسى».

«لماذا تطلقون على أنفسكم أسماء غربية؟ وماذا يعني؟».

«اسم يسوع بالعربية».

«إذا أنت مسيحي؟».

«لا، أنا مسلم».

«أنت مسلم وتحمل اسم سيدنا يسوع المسيح! أنا لا أفهمكم أنتم المسلمين! هل اشتغلت في مطعم من قبل؟».

«لا».

«لا تقلق، هذا ليس ضروريا. أنا أريد شبانا جديين يحترمون مواعيد العمل ولا يسببون لي مشاكل. هل فهمت كلامي؟».

«نعم».

«كما ترى أنا لست عنصريا. فلا فرق عندي بين مسلم ومسيحي، بين مهاجر قانوني وغير قانوني. كلهم سواسية عندي. هل فهمت؟».

«نعم».

«اسمع... نسيت اسمك. من المستحيل أن أذكره. يجب أن نناديك باسم آخر، ماذا تختار كريستيانو أو تونسي؟».

لم أتردد لحظة واحدة في التسمية الثانية. لا داعي للاستفزاز لأن "كريستيانو" يعني مسيحي بالإيطالية. فالمسلم الذي يطلق على نفسه

هـــذا الاسم في ماركوني كمن يتجول في شعاب مكة والصليب يتدلى من عنقه! وجزاء الردة الموت كما هو معروف. ليست لدي أدني رغبة في المخاطرة.

شـــرعت في العمـــل على الفور بعد قبول شرط جانباولو أي أن أعمل بلا عقد. فكرت في أمر وثيقة الإقامة فوجدت أنها لم تفدني البتة ســـواء في اســـتئجار السرير أو في الحصول على العمل. قد أستعين بها لتنظيف مؤخرتي إذا نفد الورق الصحي! اللعنة على القحبة الخنـــزيرة، أربـــاب العمل يتهربون من الضرائب ويفضلون استغلال المهاجرين بلا استثناء قانونيين كانوا مثلي أو غير ذلك، بينما السلطات تغض الطرف كـــأن الأمر لا يعنيها لا من قريب أو من بعيد. تعرفت في المطعم على ثلاثـــة طباخين وهم بنغاليان وهندي بالإضافة إلى مساعد فيليشي وهو مصري اسمه فريد. أما النادلون فإنهم إيطاليون بلا استثناء.

أغلقـــنا أبواب المطعم في حدود الثانية صباحا. فهمت متأخرا أن مـــن مهام غاسل الصحون تنظيف المطبخ والمراحيض أيضا. عدت إلى البيت منهكا منهارا. نمت بلا صعوبة تذكر. يبدو أن الأرق قد زال و لم يخلف أثرا. أدركت أمرا في غاية الأهمية وهو أن الناس المتعبين المرهقين مـــن العمل لا يحتاجون إلى الأقراص المنومة للاستفادة من ليلة هادئة. هذه الأدوية تصلح للأغنياء الكسالى الذين لا يحركون ساكنا. لماذا هذا الـــتهجم على الأغنياء؟ هل بدأت أتحول إلى الشيوعية؟ لا، إنني أهذي بسبب التعب. لا أكثر ولا أقل.

صوفيا

أنـــا جالـــسة قبالة فونتانا دي تريفي والنجوم تضئ سماء روما. المكـــان خـــال من السياح والمارة. أرى الشقراء السويدية بطلة "الحياة الحلـــوة" لفيديـــريكو فيلّيني في وسط الحوض والماء يتدفق على رأسها منـــسدلا على كامل جسدها. فجأة تصيح منادية: «مارشلو، تعال إلى هنا Marcello, come here». أتابع ما يحدث في صمت ونيران الغيرة تـــؤجج مفاصلي. مارشلو ماسترويانى جالس يرتشف قهوته. لا أقدر على الصمود. أنـــزع الخمار وأدخل ماء الفوارة. الماء بارد جدا. يضع مارشلو فنجانه جانبا ويقف ثم يخلع سترته. تعتريني الدهشة لأنه يطيل النظـــر إلي ولا يكتـــرث للشقراء. أنا أشهى منها. يقترب مني. تتلاقى أبـــصارنا، فأدرك أن مارشلو له ملامح شاب المنديل أي العربـــي بلا اســـم الذي رأيته في «القاهرة الصغيرة» ثم في مكتبة ماركوني. ها أنا أرتعـــد مـــن شدة البرد، يتفطن مارشلو العربـــي بسرعة إلى حالتي، فـــيأخذني ويدفئني في حضنه. ما أسعدني. انتهى الحلم واستيقظت من الـــنوم. الحمد لله على أني أذكر أحلامي بتفاصيلها. سأروي كل شيء لسميرة، فهي ماهرة في تفسير الأحلام. قالت لي مرارا: «الحلم صوت يجي من القلب».

فـــرغت من أعمال البيت في وقت وجيز. في حدود العاشرة والنـــصف تـــركت الباشمهـــندس غائصا في نومه ككل الصباحات وذهبت مع ابنتي إلى حديقة ساحة ميوتشي. عندما وصلت وجدت

أنجلا وأنيتا جالستين منهمكتين في الكلام. على مقربة منهما طفلان يلعبان على الأرجوحة، هرولت سارة نحوهما. رأيت الجد جوفاني منغمسا في جريدته. ازددت حيرة عندما تبينت اسم الصحيفة وهي المانيفستو الشيوعية. هل انقلبت الدنيا؟! هل تخلى عن ميوله السياسية وصار شيوعيا؟ لماذا تخلى عن صحفه اليمينية المحبوبة؟ ما أغرب الحياة! دوام الحال من المحال ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. لم أوجه له التحية كي لا أزعجه. للجد جوفاني ردات فعل غير محسوبة.

جلست إلى جانب أنجلا وأنيتا، ولم ألبث أن أكتشف موضوع الحديث، ألا هو النهود. ليس من باب الوقاية من السرطان، فالأمر يتعلق بالجراحة التجميلية للظفر بصدور كبيرة منتفخة. الكثير من النساء، أحيانا مراهقات يتهافتن على هذه الموضة حتى يصرن مغريات ومثيرات.

لا ترى أنجلا وأنيتا ضررا في هذه العمليات. قالت الأولى: «لا فرق بين الاستعانة بالجراح التجميلي وبين استشارة طبيب النساء». وعبرت الثانية عن رأيها: «نحن في عام 2005، وعلى المرأة أن تعيش جسدها كما تشاء، حرة طليقة». يبدو أن أنيتا بدأت تتحول دون أن تشعر إلى ناشطة نسوية!

أنا لا أتفق معهما. لم أستطع التزام الصمت وأدليت بدلوي في النقاش للدفاع عن قناعاتي. نظريتي في غاية البساطة: قد لا يتمثل الحجاب في قطعة قماش فحسب، فهناك حيل لإخفاء بعض أجزاء الجسد. مثلا الثدي الاصطناعي يستر الثدي الأصلي والأنف الاصطناعي يخفي الأنف الأصلي والشفاه الاصطناعية تستر الشفاه الأصلية وهكذا دواليك.

ثم شرعت في إلقاء خطبتي حول مخاطر الجراحة التجميلية كأنني سياسية متحمسة متمكنة في فن البلاغة. قلت لهما: «ما أكثر النهود التي شوهت جراء العمليات الجراحية». لم تكن لدي إحصائيات ولكن من المعروف أن نسبة الفشل مرتفعة. تحالفت أنيتا وأنجلا ضدي وبات صوتهما واحدا: « الجراح التجميلي كسائر الأطباء، قد يخطئ أحيانا. هذه أمور عادية في كل التخصصات الطبية». لم تجانبا الصواب في هذه النقطة. من الأفضل تغيير الاستراتيجية، فقد وصلت الحجة الطبية إلى طريق مسدود. يجب أن أبحث عن غيرها لأكون مقنعة.

قررت التخلي عن الطب والانتقال إلى الدين لأنه حقل تمرست فيها أكثر. في المحصلة أنا مسلمة متدينة محجبة أصلي وأصوم. السؤال: ما هو موقف الإسلام من الجراحة التجميلية؟ الجواب: حرام إذا كانت اعتباطا. مثلا إذا تعرض شخص ما لحادث وتهشم أنفه وتعذر عليه التنفس، فيحق له اللجوء إلى جراح تجميلي. الجمال لا علاقة له بالموضوع، فالمشكلة صحية بحتة. في المقابل إذا استيقظت سيدة من نومها مكدرة المزاج ذات صباح ونظرت إلى المرآة و لم يعجبها أنفها فقررت تغييره، إن الإسلام سيقول لها: «لا يا سيدتي! هذا ممنوع». لماذا؟ لأنه لا يحق لنا التصرف في الجسد كما يحلو لنا، إنه ملك لله عز وجل. عندما نولد نتسلم جسدا جديدا أمانة إلى أجل محدد. يجب أن نرد الأمانة لصاحبها وفي أحسن حالة ممكنة. لذا حتى الوشم هو حرام.

استمعت أنيتا وأنجلا لكلامي بانتباه كبير، بدا لي أنني أصبت الهدف. تخيلت نفسي على خشبة المسرح أمام جمهور عريض قبيل إسدال الستار. كان عليّ أن أكون بارعة في المشهد الأخير حتى أنال

التصفيق الحار، فقلت لهما: «المرأة التي خضعت لعمليات التجميل ماذا ستقول لله تعالى يوم القيامة؟ ها هي الأمانة أعطيتنيها، لكني آسفة لأن عملية الثدي لم تكلل بالنجاح!».

حملقـــت أنجلا في بضع لحظات ثم ردت علي: «يوم القيامة؟! ما هـــذا الكلام يا صوفيا؟! ما لي والإسلام، وأنا لست مسلمة. زد على ذلـــك أني كاثوليكية شكليا فقط، إذ أتذكر كاثوليكيتي بمناسبة أعياد المـــيلاد والفصح. لدي حساسية من جميع الأديان بلا استثناء. أنا حرة أفعل بجسدي ما أريد ولا أقدم حسابا لأحد. مفهوم؟».

تـــشجعت صديقتنا الألبانية من كلام أنجلا، فقالت: «أنا لا أنكر أنـــني مـــسلمة، ولكـــني أريد أن أكون حرة في حياتي الشخصية. إن جـــسدي ملكـــي أو لـــنقل إنه هدية من عند الله، أليس من حقنا أن نتصرف بهدايانا كيفما نشاء؟».

بـــرافو على أنيتا! فكرتها حول الجسد بأنها هدية من الله جميلة. لم أنظـــر إلى المسألة من هذه الزاوية من قبل. على العموم، اعتمادي على الدين لمجابهة الجراحة التجميلية لم يكن موفقا. أنا مؤمنة متدينة وأحكم علـــى ما يحيط بـــي من زاويتي الخاصة، أما أنيتا وأنجلا فتستندان إلى منطلقات مختلفة تماما.

وفـــيما كـــنت أفكر في الحرية في الإسلام، عادت أنجلا للهجوم ثانية: «عزيزتي صوفيا أنت ترتدين الحجاب ولا تحتاجين إلى إبراز صدر مكتنـــــز. فكـــري في النساء المغبونات المحرومات من "ديكولتيه" ولا يستطعن إلى ذلك سبيلا بسبب صدورهن المسطحة المبطحة».

وعـــززت أنيـــتا كـــلام أنجلا: «إن للحجاب مزايا! أنت امرأة محظوظة يا صوفيا!». أنا محظوظة؟! ربما. لا أحب الإفراط في الشكوى. أنيـــتا تـــتقن لعـــبة التهكم وأنا لا أقل عنها براعة. قلت لهما متصنعة

الـــصرامة والـــتحدي: «تريدان ارتداء الحجاب مثلي؟ لا مانع. مرحبا بكما في نادي المحجبات!».

وأطلقنا العنان لضحكات مدوية!

خـــرج الجـــد جـــوفاني الجـــالس قربنا من عزلته. ربما أزعجته ضحكاتنا. بدت علامات الغضب جلية عليه. حدق باتجاهنا بضع ثوان ثم رمـــى الصحيفة على الأرض وراح يصرخ: «هل رأيتن ماذا يكتب الشيوعيون أبناء الحرام في المانيفستو؟ يقولون إن المقاومين كانوا أبطال وطنيين ومنقذي الوطن! أنا أقول إنهم عصابة من الخونة. الأجدر شنق مـــن بقـــي مـــنهم حيا والبصق على قبور من مات منهم. اللعنة على الشيوعيين».

شـــرحت لـــنا أنجلا قصة هؤلاء المقاومين الإيطاليين رغم أن المـــسألة معقـــدة. هـــناك من يعتبرهم أبطالا لأنهم حاربوا النازيين والفاشيين وساهموا في تحرير البلد خلال الحرب العالمية الثانية، وهناك مـــن يضعهم في عداد الخونة لأنهم تآمروا مع الحلفاء ضد موسوليني وقـــتلوه شـــر قتلة. من العسير اتخاذ موقف واضح وحاسم من هذه القضية.

كشفت لنا أنيتا عن السبب الحقيقي في تكدر مزاج الجد جوفاني، فهـــو يعاني من كآبة شديدة لأنه يشعر أن أبناءه قد تخلوا عنه بعد وفاة زوجـــته قـــبل ثلاثـــة أعوام. يأتون إلى زيارته في المناسبات فقط. لقد اهـــتدى إلى حيلة بسيطة للتنفيس عن سخطه وجذب الانتباه. يشتري صحيفة المانيفستو عند الضرورة ويتظاهر بقراءتها. في نهاية المطاف يشن هجـــوما عنـــيفا على الشيوعيين ويحملهم كل شرور الدنيا ومساوئها. قـــررت أنيتا التدخل فورا واصطحاب الجد إلى البيت قبل أن يقع ما لا يحمد عقباه. وانصرفت أنجلا بعد دقائق قليلة.

عرجت على سوق ماركوني قبل العودة إلى البيت. أحب التجول بين بائعي الخضر والفواكه. التسوق حرفة بل فن كما يقول أبي دائما. هناك أصول يجب العمل بها. أولا، معاينة السلع بتأن. ثانيا، عدم المبالاة بنداءات الباعة. ثالثا، عدم الاستعجال في اختيار المنتجات. رابعا، التوفيق بين الجودة والسعر. ينبغي تقليد الصياد الماهر الذي يصوب ويطلق سهمه في الوقت المناسب حتى لا يخطئ فريسته. وجدت ضالتي عند أحد بائعي الخضروات لشراء التفاح. انتظرت دقيقتين ريثما يفرغ البائع من زبونين. ولما جاء دوري، سبقني رجل في الخمسينيات من عمره. في البداية ظننته لم يرني ولكني كنت مخطئة. لقد فعلها عمدا. نظر إلي باستخفاف ووقاحة وقال لي:

«جئت قبلك! هل تفهمين الإيطالية؟».

«أنا أفهم الإيطالية جيدا. أنت قليل الأدب».

«مومياء وتتكلم! لماذا لا ترجعين إلى بلادك؟ لماذا تأتون إلى هنا لاختلاق المشاكل وتدبير التفجيرات؟».

«أنت غبي».

«اذهبي أنت وبرقعك إلى أفغانستان. إذا لم تنصرفي حالا، سأفقد صوابي وأشبعك ضربا».

دفعني الغبي بيده ففقدت توازني وسقطت. شرعت سارة في البكاء. شعرت بغصة في حلقي تمنع عني الهواء. تحلق الناس حولنا يتفرجون على عرض مسرحي عنوانه "المحجبة والغبي العنصري". فجأة رأيت يدا ممدودة لمساعدتي على النهوض. لم أستطع حبس الدموع. فتحت عيني بصعوبة فأبصرت العربي بلا اسم أي مارشلو العربي. قال لي: «ما تخافيش». ثم وبخ الغبي وأشبعه كلاما لا يرضيه. لم أسمع منذ مجيئي إلى إيطاليا مهاجرا أو أجنبيا يتحدث

الإيطالـــية بهذه الطلاقة! لم أفكر إلا في إبعاد سارة من ساحة المعركة، فقـــد كانت مفزوعة. انصرفت دون أن أشكر مارشلو العربـــي. أتمنى أن ألقاه قريبا في «القاهرة الصغيرة» أو في مكتبة ماركوني.

رجعـــت إلى البيت وقررت عدم إخبار الباشمهندس بما جرى. ما الفائـــدة؟ مـــن الأفضل التزام الصمت. إني أعرفه جيدا، سيتذرع بهذه الحادثـــة ليحبسني في البيت أو يمنعني من الخروج وحدي. هذه ليست المرة الأولى التي أتجرع فيها مرارة العنصرية. أنا واثقة من أن حجابـــي هو مجرد ذريعة. فالراهبات أيضا يرتدين لباسا كالحجاب تماما. لماذا لا ينغص أحد عليهن حياتهن؟ ماذا عن الفتيات اللواتي يسرن في الشوارع بألبسة قصيرة أو أنصاف عاريات؟ هن حرات طليقات أما أنا فلا! هذا ليس عدلا. ماذا عن التعاليق الفضفاضة حول الديمقراطية وحرية التعبير والحـــق في الاخـــتلاف في إيطاليا؟! بت أتعاطف مع حجابـــي بمرور الـــوقت. صـــحيح أنني لم أختره في البداية ولكنه صار رمز هويتي بل جلـــدي الثاني. يجب أن لا أكتفي بقبوله وإنما علي أن أدفاع عنه أمام المـــلأ. لم يعد الأمر مسألة حجاب أو لباس أو قماش بل قضية كرامة. إذا لم يقـــبلوا بحجابـــي، فهذا يعني أنهم يرفضون ديني وثقافتي وبلدي الأصلي ولغتي وعائلتي ووجودي في هذه الحياة. وهذا لا أقبله أبدا.

لم أتـــناول الغـــداء مع الباشمهندس وسارة. لم تكن لدي رغبة في الأكـــل بسبب ما حدث لي في السوق. اللعنة على الغبـــي العنصري الجاهـــل الـــذي لا يميز بين الحجاب والبرقع! فشتان بينهما. قال لي: «اذهبـــي إلى أفغانـــستان!». فلـــيذهب هو وأمثاله العنصريون إلى أفغانستان أو إلى جهنم! ثم ما علاقتي أنا بالبرقع وأفغانستان؟!

عيسى

فيما كنت أهم بالخروج من البيت، اعترض طريقي عمر البنغالي يريدني في أمر ما. جلسنا متقابلين في المطبخ. نظر إلي دون أن يبتسم كعادته وقال لي بجدية ممزوجة بالقلق:

«يجب أن تهرب فورا يا تونسي».

«لماذا أهرب؟».

«هل نسيت؟».

«نسيت ماذا؟».

«هل تسخر مني؟».

«لا».

«ألا تذكر الشجار في السوق بسبب المرأة المحجبة؟».

طبعا، عمر يشتغل في سوق ماركوني لذا شهد بأم عينيه الشجار الذي دار بيني وبين ذلك البغل العنصري. لم أتردد في نجدة الحسناء المحجبة. رأيتها مجددا في حديقة ميوتشيي، اكتشفت أن الطفلة الصغيرة التي ترافقها ليست ابنتها، سمعتها تناديها باسمها: صوفيا. وأخيرا قررت أن أخالف قراري الأول بتركها وشأنها وتقفيت خطواتها حتى مكتبة ماركوني ثم السوق. أثناء الشجار حدث أمر يثير الانتباه: عندما هم الصعلوك العنصري بأخذ شيء من حجبه (قد يكون سكينا)، رأيت شابا يمسك به ويمنعه من استعمال يديه. وقد تبينت هويته وهو الزميل المصري عنتر.

أعـــرب عمـــر عن مخاوفه على سلامتي لأنه يعرف جيدا من هو غريمي، إذ يلقبونه بـــ "بستيوتي" Bestione أي الوحش. وهو معروف بعدوانيـــته في الحي وله سوابق. كرر البنغالي عدة مرات: «هو خريج ســـجون وخطير جدا». أكد لي أن البغل العنصري أقسم علانية على الانتقام مني. وقد جمع كل المعلومات عني: من أكون وأين أعمل وأين أسكن و... إلخ. يجب أن آخذ حذري.

«هل فهمت يا تونسي؟ يجب أن تهرب».

«أنا لست خائفا».

«هـــو وغـــد عنيف جدا. لقد اعتدى على الكثير من المهاجرين بالضرب. أنت تحديته أمام الملأ ولن يسكت عليك».

«لا يهمني».

«سينتقم منك».

«قلت لك لا يهمني».

«لماذا تعرض نفسك للخطر يا تونسي؟!».

اعتـــرفت لنفسي أنني لم آخذ هذه المسألة محمل الجد. فكرت في مفاتحـــة النقـــيب جودا في الموضوع. لا شك أنه سيغضب مني لأني لم ألتزم بالاحتياطات اللازمة. الأمر الإيجابـــي أنني سأصير بطلا يدافع عن المستـــضعفين المهاجـــرين في ماركوني مثل روبين هود! ألا يكفي هذا لعزاء النفس؟!

إثرها قصدت «القاهرة الصغيرة»، قلت في نفسي إن هذا المكان أشـــبه بمحطـــة القطارات أو قاعات الانتظار في المطار حيث يهتم كل واحد بشأنه وليس لديه الوقت الكافي لتعكير صفو غيره.

اتـــصلت بأهلي في تونس وتحدثت مع والدتي التونسية. ودار كل الحـــديث تقـــريبا حـــول تجـــارة والدي التونسي، فقرر تغيير نشاطه

والاســـتثمار في تجـــارة أخرى عله ينجح. فالبقالة لم تعد تدر أرباحا كالأيـــام السالفة بعد الانتشار الواسع لموضة السوبرماركت والمنافسة الـــشرسة لاصـــطياد الزبائن. وكما يقول المثل: «حوت يأكل حوت وقليل الجهد يموت».

بعـــد المكالمـــة ألقـــيت نظرة على الجزيرة. لا جديد تحت شمس الأخبار رغم أن حربـــي بوش في أفغانستان والعراق لم تضعا أوزارهما. وهناك حرب ثالثة في الأفق ضد إيران أو ربما ضد سوريا.

اقتـــربت من شابين مصريين، الأول ذو أنف طويل والثاني أصلع، يـــتحدثان عن التسوية القانونية للأجانب. وهو موضوع يشكل هوسا مركزيا للكثيرين. أصبحت ملما بتفاصيل هذه المسألة خلال إقامتي في الحـــي والاحـــتكاك بالناس. أستطيع أن أدلي بدلوي بلا مقدمات أو صـــعوبات تكر. النقاشات في «القاهرة الصغيرة» مفتوحة للجميع مثل الحفـــل الغنائـــي بمناسبة عيد العمال في ساحة القديس جوفاني بروما. تظاهرت بالاستماع قبل أن أتدخل. لدي في جعبتي ما أقوله أنا أيضا. للأسف لم يسعفني الحظ.

فجـــأة دخـــل رجل ذو لحية كثيفة سوداء يرتدي قميصا أبيض وعمت المكان رائحة المسك كأننا وسط الحجاج حول الكعبة أو هكذا يخيل إلي. أطلق تحية السلام حتى بلغت كل أرجاء «القاهرة الصغيرة». يا له من صوت! يمكنه أن يؤذن في الناس دون استعمال مكبر الصوت. شـــكله وهندامه وتحركاته تثير الفضول. إنه أشبه بممثل انتهى لتوه من تـــصوير أحد مشاهد فيلم تاريخي عن عصر الرسول محمد. فيما انشغل بالحـــديث مـــع حنفي، التفت إلي الشاب ذو الأنف الطويل وهمس في أذني:

«ربنا يستر».

«شكون هذا؟».

«رامي الجزار، الكل بيسموه "السينيور حرام" بس في السر».

«علاش يعيّطولو هكا؟».

لم يجب على سؤالي. بدا لي خائفا، ولكن ممن؟ ومما؟ بعد دقيقتين أنهى "السينيور حرام" محادثته مع حنفي، وبدلا من مغادرة المكان، توجه نحونا وشد على أيدينا بقوة. عندئذ بدأ الشاب ذو الأنف الطويل يرتعد. سأل الشاب الأصلع عن ابنه المريض. ثم حدق في عيني وقال:

«أهلا يا أخينا، إحنا ما نعرفش بعض».

«أنا نسكن في ماركوني ما عنديش برشا».

«أهلا بك. أنا الشيخ رامي».

«وبك أكثر، اسمي عيسى. أنا من تونس».

«ما فيش فرق بين مصريين وتوانسة، إنما المسلمون إخوة».

أعربت عن موافقتي بابتسامة محتشمة دون أن أردف حتى لا أشجعه على الحديث. من الأحسن الاستماع والرد على الأجوبة بحذر شديد. تركني "السينيور حرام" وشأني (ربما مؤقتا) وركز على الشاب ذي الأنف الطويل وشرع في استنطاقه:

«إيه يا أخينا، إنت فين؟ ما شفتكش في المسجد يعني، ما تقوللّيش إنك بقيت ما بتصليش».

«لا، أنا بصلي دايما».

«يعني بتصلي في مسجد تاني؟».

«لا، أنا ما بصليش في مسجد تاني».

«يعني بتصلي في البيت. ليه كدا؟».

«ما عنديش وقت».

«ما عندكش وقت لربنا، مش كدا؟!».

«لا، ما قصدتش دا».

«سامحه يا رب».

«...».

«لسا بتشتغل في البيتزا؟».

«أيوه».

«بتشتغل في نفس المطعم الإيطالي؟».

«أيوه».

«قلـــت لك ألف مرة إن الشغل دا حرام. إنت مش عايز تتوب وتبعد عن المعاصي ليه يا ابني؟».

«أنا مسلم بخاف من ربنا، دا أنا بصلي كل يوم».

«مش كفاية. انت بتعمل بيتزا اللي فيها خنـــزير ولا لا؟».

«أيوه، بس...».

«ما تقولش بس. لمس الخنـــزيز حرام. دا مش كلامي أنا، دا فيه فتاوى وإجماع العلماء».

«أنـــا بعرف أشتغل في البيتزا بس. لو سبت الشغل دا مش ألاقي حاجة تانية».

«يا أخي إنت لازم تثيق في ربنا. إذا كنت طائع وتتبع كلامه، هو مش حيسيبك ابدا. دا ربنا قال في القرآن: وما دابة في الأرض إلا على الله رزقها، صدق الله العظيم».

صـــمت الشاب ذو الأنف الطويل وبدا أنه استسلم للأمر الواقع وقـــنع بالهـــزيمة. واصـــل "السينيور حرام" موعظته مستشهدا بالقرآن وبالحديث النبوي. هو متحمس جدا لأنه يعتقد بأنه على حق أو يمتلك الحقيقة المطلقة. فجأة انتبه إلى وجودي:

«وإنت بتصلي في ألهي مسجد؟».

«حتى واحد».

«إنت كمان بتصلي في البيت؟!».

«لا ما نصليش».

«بتقول إيه؟! أنت مش مسلم ولا إيه؟!».

«أنا مسلم ولكن مش متدين».

«يا نهار إسود! دي مصيبة كبيرة يا أخينا. ربنا يهديك».

«آمين».

«بتشتغل إيه؟».

«غاسل صحون».

«فين؟».

«في مطعم طلياني».

«الكلام اللي سمعته قبل شوية بينطبق عليك كمان يا أخينا».

يا للروعة! خصص لي خمس دقائق كاملة من وقته الثمين ليشرح لي أن عملي في غسل الصحون حرام. لمس الخنزير والمشروبات الكحولية حرام في حرام. حسب هذا المنطق، فالراتب الحقير الذي أكسبه بعرق جبيني يكون كالمال المسروق أو عائدات بيع المخدرات.

قبل أن يغور في ستين داهية كما يقول المصريون، شد "السينيور حرام" على أيدينا شدة أقوى من المرة السابقة. تساءلت وأنا أراه يبتعد حول ما إذا كان كل ما بدر منه مزاحا. ولكنه كان جادا. إن الفتوى التي تحرم العمل في المطاعم على المهاجرين المسلمين مشكلة عويصة. ما هو مصير طهاة البيتزا والطباخين وغاسلي الصحون (منهم أنا) والنادلين؟ أغلبية المصريين في إيطاليا يشتغلون في المطاعم. يا نهار أسود منيل بستين نيلة! بدأت أمصر لغويا من كثرة ما أعاشر المصريين. وداعا يا لكنتي التونسية!

صوفيا

في حـــدود الـــرابعة مـــساء غادر الباشمهندس البيت متوجها إلى العمـــل. وفـــيما كنت أستعد للذهاب عند سميرة حيث تنتظرني زبونة لتصفيف شعرها، سمعت جرس الباب. تساءلت في نفسي عمن يكون.

«السلام عليكم يا أختي».

«وعليكم السلام».

يـــا لهـــا مـــن مفاجأة! هي عائشة أي "السينيورة حرام" جاءت لـــزيارتي بلا موعد أو سابق إعلام. إنها زوجة الجزار رامي الذي يدعي أنه إمام والذي ويسمونه خفية في ماركوني بـــ "السينيور حرام" لشغفه بلعبة التحريم. اسمها الأصلي باولا وهي في سني تقريبا. اعتنقت الإسلام قـــبل عـــشر سنوات، لا ترتدي الحجاب وإنما النقاب. تطمح إلى نشر موضة النقاب –ولم لا– البرقع في حي ماركوني وخارجه. أتمنى لها كل الفشل. بادرتني بالقول:

«جئت كي أنصحك يا أختي».

«هل تريدين هدايتي إلى الطريق المستقيم؟».

«اعتبريني في مقام أختك الكبرى التي لا تريد لك إلا الخير».

«أعـــذريني، أرجـــوك أن تدخلي في الموضوع مباشرة، أنا على موعد».

«حسنا، أريد أن أحدثك عن عملك السري».

«أي عمل سري؟!».

«أعرف أنك تشتغلين كوافيرة عند سميرة».

«وما المشكلة؟».

«هذا حرام».

«ولماذا يا ترى؟».

«المفروض تشجيع النساء لإخفاء شعرهن لا إبرازه من أجل إثارة شهوات الرجال!».

«ولكني أحلق شعر الإيطاليات وهن لسن مسلمات».

«مـــن واجبك وأنت مسلمة إقناعهن باعتناق الإسلام وهو دين الخلاص».

«حسنا، هل هناك شيء آخر؟»

«علمت بما جرى صباح أمس في السوق».

«يعني...؟».

«اعتدى عليك ذلك الصعلوك الكافر».

«ممتاز. أنت تعلمين بكل صغيرة وكبيرة».

«بكـــل بـــصراحة يـــا أختي، السبب الرئيسي هذا الحجاب الملون».

«آه، الحجاب...».

«يجب أن يكون الحجاب أسود اللون في الإسلام».

«والنبـــي!؟».

«الحجاب الملون يثير الفتنة».

«ومن أدراك؟».

«هناك فتوى».

«فتوى في حجابـــي؟! وما هي الجهة التي أصدرتها؟ هل خرجت من الجزارة الإسلامية التابعة لزوجك؟!».

«لا أسمح لك بإهانة زوجي، هو إمام محترم».

«إمام؟! أين درس الإسلام؟ هل تخرج من الأزهر؟».

«كفاك سخرية».

«فلتكفي أنت وزوجي عن إصدار فتاوى متطرفة».

«ماذا تقولين؟! نحن متطرفان؟! نحن مسلمان حقيقيان».

«لا تسخري من نفسك!».

«أنت كافرة!».

«الآن تجاوزت الحدود. اخرجي من بيتي».

«ستندمين وستدفعين الثمن غاليا».

مقصوفة الرقبة تهددني أيضا! لا تعرف من الإسلام إلا الفتنة والفتوى! ليس من عادتي طرد الناس من بيتي ولكنها تجاوزت حدود الأدب فعلا. اتهمتني بالكفر. أنا مسلمة تقية أصلي وأصوم. لا أقبل منها مواعظ. لا أطيقها ولا أريد رؤيتها مرة أخرى. تعرفت على "السينيورة حرام" عندما وصلت إلى روما. دعتني إلى لقاء بعض المصريات والعربيات للحديث عن تفوق الإسلام على سائر الديانات واستحالة التعايش مع اليهود والنصارى. هذه الفكرة لم تقنعني تماما لأن صديقتي الحميمة في الثانوية كانت قبطية. قررت الامتناع عن حضور اجتماعات كهذه في غاية البؤس والتعاسة. إذا لم تخني الذاكرة، زارتني هنا في البيت مرتين. في المرة الأولى حثتني على طاعة الزوج طاعة عمياء مطلقة حتى ظننتها تتحدث عن الله عز وجل. إن جدتي أكثر تحررا منها! أما في المرة الثانية فجاءت لجمع التبرعات لبناء مسجد جديد يشرف عليه زوجها. إني أشك في صحتها العقلية. تبدو كأنها دمية مبرمجة على حركات معينة وكلمات متكررة. زوجها الجزار هو من نقل لها عدوى التطرف.

قـــصدت شقة سميرة وتحاشيت التفكير في تلك الحمقاء المغلوب علـــى أمرها. وجدت في انتظاري زبونة جديدة، طالبة في علم النفس. أخبرتني أنها سمعت عني (إلا الخير بطبيعة الحال) عن طريق صديقتها. أنا ســـعيدة لأن اسمي بدأ ينتشر. إنني أستثمر من أجل المستقبل. سيكون الطريق معبدا أمامي عندما أفتح صالوني، سأسميه على بركة الله صالون صوفيا!

أحـــب التعرف على زبوناتي قبل استعمال المقص. أظن أن الشعر جـــزء من طبيعة الفرد. وهذا ينطبق على النساء خاصة، فالمرأة المكتئبة تهمـــل أول ما تهمل شعرها. العناية بالشعر عمل يومي وتتطلب جهدا ومثابرة، وهو كأن تملك بستانا مزروعا فوق رأسك. هذا هو، أنا بمثابة بـــستانية تقص الشعر كما تجنى الزهور بلطف فائق. طبعا، هذه المهنة كغيرها من المهن لها أسرارها. لا يكفي إتقان استعمال المقص والمشط، يجـــب التدقيق في الوجه والجبهة والعينين والأنف والرقبة وبقية أجزاء الجسد. الغاية هو الوصول إلى التناغم الخارجي والداخلي.

نالـــت تـــسريحة الـــشعر رضا الطالبة ووعدتني بالعودة وحث صـــديقاتها ومعارفهـــا على الاستفادة من خدماتي مستقبلا. إثر ذلك جلـــست مـــع سميرة لنثرثر على براد شاي بالنعناع. انتهزت الفرصة لأروي لها حلمي في فونتانا دي تريفي. وبعد أن أفرغت ما في جعبتي، نظرت إلي قائلة:

«قلبك دليلك».

«قصدك إيه؟».

«يعني أنت توا وليتي عاشقة!».

«مـــا تضحكيش عليّ يا سميرة. ما تعمليش زي العرافة اللي بتقرا الكف. أنا ست متحوزة وعندي بنت».

«أنت متزوجة وعندك طفلة وتحبـــي واحد ما هوش راجلك. يا بنت الناس، المشكلة وين؟!».

«دا مجرد حلم».

«لا، الحلم صوت يجي من القلب».

تـــرى سميرة كل علامات العشق بادية علي. لا أنكر أن مارشلو العربـــــي يعجـــبني ولكني امرأة متزوجة وأم لطفلة. لا أريد أن أكون مراهقة. أعترف أنني لست سعيدة في حياتي الزوجية. قبل يومين، فتح الباشمهـــندس موضـــوع الإنجاب مرة أخرى. لم تكن لدي أية رغبة في الشجار. المشكلة أنني استنفدت جميع المبررات مثل: «المعيشة غالية» أو «لازم نـــستنى شوية» أو «أنا موافقة بس...»، إلخ. الحق أني لا أريد الإنجـــاب ثانية الآن لأنني لست مرتاحة. لدي إحساس أن هذه المسألة لن تتوقف عند هذا الحد. أعرف الباشمهندس جيدا، فهو عنيد لا يتنازل عن موقفه مهما كان. استر يا رب!

عيسى

ذهـــبت إلى العمـــل في المساء. وصلت إلى المطعم في الميعاد، فـــوجدت جانـــباولو يحتسي كأسه الأول من الويسكي. أعتقد أنه مـــدمن علـــى الكحول ولكنه لا يعلم. هو محظوظ جدا لأنه يتمتع بجـــسد قوي يتحمل المشروبات الكحولية ولكن إلى متى؟ أبصرت فيليـــشي يحـــضر كعادته عجين البيتزا. قبل أن أسلم عليه، فاجأني قائلا:

«عندنا مشكلة كبيرة قوي يا عيسى».

«تقصد الفتوى؟».

«فتوى إيه؟».

«الفتوى اللى تحرم الخدمة في المطاعم».

«آه بتاعة السنيور حرام».

فيليـــشي علـــى علـــم بالموضوع و لم يخف امتعاضه من أساليب "السينيور حرام" الذي يسعى إلى إرهاب المهاجرين المسلمين المساكين والمصريين خصوصا. وقد أصدر فتاوى كثيرة من جميع الأصناف تحرم مـــشاهدة التلفـــزة أوالاستماع إلى الموسيقى أو مصافحة المرأة للرجل والـــرجل للمـــرأة أو لمس الكلاب أو السكن مع غير المسلمين أو فتح رصيد بنكي أو الاقتراض من البنوك. خلاصة القول يرى الحرام في كل صـــغيرة وكبيرة. لذا يستحق شهرته عن جدارة. بدلا من مزاولة عمله كجـــزار، راح يبـــتدع فـــتاوى غريبة عجيبة. رجل بهذه المؤهلات

الاســـتثنائية، كـــان من المفروض أن لا يعيش في روما وإنما في إحدى القرى الأفغانية تحت ولاية طالبان!

يطمح "السينيور حرام" لنيل منصب الإمام في مسجد روما رغم أنـــه لـــيس خريجا من الأزهر وفق التقاليد المعمول بها. من يدري، قد يستـــضيفه الصحفي الإيطالي المشهور برونو فيسبا في برنامجه الحواري التلفـــزيوني علـــى القناة الأولى. سيستمتع الإيطاليون كثيرا بمشاهدته وبسماع فتاويه الرائعة المدهشة!

روى لي فيليـــشي حادثة وقعت له شخصيا تستحق أن تكون فيلما كومـــيديا. واشـــترك فيها أيضا كل من الإمام رامي أي "السينيور حرام" وإمـــام آخر اسمه زكي ويلقب بـــ "السينيور حلال". جرت الواقعة ذات يوم سبت، وهو أصعب أيام الأسبوع بالنسبة لعمال المطاعم لكثرة الزبائن. تـــشاجر فيليـــشي مـــع نادل إيطالي لسبب تافه حول بيتزا. فثارت ثائرة فيليـــشي وأطلـــق هذا القسم: «ومراتي طالق لو الواد دا ما انطردش من المطعـــم». بعد نهاية العمل، طلب فيليشي من جانباولو طرد النادل إلا أن هـــذا الأخير لم يقتنع بالسبب ورفض تلبية طلبه. و لم تنفع اعتذارات النادل للخروج من المأزق. وجد فيليشي نفسه في وضع لا يحسد عليه عندما راح يـــشرح مـــسألة القسم وعواقبه الوخيمة وازداد الطينة بلة حين فشل في الإجابـــة على سؤال الحاضرين:« ما علاقة زوجتك بالموضوع؟!». إثرها استنجد بـــ "السينيور حرام" لإيجاد حل للمشكلة. فقال له بنبرة خالية من الـــشك إن القـــسم بتطليق زوجته له مفعول الطلاق. لجأ إلى "السينيور الحـــلال" الذي أنقذه من الورطة، إذ اعتبر الزوجة ليست طرفا في الخصام وبالتالي الطلاق باطل. وهكذا انتهت المشكلة على خير.

«خليـــنا من سيرة "السينيور حرام" وفتاويه الزفت يا عيسى. أنا عايز أكلمك في موضوع تاني».

«قل لي».

«الـــواد فريد المساعد بتاعي نازل مصر بكرة هيقعد تَلَت شهور. قال إن أبوه عيان. خايف مايلاقيش مكانه أما هيرجع. إنت عاوز تاخذ مكانه في الفترة دي؟».

«عمري ما خدمت في البيتزا!».

«مـــا تقلقـــش، أنا هعلمك. هو انت عايز تغسل صحون طول عمرك ولا ايه؟!».

«لا، أنا حاب نخدم في حاجة أخرى. وقتاش نبدأ؟».

"خير البر عاجله هكلم لك جانباولو حالا".

شرعت في عملي في اليوم نفسه فيما أخذ مكاني شاب باكستاني في غسل الصحون. شرح لي فيليشي أصول المهنة بصبر ومهارة، مذكرا أنـــه تعلـــم على يد طاهي بيتزا نابولتاني أصيل. من المعروف أن البيتزا ظهـــرت أول مرة في نابولي. قال لي: «سر البيتزا في العجينة يا عيسى، كـــل واحـــد عنده الوصفة بتاعته ولازم تبقى سر زي الكوكاكولا، بعدين بييجي الدور على الإبداع والفانتازيا». تكمن المهارة في ابتداع أنـــواع جديدة من البيتزا بالمزاوجة بين شتى المكونات. وصف فيليشي نفـــسه بأنه باشمهندس في مجال البيتزا وراح يعدد لي أسماء البيتزات التي ابتدعها: بيتزا الزمالك (ناديه الكروي المفضل)، بيتزا سارة (اسم ابنته)، إلخ.

خـــلال الاســـتراحات القصيرة بين بيتزا وأخرى، راح فيليشي يـــتحدث عن فريد بغضب شديد لأنه قرر السفر دون أن يستشيره في الأمر. كان من المفروض أن يخبره مسبقا حتى يتدبر حاله. ويبدو أنه اختلق كذبـــة جديـــدة هذه المرة أيضا عندما برر سفره بمرض والده. السبب الرئيسي هو الشوق إلى معانقة زوجته التي بقيت مع أهلها في القاهرة.

«فهمتني يا عيسى. الواد فريد ما استحملش».

«اشنوا ما تحملش؟».

«الله يـــا عيـــسى! أنت فاهمني ولا لا؟ الواد فريد بينـــزل مصر علشان يتمتع بما طاب لكم! ها ها ها».

كـــشف لي فيليشي العديد من التفاصيل حول حياة المهاجرين المـــسلمين والمتديـــنين خصوصا. الكثير منهم يعانون الأمرين لأن المتـــزوجين منهم يعيشون بعيدا عن زوجاتهم أما العزاب فيواجهون خطـــر الوقوع في الزنا. وتترتب على هذه الوضعية مشاكل نفسية وصـــحية قـــد تصل إلى حد العجز الجنسي. ووجه فيليشي أصابع الاتهـــام إلى الفتـــيات الإيطالـــيات والأجنبيات اللواتي يتجولن في الـــشوارع نـــصف عاريات لاستنفار شهوات المهاجرين المسلمين المساكين.

مرت تجربتي الأولى مع البيتزا بسلام. وأخبرني فيليشي أنني أتعلم بسرعة. بعد نهاية العمل، طلب مني جانباولو مساعدة غاسل الصحون الباكـــستاني في أعمال التنظيف. بعد ربع ساعة وفيما كنت عائدا إلى البـــيت مشيا على الأقدام، رأيت سيارة تنطلق من شارع أوديريزي دا غوبيو بسرعة جنونية متجهة نحوي. ثم توقفت عن بعد أمتار قليلة مني. ابـــن الحـــرام، كاد أن يدحسني! في تلك اللحظة، عادت إلى ذاكرتي صـــورة البغل العنصري الذي تشاجرت معه في سوق ماركوني وأقسم بالانـــتقام مني. ما العمل؟ هل أهرب أم أتحداه؟ عندما أطل من نافذة السيارة، تأكدت أنه ليس هو.

«اصعد!».

«اللعنة! هل تريد قتلي؟!».

«قلت لك اصعد».

اللعنة على القحبة الخنـــزيرة بل اللعنة عليك يا نقيب جودا! ماذا حـــدث؟ لمـــاذا لم يحترم الاحتياطات الأمنية حول لقاءاتنا؟ كان ممنوعا الالتقاء في ماركوني. كان من المفروض أن نلتقي صباح اليوم التالي في شارع ناتزيونالي. إنه يعرض المهمة للخطر!

«لماذا أنت خائف؟».

«اللعنة، كدت أن تدحسني بالسيارة».

«هل كنت خائفا من الوحش».

«الوحش؟! آه فهمت، يبدو أن الزميل عنتر قد أفشى السر».

«أخبروني بأنك أتحفت الحاضرين بلغة إيطالية بديعة».

«أعترف أني أخطأت».

«لقد عرضت المهمة للخطر».

«خطأ لن يتكرر».

«هل تعرف الفتاة المحجبة؟».

«لا».

«هل أنت متأكد؟».

«أقسم أني لا أعرفها».

«المهـــم لا تخف. لقد خلصناك من الوحش هذا الصباح. لم يكن أمـــرا صـــعبا اعتقاله بتهمة المتاجرة في المخدرات. الآن ينام في سجن ريجينا تشيلي».

«هل كنت تريد إبلاغي بهذا؟».

«لا، جئت لإبلاغك بشيء آخر».

«تفضل».

«هل تذكر المعلومة الاستخباراتية حول المتفجرات؟».

«نعم».

«لدينا تأكيدات بأنها موجودة في ماركوني الآن».

«حقا؟!».

«يجب أن تبذل جهدا أكبر يا تونسي».

«ماذا أفعل أكثر من هذا؟».

«تبدو طفلا في المخيم الصيفي!».

«لقد بذلت كل ما في وسعي».

«لحد الآن لم تحقق أية نتيجة».

«أنا لا أقوم بالمعجزات مثل المسيح».

«لقد مرغت سمعتي في التراب أمام زملائي».

«لا يهمني زملاؤك. لقد سئمت هذه المهمة».

«لا يمكنك أن تنسحب الآن، فهمت؟».

لم أجـــد الكلمات المناسبة لوصف رد فعل النقيب جودا اللعين. عندما يقرر أن ينغص على أحد حياته فإن النجاح حليفه. استمعت إلى موعظـــته المجترة مرغما. في نهاية المطاف طلب مني النـــزول قبل جسر ماركـــوني. عـــدت إلى البيت منهك القوى ومحبط المعنويات. لم تكن لدي أدنى رغبة في النوم، ربما لتجنب الكوابيس. اللعنة على الإرهابيين، أين خبأتم المتفجرات؟ ومتى ستقيمون الدنيا ولا تقعدونها؟

صوفيا

أغلقـــت باب غرفة النوم حتى لا أزعج منام الباشمهندس زوجي بيـــنما أقـــوم بشؤون المنـــزل على صوت الراديو، رغم أنه ليس من السهل إيقاظه لأنه ثقيل النوم. الحمد لله أنه لا يشخر، وهذا ليس بالأمر الـــتافه، إذ أخبرتني أنجلا أن فمه زيجات تنهار لهذا السبب. يبدو لي أن الإيطاليين يتطلقون لأبسط الدوافع، أليس كذلك؟

تابعـــت بـــرنامجا إذاعيا مهما على إحدى القنوات العمومية. وكان موضوعه العنف المنـــزلي ضد النساء في إيطاليا. إنه أمر يدعو للعجـــب، فالمرأة لا تتعرض للعنف النفسي والجسدي والجنسي في الشارع وهي عائدة من العمل تحت جنح الظلام، وإنما في عقر بيتها. نعم في بيتها. من يصدق ذلك؟! المذنبون هم الأزواج أو العرسان أو الآبـــاء أو الإخـــوة أو الأبناء. لسوء الحظ لم يعد البيت مكانا آمنا بالنسبة للنساء.

أغلبية ضيوف البرنامج هم من الناشطات في الجمعيات النسائية. قالـــت إحـــداهن وهـــي مـــسؤولة عن مركز لإيواء ضحايا العنف المنـــــزلي:«في مخيلتـــنا الجماعـــية نتصور المعتدين على أنهم مصابون بأمـــراض نفسية يختبئون في شوارع مظلمة أو أماكن معزولة يترصدون المـــرأة الـــتي تسير بمفردها ولا تستطيع الدفاع عن نفسها. الحقيقة أن العـــنف موجود في وسط الأسرة، متماسكة أم ضعيفة، غنية أم فقيرة، صـــغيرة أم كبيرة». واستطردت ضيفة أخرى في اتصال هاتفي: «إننا

نكرر منذ سنوات دون أن يستمع إلينا أحد أن الأسرة هي أخطر مكان علـــى المرأة لأنها تتعرض لأبشع أنواع العنف أو الموت على غير مرأى ومسمع المجتمع».

وتدخلت نائبة في البرلمان (لا أعرف إلى أي حزب سياسي تنتمي) بنـــبرة تحمـــل الكثير من خيبة الأمل والعجز: «يعتبر العنف في بلادنا السبب الرئيسي لمقتل الإناث اللواتي تتراوح أعمارهن ما بين 14 و50 عامـــا أو إصـــابتهن بإعاقة دائمة. وهي نسبة تتجاوز ضحايا السرطان وحـــوادث المرور من النساء. إننا أمام كارثة اجتماعية لا تقل خطورتها عن ظاهرة المافيا».

واستعرض مقدم البرنامج إحصائيات يندى لها الجبين. مثلا هناك ســـتة ملايين امرأة في إيطاليا تعرضن مرة واحدة في حياتهن على الأقل للعنف الجسدي أو الجنسي. وتواجه أكثر من 60 % من النساء معاملة عنـــيفة على يد قريب أو شخص معروف لديهن. وتتعدى نسبة النساء اللـــواتي يمتـــنعن عن تقديم شكوى للمصالح المختصة 95 % خوفا من العواقب. غير معقول!

بعد هذا النقاش حول العنف المنـــزلي في إيطاليا أجدني حائرة ومـــشدوهة. كـــنت أعـــتقد أن المرأة تقع ضحية العنف في مواقع الحروب في أفغانستان والعراق أو في البلدان التي تعيش رهينة الحقد العنـــصري كمـــا هو الأمر في إفريقيا أو حيث ينتشر الفقر والجهل والتخلف مثل بلداننا العربية، ولكن ليس في إيطاليا! أفليست إيطاليا عضوا في الاتحاد الأوروبـــي وفي نادي الدول الأكثر غنى في العالم؟! الله أعلم.

قـــصدت حديقة ساحة ميوتشي رفقة سارة في حدود العاشرة حـــتى نتمـــتع بـــصبيحة مشمسة. كنت على علم بأن صديقتي لن

تحـــضرا، فقد اتصلت بـــي آنيتا بالأمس وأخبرتني أن الجد جوفاني مـــريض، ولذا سيقرأ صحفه المفضلة جالسا مرتاحا في صالون بيته. أما أنجلا فلديها موعد مع طبيب الأطفال لأنها ابنها لا يزال يعاني من آلام في المعدة.

كـــنت أبـــصر ابـــنتي وهي تلعب مع طفلتين. كانت مطمئنة وسعيدة. إن طفولتها لن تكون مثل طفولتنا أنا وأخواتي. لا أعرف هـــل ستكون محظوظة في حياتها، فالعلم عند ربنا عالم الغيب. كل شـــيء مـــرتبط بالقسمة والنصيب. أنا متأكدة من أمر واحد: لن تتعـــرض لأبشع عنف منـــزلي على الإطلاق أي ختان الإناث. لن تكون ابنتي امرأة مختونة أبدا، جريحة الجسد والنفس. هذا ليس وعدا مـــني وإنمـــا قـــسم سأحافظ عليه ما دمت حية ومهما كلفني. يا صـــغيرتي، لن تسمح أمك لأي شخص كان أن يؤذيك. آه منك يا جراحات الذاكرة! لا يقوى على مداواتك حتى الزمن. من أين تبدأ قصتي مع الختان؟

ربمـــا قـــبل الالتحاق بالمدرسة الابتدائية، إذ كانت تقيم في حينا عجوز بلا أسنان، تشبه الساحرة الشريرة الموجودة في قصص الأطفال. كانـــت الخبيرة الأولى في الختان وتزاول نشاطها بقسوة لا توصف. لم أكـــره في حياتي كلها إنسانا كما كرهتها. ماتت قبل سنوات وأدعو علـــيها بالخلـــود في النار. اعتدنا نحن العرب على قول: «لا تجوز على المـــيت إلا الرحمة». إن الحقد ليس من طبيعتي، ولكن ما حيلتي إذا بلغ السكين العظم؟

كانـــت أختي الكبرى نادية أول الضحايا. أفضل استعمال كلمتي "العـــنف الحقـــير" لوصـــف خـــتان الإناث. أنا لا أجيد لعبة اللف والـــدوران. علمـــتني صـــديقتي سميرة مثلا جزائريا ضد النفاق يقول:

«اخـــرج لربـــــي عريان، يكسيك». من العسير وصف عذاب نادية النفسي والجسدي.

بعـــد ذلك جاء دور أختي زينب التي تكبرني بعام. ولا أبالغ إذا أدرجـــت مـــا تكبدته (وهي لم تتجاوز السابعة من عمرها) في خانة ضـــحايا التعذيب! هذه جريمة ضد الإنسانية، أسوأ من الاغتصاب لأن المذنبَـــيْنِ الرئيسيَّيْنِ هما الوالدان! وتقع على عاتقهما مسؤولية جسيمة. لـــولا مـــوافقة الآباء والأمهات ما كان العنف الحقير سائدا وشائعا. كـــادت أختي المسكينة أن تموت من جراء النـــزيف الدموي. فقد وصـــلت إلى المستشفى بين الحياة والموت واستطاع الأطباء إنقاذ حياتها بمعجـــزة. لم تكن الداية الشريرة بلا أسنان ممرضة وإنما أمية، فلم يخطر على بالها تعقيم المقص الذي تستعمله لارتكاب جرائمها في حق فتيات صغيرات لا حول لهن ولا قوة.

لم تـــتخلص زينب قط من عواقب هذه المحنة. فالجرح عميق في الجسد والنفس معا ولا يندمل بمرور الأعوام. فلا أمل في الشفاء ولا في النـــسيان. إنها أسوأ من معاقة لأن المجتمع لا يعترف بهذه العاهة كما لا يحق لها الشكوى والبكاء على ما جرى لها. بل الأدهى والأمرّ أنها مجبرة علـــى تقـــديم الشكر لكل من ساهم في ختانها من أجل الحفاظ على شـــرفها وعفـــتها!!! السبب الحقيقي هو الخوف من قوة المرأة الجنسية والـــسعي المرضـــي المحموم إلى خصيها. فلتذهب هذه العفة العفنة إلى جهـــنم! أعرف أنني امرأة محجبة ولا يحق النطق بكلمات بذيئة ولكني سأشتم بالإيطالية دون العربية هذه المرة فقط حتى أرفع بعض الحرج عن نفسي: «Vaffanculo».

أثـــرت هذه التجربة سلبا على مجريات حياة زينب. تزوجت قبل خمس سنوات وأنجبت طفلا بصعوبة كبيرة. تقول لي دائما: «أنا نصف

امرأة». هي لا تعيش حياة جنسية عادية. زوجها رجل طيب ويقول لها دومـــا إنـــه يحبها ولن يتخلى عنها أبدا. هل هو صادق؟ الله أعلم. في الحقـــيقة أنا لا أؤمن بالحب الخالد، فهو يصلح موضوعا لمسلسل تركي كالمشهد التالي، وهو مدبلج بالعامية اللبنانية:

«بتحبني؟».

«كتير».

«قديش بتحبني؟».

«كتير كتير».

«إمتى بتحبني؟».

«بحـــبك بالربيع، بحبك بالصيف، بحبك بالخريف، بحبك بالشتي. بحـــبك دايمـــا. حبيـــبتي أنا، نور عيوني، شمس أيامي، راح حبك على طول».

«ليش بتحبني؟».

«ليانو إنت حياتي».

«بحبك اكتر من نفسي».

«حبنا نقي أبيض متل حليب أماتنا».

«حبيبـــي أنا! خلينا نعيش حبنا حتى الموت يفرقنا».

كلام parole، كلام parole، كلام parole، كما تقول الأغنية الإيطالية. مجرد كلام فقط. الواقع يختلف عن الخيال. لسوء الحظ أختي زيـــنب ليست بطلة أحد المسلسلات. لحد الآن زواجها صامد، ولكنه قـــد ينهار في أية لحظة. الحياة حبلى بالمفاجآت السارة والمحزنة. الحقيقة أنهـــا ليـــست مطمئنة على مستقبلها إذ تخشى أن يتخلى عنها زوجها أو يطلقها من أجل امرأة كاملة 100 %! إن الرجال جنس معقد شيئا ما لم يُـــدرس بمـــا فيه الكفاية. يقال عادة إن المرأة متقلبة الأطوار، أليس

الرجل أيضا متقلب المزاج؟ وماذا عن الرجال الذين يتغيرون بين عشية وضحاها؟ اليوم يقول لحبيبته: «أنت حياتي ولا أستطيع العيش دونك». وغـــدا يقـــول لهـــا: «أنـــا آسف جدا، وقعت في عشق امرأة أخرى وسأتزوجها». هل هذا سلوك سوي معقول؟

شـــكلت مصيبة الختان بداية الكابوس بالنسبة لزينب مما قصر من عمـــر طفولـــتها البريئة. عندما جاء دوري، كان الوضع قد تغير قليلا لحـــسن حظي. ماذا حدث؟ هل حرم العنف الحقير في مصر؟ هل قدم أولـــياؤنا الأعـــزاء للمحاكمة بتهمة التحريض والمشاركة في الجريمة؟ للأســـف لم يقع شيء من هذا القبيل. ولكن حدث أمر بسيط وتافه. بعـــد مأساة أختي، قررت عائلتي الكريمة الاستغناء عن خدمات الداية الـــشريرة بلا أسنان والبحث عن البديلة. لم تكن المهمة سهلة وكانت تتطلب بعض الوقت.

خطـــرت على بال عمتي أمينة فكرة رائعة. اقترحت أن تأخذني عـــند صديقتها الممرضة الخبيرة بأمور العنف الحقير. كنت أثق في عمتي ثقـــة عمياء وكنت متيقنة من أنها لن تسمح لأحد بإيذائي. لم نذهب عـــند صديقتها الممرضة، إذ لم يكن لها وجود أصلا، وإنما قصدنا بيتها لتنفيذ خطتها المتألفة من الخطوات التالية: أولا، لا مساس بالبظر. ثانيا، وضـــع قطـــرات من دم دجاجة على كيلوتي. ثالثا، تمثيل دور طفلة خـــرجت لـــتوها من جحيم العنف الحقير. بذلت كل ما في وسعي في اعتصار الدموع وكنت في المستوى المطلوب.

في الـــيوم الأول مـــرت الأمـــور بسلام أما في اليوم التالي فقد اكتشفت أمي المستور، ولكنها لم تجرؤ على فضحنا خاصة بعد مأساة أختي زينب. بقي هذا السر مدفونا في صدورنا نحن الثلاث لبضعة أشهر ثم اتـــسعت دائرة العارفات كأخواتي مثلا. يفضل الرجال عدم التدخل

لأنهم يعتبرون ختان الإناث شأنا نسويا صرفا كالحيض. نظريا أنا امرأة مختونة أما عمليا فالأمر ليس كذلك تماما.

هل كنت محظوظة؟ بالتأكيد. ولكن الأمر ليس بهذه البساطة، فقد عشت سنوات الطفولة والمراهقة خائفة من أن ينكشف أمري. كنت أعاني من كوابيس رهيبة أحاول الهروب دائما من قبضة الداية الشريرة بلا أسنان. كنت أقسو على نفسي بالسؤال: «لماذا نجوت ولم تنج أخواتي؟». ما أقسى الشعور بالذنب.

لا أزال أذكر طهارة أخي عماد. كان عرسا بمعنى الكلمة. إنني أتساءل: «لماذا يعتبر ختان الصبيان فرصة للاحتفال والفرح أما ختان الإناث فيشبه مراسيم جنازة؟!». ويقولون إنه فرض شرعي أو سنة نبوية ولكني لم أعثر على سند في القرآن. ويقتصر المؤيدون بالاستشهاد بحديث وحيد للرسول صلى الله وسلم علما بأن ليس جميع الأحاديث متفق عليها أو صحيحة. مؤخرا استيقظ علماء الأزهر من سباتهم وقالوا إنه ليس فريضة شرعية بل هو مضر بالصحة. إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يحرمونه مثل الاغتصاب والمخدرات؟ الله يلعنك يا شيطان! يكفي أن يقولوا جملة وحيدة لا تحتمل أي التباس: «ختان الإناث حرام». سمعت مؤخرا في الراديو أن البرلمان الإيطالي عاكف على تحضير قانون يمنع هذا الختان المنتشر في أوساط بعض الجاليات المهاجرة. أنا موافقة لأنه سيوفر الحماية للفتيات الصغيرات.

أكدت لي سميرة مرارا أن العنف الحقير غير موجود في المغرب العربي. ولا أثر له في ألبانيا أي بلد آنيتا. لماذا نسبة كبيرة من المصريات مختونات؟ لماذا تنتشر هذه العادة عندنا في مصر (وفي أوساط الأقباط أيضا) والسودان وبلدان الخليج وغيرها ولا توجد في مناطق

أخـــرى مـــن العالم الإسلامي؟ أليس هذا دليلا كافيا على أن الأمر لا يتعلق بفريضة دينية كأداء الصلاة وصوم رمضان؟!

قبل سنتين شاهدت شريطا وثائقيا رائعا في التلفزيون وتناول تجربة جراح فرنسي متخصص في عمليات لإعادة تكوين البظر. هذه ليست جـــراحة تجميلية. هناك الكثير من النساء الإفريقيات اللواتي يلجأن إليه مـــن أجل استعادة كرامتهن المهدورة. العملية بسيطة ولا تترتب عنها مخاطر صحية.

كـــم سيكون رائعا لو أجرت زينب هذه العملية. يا له من حلم جمـــيل سيضع حدا لكابوس الداية الشريرة بلا أسنان. إني أبذل كل ما في وســـعي لمساعدتها وتوفير بعض المال لدفع مصاريف العملية. أشتغل كوافيرة سرية في شقة سميرة من أجل هذه الغاية. زوجي لا يعلم شيئا. أخبـــئ المـــال خلف الأريكة الكبيرة في الصالون لأنني لا أستطيع فتح رصيد في البنك أو في البريد.

قبل أسابيع قليلة شاهدت مرة أخرى فيلم "لاشوشارا" مع صوفيا لورين. القصة حزينة جدا وتدور أحداثها خلال الحرب العالمية الثانية. تـــودي صـــوفيا دور أم شابة تهرب مع ابنتها من روما بسبب القصف وتلجـــآن إلى إحـــدى القرى في الريف. في نهاية الفيلم تتعرضان إلى الاغتصاب في كنيسة مدمرة مهجورة على يد مجموعة من الجنود على رؤوســـهم عمـــائم. هذا المشهد يبكيني كل مرة لأنني أتماهى سواء مع شخـــصية الأم أو مـــع شخصية البنت. ختان الإناث كالاغتصاب، لا أرى فرقا كبيرا بينهما.

لـــيس مـــن الحكمة البقاء وحيدة في هذه الحديقة في غياب آنيتا وأنجـــلا. لا يمكن أن يمر مشهد امرأة محجبة جالسة لوحدها على مقعد في حديقـــة عمومية مرور الكرام. لا أستطيع أن أشرح لجميع المارة من

الفـــضوليين أن الطفلة الجميلة التي تلعب على مقربة مني هي ابنتي. من الأفضل الانصراف.

عيسى

اســـتيقظت حوالي الثامنة صباحا. لم أرد الوقوف في الطابور من أجـــل الحمام. فضلت أن أغسل وجهي في المطبخ والخروج للتبول في إحدى مراحيض المقاهي المجاورة. ما حيلتي؟ هذا البيت ليس فندقا كما تقول الأمهات الإيطاليات لأبنائهن المشاغبين. الحقيقة أنني أشعر بشيء مـــن الإحـــباط. بقـــيت مسترخيا على السرير دقائق أخرى. لم أكن مـــستعجلا. رحت أضرب أخماسا في أسداس بخصوص عملية القاهرة الـــصغيرة. لم أحصل لحد الآن على نتيجة تذكر. ليس سهلا الكشف عن إرهابيين محترفين مستعدين للتضحية بالنفس والنفيس. تعمدت ألا أطـــرح على نفسي هذا السؤال المزعج: أين خبؤوا المتفجرات من نوع غوما-2؟

دخل صبري على غرفتنا مسرعا. لقد انتهى لتوه من أخذ دوش. إنـــه في لياقة بدنية جيدة ومزاج رائق للغاية. هل نجح في كسب قلب معـــشوقته فرانشيـــسكا باربيريني؟ لا يمكن استبعاد أية فرضية. بادرني قائلا:

«فيه واحدة بتموت فيّ وهي عايزاني أنام معاها».

«فرانشيسكا باربيريني؟!».

«يا ريت!».

«شكون هي مالا؟».

«أكيد مش هتصدقني».

«قل لي ها الساعة».

«تيريزا صاحبة البيت».

«تيريزا!؟».

«والله العظيم تلات زي مبقولك كدا. أنت عارف يا عيسى ليه تيريزا بتأجر لنا البيت؟».

«باش تصوّر فلوس».

«لا، دي الولية غنية. فيه سبب تاني».

«وشنوه السبب؟».

«تيريـــزا بتـــستعمل الـــشقة عشان تجيب عشاق جُداد. فهمت دلوقتي؟».

«فهمت».

«المرة الجاية هيكون الدور عليك يا عيسي».

«باهي!».

كشف لي صبري بعض التفاصيل الخطيرة عن تيريزا. قال إنها تحب قـــضاء ليالي الأنس والمتعة بصحبة شبان عرب فحول فقراء. وأخبرني كذلك أن رحلاتها المتتالية إلى البلدان العربية هي وسيلة لممارسة هوايتها المفضلة: السياحة الجنسية! رأيت بأم عيني أوروبيات مسنات من أرامل ومطلقـــات يعانقن ويقبلن شبانا في عمر أبنائهن بل وأحفادهن. تنتمي تيريـــزا إلى هـــذه النوعية من البشر إذن. لا أعتقد أنه اختلق هذا الخبر للمساس بسمعتها.

صـــبري واثق ومقتنع تمام الاقتناع بما يقول وراح يسرد أسماء شبان مهاجرين عرب وقعوا في شباك السينيورة تيريزا. وكل من يجاريها ويلبـــي رغبـــتها، يـــنال امتيازات مغرية كالإعفاء الكلي عن دفع الإيجار. رفض صبري دعوتها للعشاء لأنها الخطوة الأولى لاستدراجه إلى سريرها.

«إنت فاكر يا عيسى الجاسوس بتاع تيريزا؟».

«أينعم».

«دلوقتي عندنا أدلة».

«توا قل لي أشكون هو».

«عمر البنغالي».

«والله؟».

«أيـــوه يـــا سيدي. إنت واخذ بالك البنغاليين دول بيعيشوا مع بعضهم في نفس البيت. ليه الواد دا جيه يسكن معانا؟».

فـــيما هممت بمغادرة البيت، أبصرت إبراهيما السنغالي جالسا وحـــده يحملـــق في الـــسقف. من عادته الخروج باكرا ليبيع سلعه المقلدة. سلمت عليه وجلست قبالته. بدا لي حزينا ومرهقا. بادرته قائلا:

«أراك حزينا يا إبراهيما، ماذا هناك؟».

«لدي بعض المشاكل يا أخي».

«مشاكل عائلية؟».

«لا، فلـــنقل مـــشاكل في العمل رغم أنني في نظر القانون لست عاملا وإنما مهربا أو بائعا لسلع مسروقة. أنا في مقام المنحرف أو المجرم الذي يستحق أن يقبع في السجن».

«ماذا جرى لك؟».

«فرض علي أبناء الحرام من أعوان الأمن غرامة جديدة وصادروا سلعتي كلها».

شـــرح لي إبراهيما وضعيته الصعبة بكلمات وجيزة. إنه ليس قلقـــا علـــى الغرامة، فقد حصد طوال السنوات الماضية رزمة من الغرامات و لم يسدد أية منها. إنما المشكلة هي السلعة المصادرة التي

تمـــثل كل رأسماله. ولذا لا يستطيع الاستمرار في عمله خاصة وأن تجار الجملة (أكثريتهم صينيون) لا يقدمون تسهيلات لزبائنهم لأنهم يعرفون خطورة عملهم ومشاكلهم مع قوات الأمن. في نهاية المطاف لم يكن متوجسا على مصيره وإنما على مصير أسرته في السنغال. قال لي بنبرة صادقة:

«ما أقسى أن تكون معيل الأسرة يا أخي! يجب أن أرسل حوالة لا تقل عن مائتي يورو».

«كيف ستتصرف الآن؟».

«لا أعـــرف. ما آلمني أكثر ليس الغرامة أو مصادرة السلعة، وإنما كلمات مهينة تلفظ بها أحد أعوان الأمن».

«ماذا قال لك؟».

«أسود وسخ بالخراء لقيط ابن العبيد».

«ابن حرام عنصري!».

«يـــا أخي العنصرية في إيطاليا منتشرة بين الإيطاليين أنفسهم. أنا عـــشت في ميلانو ورأيت كيف يسيئون معاملة الإيطاليين الوافدين من الجنوب».

لم يـــتجن إبراهيما على أحد، فالعنصرية متفشية في بلادنا. ما أكثر الإيطاليين من أهل الشمال الذين يكنون كرها واحتقارا لنا نحن أهل الجنوب. قررت مساعدة إبراهيما بمائتي يورو. في البداية رفض المـــبلغ بحجـــة أنـــنا كلـــنا مهاجرون فقراء ولكل واحد حاجياته والتـــزاماته. في النهاية قبله بعد أن أقنعته أنها مجرد سلفة (بلا فوائد طـــبعا). ارتمى علي إبراهيما بغتة وعانقني بقوة. أعرف أن النقيب جودا سيوبخني على تصرفي هذا. سيحتج قائلا: «هل أنت متطوع أم عميل سري؟!».

أخيرا ذهبت إلى المقهى للتبول وتناول فنجان قهوة. ألقيت نظرة في مرآة المرحاض، فصدمني مشهد وجهي الشاحب. لقد انخفض وزني وصرت نحيفا. لا داعي للبحث عن الأسباب، أنا مرهق جدا من جراء الضغوط. من الأفضل أن لا تراني أمي الحقيقية التي تعيش في صقلية. لن تعرفني.

إثرها قصدت «القاهرة الصغيرة». أجريت اتصالا هاتفيا بتونس. رد علي صوت رجالي: «أنا أُبيّك». والدي التونسي! يا لها من مفاجأة جميلة. إنها المرة الأولى التي أتحدث معه. جرت المكالمة في ظروف جيدة لسببين: أولا، الابن العربي لا يتحدث مع والده بل يستمع إليه دليلا على الاحترام. ثانيا، كنت على علم بمشاكله التجارية، فاكتفيت بالاستفسار عما إذا كانت هناك أخبار جديدة. والدي التونسي قليل الكلام على عكس والدتي التونسية. قدم لي خلاصة أمره في مدة لا تتعدى خمس دقائق، مركزا على ضرورة تحويل البقالة إلى محل للاتصالات الهاتفية. يجب مجاراة التقدم والتغيرات. قبل توديعي، أطال في التوصيات: لا تشرب الخمور ولا تختلط بالمنحرفين ولا تقرب القمار والديون و... إلخ. لم يقل شيئا عن النساء. ليس من عادة الآباء العرب الحديث مع أبنائهم حول النساء والجنس.

بعد المكالمة فضلت البقاء في «القاهرة الصغيرة» وجلست لمشاهدة التلفزة. القناة لم تتغير: الجزيرة دائما وأبدا! هناك إعادة بث برنامج مخصص كليا للنساء. ما شد انتباهي هو موضوع الحلقة: التحرش الجنسي في العالم العربي. هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أسمع فيها مسلمات يتحدثن عن الجنس بهذه الجرأة في التلفزة! إنها ثورة ثقافية حقيقية. قبل سنتين تقريبا تعرفت في تونس على باحث إنجليزي من جامعة أوكسفورد. كان يعد أطروحة الدكتوراه حول قناة الجزيرة.

قـــال لي إن الدول العربية في طريقها إلى الديمقراطية من الداخل بفضل القـــنوات الفضائية، وإن الأنظمة الديكتاتورية تقف عاجزة عن ممارسة هوايـــتها المفـــضلة أي الرقابة. بدأ الناس يتحدثون بحرية أوسع حول الثالوث المحرم: السياسة والدين والجنس. للأسف لم تدم الحلقة طويلا، فقد وصلت متأخرا.

عـــندما خرجت، التقيت بفيليشي. لم يكن بمفرده، كان بصحبة أربعة أشخاص لا أعرفهم. بادرتهم قائلا:

«السلام عليكم».

«وعليكم السلام، أهلا يا عيسى. إحنا بنتكلم في موضوع يهمك إنت كمان. فاكر الفتوى اللى بتحرم الشغل في المطاعم؟».

«أينعم».

«عايز أقدم لك الأخ زكي، إمام مسجد السلام».

أخيرا جمعتني محاسن الصدف مع الإمام زكي. حدثني فيليشي عنه طـــويلا و لم أسمع عنه إلا الخير. يلقبونه بـــ "السينيور حلال" نكاية في الإمام رامي الجزار. إنه في الأربعينات من عمره، حسن الهندام، لا يحمل لحـــية ولا يـــرتدي قميـــصا فضفاضا. كان يتحدث بإيطالية بسيطة وواضحة و لم يقل شيئا بالعربية. أدركت السبب فيما بعد عندما عرفت أن أحد مرافقيه إيطالي اعتنق الإسلام. اسمه الحقيقي أليساندور واختار لنفسه اسما إسلاميا هو أبو بكر.

اســـتمعت إلى حديث "السينيور حلال" باهتمام وإعجاب. كان صـــوته منخفـــضا وهادئا. استطاع أن يدحض فتوى "السينيور حرام" حـــول العمـــل في المطاعم بالحجة والبرهان. قال إنه من الضرورة فهم الإسلام وتفسير القرآن والأحاديث النبوية في ضوء السياق الذي نعيش فيه. وحذر من مغبة استيراد الفتاوى من الخارج وذكر أكثر من مرة أن

هامش حرية الاعتقاد أكبر في إيطاليا مقارنة بالدول الإسلامية. واختتم موعظـــته الحسنة بحديث نبوي: «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا». النتيجة واضحة وضوح الشمس في الظهيرة: إن العمل في المطاعم الإيطالية حلال على المسلمين أجمعين.

صوفيا

ذهـــبت إلى مكتـــبة ماركوني علني أعثر على شريط فيلم جميل أستعيره. وجدت القليل من الناس. انتهزت الفرصة لإلقاء نظرة سريعة على الصحف. يا محاسن الصدف! أبصرت من بعيد مارشلو العربـــي جالسا أمام النافذة منهمكا في قراءة إحدى المجلات. لا أستطيع التظاهر بعدم رؤيته. يجب أن أسلم عليه.

«صباح الخير».

«صباح النور».

«عايزة أشكرك على اللى عملته معايا المرة اللى فاتت في السوق».

«ما عملت شيء من غير مزية».

«للأسف فيه دايما تفاحة فاسدة وسط التفاح الكويس».

«صحيح. الواحد ما يلزمش يعمم».

«مش كل الإيطاليين عنصريين ولا جهلة».

«لحسن الحظ».

«مش عايزة أزعجك».

«لا، ما لمما حتى حرج».

«كمان متشكرة».

«يعيشك».

«تشاو».

«يا الله تشاو».

لا أعـــرف لمـــاذا احمر وجهي من الخجل. اللعنة على الشيطان. نـــسيت أن أســـأله عـــن اسمه ولكن هذه ليست مشكلة لأن له اسما: مارشلو العربـــي. من أي بلد جاء؟ المؤكد أنه ليس مصريا أو فلسطينيا أو سوريا أو لبنانيا أو عراقيا. أعتقد أنه يتكلم مثل سميرة، فهو جزائري إذن. كان يمكن أن أقطع الشك باليقين لو كانت سميرة حاضرة معي. إنهـــا تقـــول لي دائما: «أستطيع التعرف على الجزائريين بمجرد النظر إليهم». يجب الاعتراف أن حدسها الأنثوي قوي.

حـــاول الباشمهـــندس خلال الغداء استدراجي إلى حديث خطير يـــؤدي مباشرة إلى الشجار. تحاشيت السقوط في الفخ الذي نصبه لي. بدأ مناورته بسؤال:

«عارفة ان مراة حنفي حامل؟».

«والنبـــي؟».

«أيوه، هتخلف للمرة الرابعة. يا بختك يا حنفي!».

«ربنا يبارك لهم».

«وإحنا مش قادرين ندّي أخ صغير لسارة».

«الخلفة في يد ربنا. كل شيء قسمة ونصيب».

«مـــا بـــلاش تتكلمي عن القسمة والنصيب، ربنا إدانا الصحة والباقي علينا».

«نشكر ربنا على نعمته».

«إنت اللي مش عايزة».

«أنـــا متأسفة، مش وقت الكلام في الموضوع دا. عندي صداع فظيع من الصبح. هآخذ حبة أسبرين وهستريح شوية».

لـــيس مـــن عادتي استعمال حيلة الصداع للتهرب من واجباتي الزوجية. مجبرة أختك لا بطلة. ما بيدي حيلة. أنا آسفة لا أريد الوقوع

في الفـــخ. لا أرغب في الإنجاب في الوقت الحاضر. قد يصبح حنفي أبا للمـــرة الـــرابعة أو الأربعين. هذه مسألة لا تهمني على الإطلاق. هذا شأنه.

في المـــساء ذهبت مع ابنتي سارة عند سميرة. وما إن رأتني راحت تصرخ:

«عندي مفاجأة لك يا صوفيا».

«والله؟».

«سجلت لك مسرحية تاع عادل إمام».

«مسرحية إيه؟».

«الواد سيد الشغال».

رائع! هذه المسرحية مشهورة في كل الأقطار العربية. وتروي قصة شاب فقير اسمه سيد يعمل شغالا لدى عائلة غنية. وتنقلب حياته رأسا علـــى عقب عندما يعرض عليه مبلغ كبير من المال مقابل القيام بدور المحلل.

عـــدت إلى البيت وقضيت السهرة في مشاهدة مرة أخرى الفيلم الـــرائع "الطلاق على الطريقة الإيطالية" مع مارشلو ماسترويانى. القصة ممـــتعة جـــدا، وتدور أحداثها في صقلية عندما كان الطلاق ممنوعا في إيطاليا. يلجأ البطل إلى حيلة جهنمية للتخلص من زوجته، إذ يدفعها في حـــضن رجل آخر لخيانته ثم يستغل ذلك ذريعة لقتلها دفاعا عن شرفه المهدور. كانت القوانين رحيمة جدا بالمتهمين بجرائم الشرف. في نهاية المطاف يستفيد الزوج القاتل من حكم مخفف وبعد خروجه من السجن يتزوج من شابة جميلة.

عيسى

مررت بشارع ناتزيوناليّ للالتقاء بالنقيب جودا قبل الذهاب إلى الـــشغل. اغتـــنمت الفرصة للاغتسال، بعدها جلست قبالة الكمبيوتر وألقـــيت نظرة على البريد الإلكتروني. عثرت على تسع وسبعين رسالة جديـــدة، نـــصفها مـــن خطيبتي مارتا. قررت الاتصال بها في الحين، مستعملا البطاقة الهاتفية الدولية.

«أهلا يا مارتا، أنا كريستيان».

«كريستيان! أين اختفيت؟ لماذا لم ترد على رسائلي؟».

«آنا آسف، كنت مشغولا جدا».

«مشغول بأي عمل؟».

«سأخبرك بكل شيء لاحقا».

«متى ستعود؟».

«لا أعرف».

«أعطيني رقمك الهاتفي في تونس».

«لا يمكن».

«لماذا؟».

«سأشرح لك كل شيء ولكن ليس الآن».

«ما الأمر يا كريستيان؟».

«لا شيء».

«من أين تتصل بـــي؟».

«من تونس».

«لا تكذب علي».

«إني أقول الحقيقة».

«أنت كذاب».

«إني أقول الحقيقة».

«تريد أن تنهي علاقتنا، أليس كذلك؟».

«لا تقولي كلاما فارغا».

«قـــل لي الحقـــيقة. هناك امرأة أخرى في حياتك. من حقي أن أعرف».

«ما هذا الكلام؟! لا توجد امرأة أخرى».

«أنت كذاب كبير يا كريستيان».

لقد تعودت على بكاء مارتا واستعنت بتجربتي لتهدئتها. وعدتها أنـــني سأتصل بها باستمرار. أتمنى أن أفي بوعدي حتى أتجنب العواقب. أجـــريت اتـــصالات سريعة لتفقد أحوال الأهل الحقيقيين المقيمين في صقلية. كل شيء على ما يرام.

فـــيما كـــنت أنتظر جودا، طفت على سطح ذاكرتي صورة الشابة المصرية المحجبة: صوفيا. هذا هو اسمها ولكن أفضل أن أناديها الحـــسناء المحجـــبة. تذكرت المرة التي رأيتها في «القاهرة الصغيرة» وكانت تحمل في يدها سي دي "عودت عيني". أبحرت في الإنترنت بحـــثا عن الأغنية وعثرت عليها بسهولة. وضعت السماعة وتمت في صوت أم كلثوم.

عودت عيني على رؤياك وقلبـــي سلم لك أمري

أشوف هنا عيني في نظرتك لي

والقي نعيم قلبـــي يوم ما التقيك جنبي

وان مر يوم من غير رؤياك
ما ينحسبش من عمري

وصـــل النقـــيب جـــودا متأخرا. رأيته مبتسما مما أثار حفيظتي وانـــزعاجـــي، إذ أني لا أطيق الرجال ذوي المزاج الأنثوي المتقلب بين السعادة والتعاسة، بين الهدوء والانفعال، بين اللين والقسوة. مع النساء يمكن للمرء أن يأخذ احتياطاته مسبقا.

جلست قبالته وأنا أتحرق شوقا لمعرفة سر كل هذا الانشراح. و لم تدم حيرتي طويلا. قال لي مبتسما:

«أريد أن أزف لك خبرا سعيدا يا عزيزي التونسي».

«أنا كلي آذان».

«لقد حددنا هوية قائد الخلية الثانية».

«حقا؟! ومن يكون؟».

«هو إمام ويعيش في ماركوني».

«السينيور حرام!».

«لا، تذكر أن الكلب الذي ينبح لا يعض».

«إذا من هو؟».

«زكي المدعو السينيور حلال».

«هل أنتم متأكدون؟».

«طبعا. أراك مترددا».

«تعرفت عليه بالأمس. بدا لي شخصا طيبا».

«لا تـــثق كـــثيرا في المظاهر يا تونسي. هؤلاء يتقنون جيدا فن التقية».

«التقية؟!».

«ألا تعرف معناها؟».

بالطبع أعرف. هي من خصوصيات بعض الفرق الشيعية وتتمثل في إخفاء المعتقدات الحقيقية والتظاهر بعكسها تجنبا للاضطهاد. لحسن الحظ لم تذهب هباء دروس الإسلاميات التي واظبت عليها في الجامعة. كـــان النقيب جودا مقتنعا بأنه بات سهلا الآن اكتشاف بقية أعضاء الخلـــية إذ يكفي التركيز على حاشية الإمام زكي. من المحتمل جدا أن يكون فيليشي واحدا منهم.

«يجب أن نعرف ماذا يحدث داخل مسجد السلام يا تونسي».

«كيف؟».

«ينبغي أن تذهب للصلاة هناك».

«أنا؟! أنت تمزح، أليس كذلك؟».

«لا، أنا في غاية الجدية».

«هذا أمر حساس، أريد أن أفكر فيه قليلا».

«ربما لم تفهم كلامي. لم أطلب منك اعتناق الإسلام!».

«فهمت جيدا».

«يجب أن نسرع قبل فوات الأوان».

«حسنا، متى سأبدأ؟».

«حالا».

«حالا؟!».

«نعم. ثم أريد أن أقول لك شيئا مهما».

«تفضل».

«عـــندما تذهب للوضوء، تذكر أنك لست مختونا! فلا داعي أن تتفاخر بعضوك الكبير أمام المتوضئين. ها ها ها».

الملعـــون يـــضحك! شكرته على وصيته الثمينة ورحت أفكر في مـــسألة الـــصلاة. لقد رغبت على الدوام في الغوص في أعماق الثقافة

العـــربية. هذه فرصة لإثراء تجربتي الثقافية. خلال أسفاري في الأقطار العـــربية تعـــرفت على الكثير من الغربيين المقيمين هناك منذ سنوات، أغلبيـــتهم لا يعرفون العربية ويعيشون كالسياح لا يمتون إلى البيئة التي يتحركون فيها بصلة.

بعـــد ذلـــك التحق بنا عنتر وجيمس. كانا مبتسمين ومسرورين كطفلـــين في عيد الميلاد. جلب جيمس زجاجة شمبانيا، وبدا لي كأنه مناصـــر رياضي إنجليزي مخمور خرج لتوه من الحانة. جلس وشرع في خطبـــته: «اتـــصل بـــي رؤسائي قبل قليل ليبلغوني التهاني. اكتشاف الخلـــية الإرهابية الثانية إنجاز رائع. يجب أن نبرمج ندوة صحفية كبيرة يـــتم فيها الإعلان عن تفاصيل عملية القاهرة الصغيرة وقد يشارك فيه وزراء الداخلـــية والخارجـــية. الـــسفير الأمريكي في روما موافق على المـــشاركة. ينبغـــي توجيه رسالة لا تحتمل التباسا مفادها أن مكافحة الإرهاب الإسلامي أو الحرب ضد الرعب War on terror كما يقول الـــرئيس جورج بوش، تتطلب تعاونا دوليا. الآن يجب أن نشرب نخب نجاح العملية».

أخـــذ الكلمة عنتر المصري وانطلق بدوره في خطبته: «أنا أيضا تلقيت التهاني من المسؤولين في القاهرة. نريد أن يكون موقفنا واضحا، نحـــن في الخط الأمامي لمكافحة الإرهاب. هذه حرب ضد الإرهابيين أينما كانوا وليست ضد الإسلام. لقد أبلغوني أن وزير الداخلية المصري مستعد للمجيء إلى روما ليشارك في العرس».

حاول النقيب جودا إيقاف تحمس زميليه: «إنه من السابق لأوانه التفكير في الندوة الصحفية. عملية القاهرة الصغيرة لم تنته بعد. علينا أن نجيب على سؤالين أساسيين: أولا، أين خبؤوا المتفجرات؟ ثانيا، من هو المرشح للقيام بتنفيذ العملية الانتحارية؟».

تعكّر صفو الجو عندما تقدم الزميل جيمس بفرضية اختطاف الإمام زكـــي. سارع عنتر إلى التذكير بقضية الإمام أبو عمر، فرد عليه الأمريكي مـــوجها أصـــبع الاتهام للمخابرات المصرية وعدم جديتهم: «لم تحترموا الاتفـــاق في تلك المناسبة. كان يجب أن ترغموا أبو عمر على الصمت». رفـــض عنتر هذه الاتهامات جملة وتفصيلا وخاطب زميله الأمريكي بحدة: «لقـــد وقعتم في شرك القضاء الإيطالي كفراخ العصافير. ارتكبتم أخطاء تافهـــة لا تغتفر. ثم ماذا كان علينا فعله معه؟ هل كان المطلوب منا قتله؟ أنـــتم الأمـــريكيين لا تطاقـــون! تتهموننا بعدم احترام حقوق الإنسان ثم تطلبون منا أن نقتدي بأساليب الجنرال أوغوستو بينوشيت!».

رحت أفكر فيما صار يسمى بـــ "فضيحة أبـــي عمر" التي تنذر ببوادر أزمة دبلوماسية بين واشنطن وروما. كان جودا قد أطلعني على تفاصيل هذه القضية التي تعود جذورها إلى فبراير 2003 عندما اختطف عملاء من الاستخبارات الأمريكية في ميلانو لاجئا سياسيا مصريا يقيم في إيطالـــيا منذ 1999. وتم نقله إلى القاعدة العسكرية التابعة للحلف الأطلسي في أفيانو في شمال شرق إيطاليا لاستنطاقه وتعذيبه. وفي اليوم التالي أرسلوه على متن طائرة سرية إلى مصر، فقبع في سجن طرة أربعة عشر شهرا تعرض خلالها للتعذيب.

كانـــت الشبهات تحوم على أبـــي عمر وعلاقته بالإرهاب الدولي بسبب انتمائه إلى الجماعة الإسلامية المصرية ومشاركته في حرب البوسنة. أثناء ذلك قامت زوجته بتبليغ الشرطة عن اختفائه ولكن القضية بقيت لغزا محـــيرا لـــدى المحققين. في أبريل 2004 أطلقت السلطات المصرية سراحه، وعـــاود أبـــو عمر الاتصال بزوجته وبعض أصدقائه في ميلانو فيما كانت الأجهزة القضائية الإيطالية تتنصت إلى مكالماتهم مما أدى إلى تسليط الضوء على ملابسات اختفائه في ميلانو. عندئذ خرجت قضية أبو عمر إلى العلن

وتحـــولت إلى فضيحة حقيقية، خاصة بعد قيام القضاء الإيطالي في الشهر الماضـــي بتوجـــيه الاتهام للمجموعة التابعة للاستخبارات الأمريكية بخرق القوانين والتعدي على حرمة السيادة الإيطالية.

كـــيف يمكن تسليم لاجئ سياسي إلى بلده الأصلي وهو مطارد ومهـــدد بالمـــوت؟ رحـــت أفكـــر عفويا في بطلنا القومي جوزبـــي غاريـــبالدي ومئات المعارضين السياسيين الذين كانوا لاجئين في تونس تحـــت حمايـــة الـــباي. لم يخطر على بال أحد تسليمهم للعائلة الملكية ســـافويا. ينبغي التذكير أن غاريبالدي فر من إيطاليا بعد صدور الحكم بإعدامـــه، كـــان سيقتل شر قتلة لو سلم لملاحقيه. لولا وجود قضاء مستقل وصحافة حرة في هذا البلد لبقي المسؤولون عن اختطاف أبـــي عمر مجهولين(*).

في نهاية المطاف استطاع النقيب جودا إعادة المياه إلى مجاريها. فتح جيمس زجاجة الشمبانيا مؤكدا أن تأجيل احتفال مبرمج يحمل الشؤم. لا أدري هـــل هـــي حقيقة أم حيلة للشرب. شربت كأسي وغادرت المكان.

وصـــلت إلى العمـــل متأخرا لبضع دقائق، لم أسلم من نظرات التحذير والوعيد لصاحب المطعم. فليذهب إلى الجحيم! في نفس الليلة أخـــبرت فيليـــشي عن قرار بداية الصلاة، فعانقني بحرارة ثم دعاني إلى الغـــداء بعد صلاة الجمعة القادمة. قال لي بصوت مؤثر وصادق: «لقد هداك الله إلى الطريق المستقيم. الله أكبر». شخصيا لا أرى أية هداية في الأفق والأمور بخواتمها!

(*) المعلومات المتعلقة بقضية أبو عمر ليست من نسج الخيال، وإنما مستقاة من كتاب موثّق عنوانه "سوق الخوف Il mercato della paura" للصحفيَين الإيطاليين جوزبي دلفالسو وكارلو بونيلي، الصادر عن دار النشر إيناودي عام 2006.

صوفيا

مـــن المستحيل إخفاء أي سر من الأسرار في ماركوني. بالأمس استفـــسرني الباشمهندس بشأن الشجار في السوق. أخبرني أن الغبـــي العنـــصري يُلقـــب بـــ "بستيوني" أي الوحش، وهو خريج سجون. رويت له تفاصيل ما حدث ولكنه بدا لي غير مقتنع بروايتي. من المحتمل أن يكـــون قـــد استمع إلى روايات أخرى. وقد ألح علي لمعرفة جميع الملابسات كأنه محقق شرطة، فأجبرني على استجواب طويل وممل:

«قالك إيه الواد ابن الكلب بتاع السوق؟».

«ما قالش حاجة».

«يعني إيه ما قالش حاجة؟».

«قـــال كـــلام فارغ لا بيودي ولا بيجيب زي مثلا أنتي موميا، روحـــي بلـــدك في أفغانـــستان، إنتو إرهابيين جايين تعملوا عمليات إرهابية، كلام زي كدا».

«شتمك؟».

«لا أبدا».

«طب مد إيده عليكي؟».

«لا، أنا اتكعبلت ووقعت».

«فيه واحد اتدخل، مين ده؟».

«أيوه بس ماعرفوش».

«هو عربـــي ولا إيطالي؟».

«عربي».

«عرفتي منين؟».

«لأنه قال لي حاجة بالعربي».

«قال لك إيه؟».

«ما تخافيش».

«احنا لازم نلاقيه بسرعة».

«هو فيه إيه؟».

«الحيوان ابن الكلب عاوز يقتله».

مارشـــلو العربـــــي خاطر بحياته من أجلي. يجب إخباره بالأمر بـــسرعة. اســـتعمل الباشمهندس هذه الحادثة لتحقيق أغراض أخرى. استغرق بعض الوقت كعادته للوصول إلى بيت القصيد. قال لي:

«هو احتمال ابن الكلب دا هيضايقك تاني».

«وأنا هعمل إيه يعني؟! أحبس نفسي في البيت؟!».

«لا، مـــا قصدش كدا. بس لما تعوزي تخرجي ممكن أبقى أجي معاكي».

«عايزني أعيش في سجن؟!».

«لا لا، إيه الكلام دا؟!».

لا، شكرا! إنه يريد مراقبتي وإشباع هواجس الزوج الغيور. هذا فخ حقيقي ولكني لن أقع فيه. لست غبية إلى هذه الدرجة. لن أقبل أبدا معيشة السجينة في البيت والتعلق المرضي بالمسلسلات الملعونة. هيهات أن أتقمص دور الزوجة الخائفة التي تحتاج إلى حماية زوجها. اللعنة على الغيرة والخوف والوحش الغبـــي العنصري!

انتهـــزت فرصـــة يوم الجمعة للاتصال بأهلي. تمنيت أن أجد أبـــي في البيت، لم أتحدث معه منذ فترة. كان «القاهرة الصغيرة»

ممتلـــئ عن آخره. الكثير من الزبائن لا يكتفون بالمكالمات الهاتفية، وإنمـــا يجلـــسون علـــى المقاعد القليلة أو يقفون لمشاهدة الجزيرة. التلفزيون تجلب الزبائن وتشعرهم أنهم في البيت وبين أهاليهم. حيلة تجاريـــة في غاية المكر. في الحقيقة يعيشون في وهم، إذ كيف يمكن للمرء أن يكون حاضرا ذهنيا في القاهرة أو بغداد أو تونس وفي روما في ذات الوقت؟ لا أعرف كيف يستطيعون تحمل ساعات من أخبار الـــتفجيرات والقـــنابل والانتحاريين والحروب والموت. إنه قصف إعلامي يومي. المهاجرون العرب مساكين، يتجرعون كميات معتبرة من الأخبار التعيسة يوميا. إنهم يعرضون صحتهم للخطر كالمدمنين على المخدرات. أعرف عن قرب هذه المعضلة، فالباشمهندس ينتمي إلى هـــذه الفـــئة المأسوف عليها. يجب على الأطباء وعلماء النفس الإسراع إلى إيجاد دواء لعلاجهم.

ألقـــيت نظرة سريعة على «القاهرة الصغيرة»، ولم أعثر على أثر لحنفـــي. هذه نعمة من الله الذي أنجاني من أسئلته ونظراته الماكرة. هذا الملعـــون يملك قدرة عجيبة على فهم ما يدور في ذهن الناس. لا أرى مارشلو العربـــي، كنت أود أن أحذره من الوحش العنصري.

بعـــد انتظار طويل جاء دوري للاتصال بأهلي. شكلت رقم بيتنا في القاهـــرة. بدأ قلبـــي ينبض بسرعة. إنها لحظات متوترة ولكنها جميلة، عما قريب سأسمع صوت الأحبة. رد علي صوت رجالي يحمل نـــبرة من الجدية والوقار. عرفته بلا صعوبات تذكر. قلت له بعد تبادل التحيات:

«ماما قالت لي السنة دي هتروحوا تحجوا».

«ربنا يتمم الأمور بخير يا بنتي».

«أنا سعيدة قوي».

« أنـــا وامـــك عجـــزنا. مش هنعيش قد اللي عشناه. احنا بس عايزين مسك الختام».

«ربنا يطول في عمركو يا بابا».

«ربـــنا يـــسمع مـــنك يا بنتي. إحنا ندعي ربنا نشوفكو كلكو مبسوطين».

«إن شاء الله يا بابا».

«قولي لي، إنتو عاملين ايه؟».

«نحمد ربنا».

«الحمد لله يا بنتي. احنا مش طالبين منه غير الصحه والستر».

«يسلم بقك يا بابا».

«هتنـــزلوا مصر في الصيف؟».

«معلـــهش مـــا فيش نصيب المرة دي، إن شاء الله السنة اللي جاية».

«إن شاء الله».

بعـــد المحادثة مع أبـــي تكلمت مع أمي وأطلعتني على تحضيرات زواج أخـــتي الصغرى ليلى. الحمد لله الأمور تسير على ما يرام. حفل الزواج مرهق جدا. اسأل المجرب وليس الطبيب. ينبغي التركيز والتدقيق في كـــل شـــيء خاصة مسألة المدعوين حتى لا تنسى أحدا. لا داعي للحـــديث عن التعب الجسدي والذهني. يحتاج العريسان لعدة أسابيع حتى يستردا راحتهما، هذه هي الغاية من شهر العسل.

إثر المكالمة ذهبت إلى سوق ماركوني، أتمنى أن لا تجمعني مساوئ الـــصدف مـــع الـــوحش العنصري. أرفض التنازل عن حريتي بسبب الخـــوف. أنـــا مسلمة مؤمنة يجب أن لا أخاف إلا من ربنا. لا أقبل الـــتهديد والوعيد من أي شخص كان، فالسوق ملك للجميع، إذا لي

الحـــق في المجيء متى شئت. اشتريت بعض الخضر، لا أحتاج للفواكه، فقد تسوقت بالأمس. أين مارشلو العربـــي؟ لا أثر له.

قـــررت العودة إلى البيت دون المرور على مكتبة ماركوني. طلب مـــني الباشمهـــندس تحضير غداء فاخر احتفاء بصديقه وزميله في الشغل الـــذي استجاب لنداء الهداية وقرر أداء فريضة الصلاة. زوجي سعيد جـــدا لأنـــه يعتقد أن الفضل يعود إليه، لذلك سيكون أجره عند الله كـــبيرا. لقد تحول إلى داعية يجلب الناس إلى الطريق المستقيم. ويتمتع الدعاة بامتيازات ومحفزات كبيرة أهمها على الإطلاق: دخول الفردوس. هناك سؤال يحيرني دائما: هل يتصور المسلمون والمسلمات الجنة بنفس الـــصورة؟ لـــو طرحنا هذا السؤال على مسلم، فإنه سيجيبنا (بعد لف ودوران) بأنه يريد الجنة ليظفر بحور العين العذارى المتجددات العذرية.

الآن نمر إلى السؤال الآخر: «ماهي مكافأة المسلمة إذا كتبت لها الجـــنة؟». قـــد يجيب قائل: «حور العين». الجواب صحيح في حالة واحـــدة إذا كانـــت المسلمة سحاقية ولكن الشذوذ الجنسي حرام في الإسلام! لا أعتقد أن ثمة حور العين من الذكور، كلهن إناث في إناث. أمامنا مشكلة عويصة تستعصي الحل، أليس كذلك؟

عندما كنت طالبة في الثانوية، أذكر أن زميلة جريئة سألت أستاذ التربية الإسلامية:«يعني إحنا كمسلمات، البنات يعني، هنتمتع ازاي في الجـــنة؟». فأجابها باقتضاب: «ربنا هيجمع الست الصالحة بجوزها تاني في الجـــنة». يا نهار إسود مش فايت! والهالت أسئلة الزميلات كشلال جارف: «نفرض إن الست الصالحة دي ماكانتش سعيدة مع جوزها في الدنيا، هتعمل إيه؟!» أو «مفروض أن الجنة هي مكان السعادة، لو كدا الجنة هتتحول لجهنم، مش كدا برضه يا أستاذ؟!» أو «لو كان الزوج راح جهـــنم لإنه مجرم قتال قُتلا، مراته اللي هي الست الصالحة هتروح

فـــين؟!» أو «هنعمل إيه في العوانس والمطلقات، الستات دي يا عيني مش هيبقى عندها رجالة؟!».

بقـــي الأستاذ حائرا و لم يجب على أي سؤال لأنه لم يضع نفسه أبدا في موقع المرأة حتى يفهم وجهة نظرها. على كل حال لم أفهم بعد مـــسألة مكافأة المرأة في الجنة. المهم أن الباشمهندس مسلم تقي متمسك بتعالـــيم الإســـلام وأنا أيضا مثله، إن شاء الله سنكون من أهل الجنة. الـــسؤال الذي أطرحه على نفسي هو هل سأعيش معه في الجنة أيضا؟ بصراحة هذا ليس محفزا على الإطلاق!

هكذا سيصير زميل زوجي متدينا. فالحدث مبرمج بمناسبة صلاة الجمعـــة في مسجد السلام. لسوء الحظ لم تُعلم قناة الجزيرة في الوقت المناســـب لنقل الحفل على المباشر، لكن لا بأس، سيقام احتفال صغير. كان لدي الوقت الكافي لتحضير الغداء. أعددت بعض الأطباق المصرية كالملوخـــية والأرز بالدجاج. كانت سارة منهمكة في مشاهدة الرسوم المتحركة. فهي تعشق الفأرة ميني، الخطيبة الأبدية لميكي ماوس.

عيسى

أقـــبلت صـــاحبة البيت تيريزا في الصباح الباكر من أجل مهمة تفتيـــشية، فوجدت مصريَّين غريبين غير شرعيين ينامان في المطبخ. هل هـــي مجرد صدفة أم أنها تلقت معلومة مؤكدة من جاسوسها؟ بالمناسبة المهاجـــر غـــير الشرعي في نظرها هو من لا يدفع الإيجار وليس من لا يحمل وثيقة الإقامة. تيريزا لا تتحمل مشقة المجيء لزيارة مجاملة أو لتفقد أحوالنا. هيهات أن تأتي لتقول لنا: «كيف أحوالكم يا أولاد؟» أو «أنا في خدمـــتكم، هـــل تحتاجون إلى شيء؟». هناك مثل صقلي معروف يقـــول «اشـــتك دوما إذا أردت أن تعيش قرير العين». اكتفت تيريزا بالـــشكوى من مسألة الضيوف غير الرسميين الذين ينامون في المطبخ، وركـــزت على مسألة الثقة المتبادلة. لحسن الحظ لم تتحدث عن رفع عـــدد الأســـرّة، ربما المقام لا يسمح. اغتنم بعض الحاضرين وجودها للمطالـــبة بتغيير السخان، وقد وعدت بحل المشكلة في أقرب الآجال. الدافـــع الرئيسي لزيارة تيريزا المفاجئة هي مشكلة صابر. ماذا حدث؟ كادت أن تقع كارثة بسبب فرانشيسكا باربيريني!

تعود ملابسات القضية إلى أول أمس عندما رجع صابر إلى البيت مـــن الشغل متأخرا. كان متعبا جدا، فألقى بجسده على السرير لينام. فلمـــا هم بتقبيل فرانشيسكا (أي صورة فرانشيسكا باربيريني الملصقة بجانب سريره) ليتمنى لها ليلة سعيدة وأحلاما هنيئة، لم يجد لها أثرا. من الذي أخذها أو سرقها أو سباها؟! أقام صابر الدنيا و لم يقعدها. رفض

أن يغمض جفنه ما لم يسلط الأضواء على هذه الحادثة. ثم راح يصرخ: «مـــين الحرامـــي ابن اللئيمة اللي سرق فرانشيسكا؟ عايز فرانشيسكا دلوقتي حالا!».

خيّل إلي رؤية المجنون في فيلم "أماركود" لفيديريكو فيلّيني عندما يصعد إلى قمة شجرة ويرفض النـــزول صارخا: «أريد امرأة Voglio una donna». مطلـــب صابر يختلف كل الاختلاف عن مطلب مجنون فيلّيني لأنه يريد امرأة معروفة لها اسم ولقب.

ينبغي الاعتراف أن صابر ابن حلال وفيه كافة الخصال الحميدة ما عـــدا الـــصبر. قـــال له أحد الحاضرين: «هي البنت المقصوفة الرقبة فرانشيسكا دي مراتك؟»، أجابه غاضبا: «فرانشيسكا أكتر من زوجة! فاهم ولا لا؟!». وحاول آخر تحذيره من مغبة إيقاظ الجيران: «متعقل يـــا صابر، أنت بدون وثائق ويمكن يطردوك من البلد». وصرخ صابر باكيا: «أنا مش خايف من البوليس!».

شهدت قضية اختطاف فرانشيسكا تطورات غير منتظرة، إذ اندلع الـــصراع بين الساكنين المتدينين من جهة والساكنين غير المتدينين من جهـــة ثانـــية بعد أن حمل صابر جماعة المتدينين مسؤولية ما حدث. ثم أطلق تهديدا واضحا: «هديكو 24 ساعة إما مرجعتوليش فرانشيسكا، والله العظـــيم ثلاثة هلزق صورها عريانة في المطبخ والحمام وفي البيت كله! وروني هتعملوا إيه!». هذا إعلان حرب!

وهكذا صار صابر رمزا للحرية الفردية وخصما للأصولية وداعية لحرية التعبير في ماركوني. من يراه يحاجج يخاله مثقفا من دعاة التنوير! واندهـــشت كـــثيرا لمـــا سمعـــته يقول:«النهار دا ضايقوا فرانشيسكا المسكينة، يا ترى هيكون الدور على مين بكرة؟»، «هيجبرونا نربـــي دقننا لحد رقابنا وهيلبسونا القمصان الطويلة بالعافية وهيحوزنا منقبات

كمـــان!!!»، «اللعـــنة على القحبة الخنـــزيرة، البيت دا هيتحول إلى مـــستعمرة طالـــبان!». في خضم هذه الأجواء الغريبة، رحت أتساءل حول ما إذا كان صابر قد تناول بعض المخدرات.

و لم يتزحـــزح صـــابر عن موقفه الليبرالي قيد أنملة: من حق كل واحـــد أن يفعـــل ما يريد شريطة أن لا ينغص على الآخرين. بما أن فرانشيسكا (يقصد الصورة الصغيرة) لم تزعج أحدا، فإن من أقدم على اخـــتطافها ارتكـــب جناية كبرى. الحقيقة أن وجود فرانشيسكا (يا للخـــسارة، كانـــت آخر أثر أنثوي في هذه الشقة!) كان يزعج راحة شخص ما.

تمكنا من تهدئة صابر مع طلوع الفجر بعد محاولات عديدة، فنام كطفـــل صغير قضى يومه في اللعب حتى الإرهاق. هذه القضية لن تنتهـــي عـــند هذا الحد، ستكون لها مضاعفات في المستقبل القريب. السؤال المطروح: هل ستتضاءل سلطة المتدينين في هذا البيت؟ أو بتعبير آخـــر: هل ستجرؤ الفئة غير المتدينة على جلب الخمور والنساء؟ من يعش يرا

قررت تنفيذ أمر النقيب جودا والشروع في الصلاة في يوم الجمعة وارتـــياد مسجد السلام. ففي الأيام الماضية شاع خبر انتقالي إلى طائفة المتديـــنين، لم يـــرحب صابر بمبادرتي إلا أنني طمأنته وأفصحت له عن موقفـــي الداعـــي إلى اعتـــبار الدين شأنا شخصيا، وهذا يعني أنني لا أعـــارض وجود فرانشيسكا في البيت. تلقيت التهاني من المتدينين أي رفاقي الجدد ورحت أفكر في امتيازاتهم التي تنتظرني كعدم الوقوف في طابور الحمام.

الإسلام يولي أهمية كبيرة للنظافة. لا يحق للمؤمن أن يصلي إذا لم يكـــن نظـــيفا. من عادة المتدينين الاستحمام يوم الجمعة. وكي لا أثير

الشبهات قررت تقليدهم، فسخنت الماء في المطبخ وعانيت الأمرين في الاغتسال في حوض الحمام.

إثـــر ذلـــك ودعت محمد قبل سفره إلى المغرب. لقد انمحت من وجهـــه علامات الكآبة وعاد إلى الابتسام والمزاح. كشف عن شوقه الكـــبير لمعانقـــة أولاده (لم يقل حرفا واحدا عن زوجته). كان يعيش كالـــرهينة أو الأســـير قبل أن يتسلم وثيقة الإقامة. لم يكن باستطاعته مغادرة إيطاليا دون المخاطرة بعدم الدخول مرة أخرى. لحسن الحظ لم يقع فريسة الانهيار العصبـــي.

لمـــا تـــرك البيت متوجها إلى المطار، تنحى بـــي جانبا وقال لي بصوت منخفض:

«شفتك تمشي لـــ «القاهرة الصغيرة» كل يوم».

«صحيح، نتلفن لعائلتي في تونس».

«دابا دير بالك».

«علاش؟».

«ما تهدرش بزاف في التلفون».

أخبرني أن الكثير من المهاجرين المسلمين اعتقلوا في السنوات الأخيرة بـــتهمة الإرهـــاب من جراء الاتصالات الهاتفية. ثم روى لي قصة مهاجر مغربـــــي يقـــيم في شمال إيطاليا أعتقل وزُج به في السجن بسبب جملة واحـــدة تلفظ بها وهو يتحدث مع صديق له على الهاتف: «بغيت نصوّب مجـــزرة إســـلامية إن شاء الله». كانت الشرطة تتنصت على مكالماته وقام المتـــرجم عن جهل وربما عن قصد بترجمة "مجزرة" إلى الإيطالية بكلمة تعني مذبحـــة Strage بدلا من جزارة Macelleria. المسكين كان يرغب فقط في فـــتح محلا لبيع اللحم الحلال أما المحققون فكانوا مقتنعين أشد الاقتناع بأنه إرهابـــي خطير يخطط لمذبحة مرعبة باسم الإسلام!

غـــادرت البـــيت ومـــررت بحديقة ساحة ميوتشي وعلى مكتبة ماركـــوني علني أرى الحسناء المحجبة. ولكن لا أثر لها. واصلت طريقي باتجـــاه «القاهرة الصغيرة» متمنيا أن أجدها هناك، بلا جدوى. كان حنفي غائبا (ربما يستعد هو الآخر لصلاة الجمعة) وحل محله فتى ذكي على عتبة المراهقة. عرفت أنه ابن حنفي واسمه جلال. كان المحل مملوءا بالـــزبائن. وفيما كنت أنتظر دوري للاتصال بأسرتي التونسية، شدت انتباهـــي بـــراعة جلال واستعماله المذهل للهجة أهل روما فهو لا يقل مهـــارة عـــن الشخـــصيات الشعبية الشهيرة التي أداها الممثل كارلو فيردوني. دفعني الفضول إلى مساءلته:

«برافو عليك تتكلم لهجة أهل روما كويس، وين تعلمتها؟».

«عادي، أنا مولود هنا وصحابـــي كلهم من روما».

«قداش من لغة تعرف؟».

«عربـــي وإيطالي وشوية إنجليزي».

«برافو عليك».

«عادي».

«أنت محظوظ برشا».

«لا، أنا مش محظوظ ولا حاجة».

«علاش؟».

«هـــنا في رومـــا بيقولوا عليّ مصري، وفي القاهرة بيقولوا عليّ إيطالي».

يا لها من مفارقة! لا هو إيطالي ولا هو مصري! قصة جلال تشبه آلاف القصص لأبناء المهاجرين المولودين في إيطاليا أو الوافدين إليها في طـــور الطفولة. قرأت في إحدى الصحف الوطنية أن أكثر من نصف مليون منهم ينتظرون الجنسية الإيطالية. ففي نظر القانون هم أجانب.

اتـــصلت بـــتونس، فكانت والدتي التونسية في انتظاري. تجاذبنا أطـــراف الحديث لمدة عشر دقائق. وتمحور الموضوع حول الزواج، إذ قالت متوسلة: «يا وليدي توا أنت معاش صغير، لازم تعرّس». تركتها تفرغ ما في جعبتها واقتصرت على تعليقات مقتضبة بين الحين والآخر مـــثل: «عـــندك الحق يا يما»، «أنا موافق وإن شاء الله نعرّس قريب يا أمـــي». في نهايـــة المطاف منحتها تفويضا خاصا بالبحث عن الزوجة سعيدة الحظ. ألا يقال إن خير البر عاجله؟!

صوفيا

في حدود الساعة الثانية والنصف وصل الباشمهندس مع ضيفه. لم يستعمل مفاتيحه، وإنما دق الجرس. فتحت الباب وكدت أن يغشى علي من هول المفاجأة. قال لي زوجي مبتسما:

«أقدم لك الأخ عيسى».

«أهلا وسهلا».

«يعيشك».

مارشلو العربي أصبح له اسم: عيسى! إنه تونسي وليس جزائريا. وقعت في الخطأ لأنني لا أميز بين لهجات المغرب العربي. أتمنى ألا ينفضح أمرنا. خلال الغداء تبادلنا كلمات قليلة وتظاهر كلانا بأنه لا يعرف الآخر. أقاوم نفسي حتى لا أنظر إليه ولكن من حين لآخر تتقاطع نظراتنا. تعجبني لهجته التونسية، المشكلة في شعره. سيكون شكله أفضل لو ترك شعره ينمو قليلا ويمشطه على طريقة جون تـرافولتا في فيلم "غريز". ثم يجب أن يتخلص من شاربه، لا يواتيه. لا يزال الشارب عند العرب رمزا للذكورة وعلامة على السلطة الأبوية. أنا لا أعترض على الشارب ولكن لا بد من الحرص على تجانس ملامح الوجه أولا.

مر الغداء على أحسن ما يرام. أكل الضيف بشهية. بعد الشاي، مدح طبخي وهذا أسعدني كثيرا. انتظرت أن ينصرف الباشمهندس وصديقه مارشلو العربي (لا أقدر على مناداته عيسى)، ثم أسرعت

الخطى لبيت سميرة لعقد اجتماع طارئ. ما حدث يفوق الخيال. قررت الاستغناء عن المقدمات الطويلة. وما إن فتحت لي سميرة الباب حتى أطلقت الطلقة الأولى ويا لها من طلقة:

«مارشلو العربي جيه عندنا في البيت!».

«هو جاك في المنام؟».

«لا، دا مش حلم. والله العظيم حقيقة».

«بركا ما تتمسخريش علي؟».

«أبدا أبدا، أنا ما بهزرش».

أعذرها إذا لم تصدقني، فأنا أيضا لا أصدق نفسي أن غداء اليوم ليس من نسج الخيال. جلس مارشلو العربي قبالتي ساعة تقريبا وأكل من يدي. هذا ليس حلما، وإنما حادثة وقعت بالفعل. يجب أن نذكر دائما أن قدرة الله سبحانه وتعالى ليست لها حدود والمكتوب على الجبين لازم تشوفو العين. رويت لسميرة القصة العجيبة الغريبة من أولها إلى آخرها. حاولت جاهدة استحضار جميع التفاصيل، الحمد لله ذاكرتي بصحة جيدة. عندما فرغت، أعطيت الكلمة لصديقتي الجزائرية:

«ما نعرفش واش نقولك يا صوفيا. هاذ القصة خارقة للعادة».

«صدقيني أنا ما زودتش حاجة».

«أنا آمنتك، تعرفي كاين بزاف حاجات اللى ما يدخلوش في الراس».

سميرة على حق. من الصعب التفريق بين الحقيقة والخيال. بعد ذلك بقليل جاءت أنجلا لعمل تسريحة شعر. رأيتها مبتسمة ومسرورة. ماذا حدث لها؟ هل لديها خبر سعيد تزفه لنا؟ هل حصلت على ترقية في عملها أم فازت باليانصيب؟ هل قرر رفيقها أخيرا الزواج منها؟

«سنهاجر إلى أوستراليا».

«أوستراليا؟!».

«نعم، عرضوا على رفيقي منصبا في جامعة سيدني».

«متى سترحلون؟».

«بعد ثلاثة أشهر».

أنجلا في قمة السعادة. لكن... الهجرة إلى أوستراليا...! يا لها من مغامـــرة! أنجلا ليست قلقة بخصوص التأقلم مع البلد الجديد، فمشكلة اللغـــة غير مطروحة لأنها ورفيقها يتقنان الإنجليزية. تتمنى أن تجد عملا بفـــضل شـــهادتها الجامعية في الاقتصاد. إنهما يفكران في إنشاء مقاولة صغيرة. أنجلا ساخطة جدا على الوضع هنا:

«إيطالـــيا مـــثل مونتي كارلو يا صوفيا. يمكن أن تعيشي فيها إذا كنت غنية. إنه بلد للسياح فقط».

«أنت تبالغين يا أنجلا!».

«يمكن أن تصيري فقيرة في رمشة عين، يكفي أن تلدي ولدا».

«أنت تبالغين».

«أنـــا لا أبالغ، فأنا إيطالية وأحب بلدي. الحقيقة أنه لا مستقبل هنا».

«كيف لا مستقبل هنا؟!».

«أجل يا صوفيا. يجب أن تهاجروا أنتم أيضا من إيطاليا قبل فوات الأوان».

«ولكن أين سنذهب؟».

ليس لنا مستقبل في إيطاليا!؟ أدخلتني هذه الكلمات في دوامة من القلق. رحت أفكر عفويا في ابنتي سارة ومستقبلها. الإيطاليون يغادرون إيطاليا للبحث عن مستقبل أفضل في بلد آخر. نحن المهاجرون نأتي إلى

هـــنا لـــنفس الغايـــة. هناك خلل في الموضوع. إنه بلد للسواح وليس للعمـــال. وكما تقول أنجلا: «إيطاليا مثل مونتي كارلو». هذا التشبيه يثير فضولي. في إمارة مونتي كارلو هناك الكثير من ملاهي القمار. إني أتساءل: «أليست الهجرة في نهاية المطاف نوعا من القمار؟ إما أن تربح كل شيء أو تخسر كل شيء؟».

عيسى

توجهت إلى مسجد السلام لأداء صلاة الجمعة. استغرقت دقائق قليلة للوصول. كنت متوترا كصبـــي يذهب إلى المدرسة لأول مرة في حياته. خلال إقامتي في البلدان العربية، زرت العديد من المساجد بغرض السياحة لا الصلاة، وشتان بينهما.

نظـــرت إلى مـــسجد الـــسلام من الخارج، كان أشبه بمستودع للسيارات. خلعت حذائي ودخلت بقدمي اليمنى عملا بالسنة النبوية. أبصرت الإمام زكي أي "السينيور حلال" فذهبت إلى تحيته.

«السلام عليكم يا إمام زكي».

«عليكم السلام يا أخ عيسى، أهلا بك في بيت ربنا».

«يعيّشك».

«الصلاة عماد الدين ومهمة جدا جدا لينا إحنا كمهاجرين. بارك الله فيك».

«أجمعين».

«آمين».

جلـــست على الأرض وانتظرت قدوم فيليشي، فاقترب مني أبو بكر، الإيطالي المسلم الذي التقيته عند مدخل «القاهرة الصغيرة». لقد أطلعني النقيب جودا على معلومات تتعلق بماضيه قبل أن يعتنق الإسلام، إذ كـــان ناشطا سياسيا في الحركات الشيوعية المتطرفة في السبعينيات. وربمـــا كـــان على علاقة مع منظمة الألوية الحمراء الإرهابية ولكن لم

يستمكن المحققون من جمع أدلة كافية تدينه. من المحتمل جدا أن يكون منظر الخليتين الإرهابيتين في ماركوني أو مسؤولا بارزا في التنظيم. هل ستكون عملية القاهرة الصغيرة فرصة لإجباره على تسديد الفاتورة القديمة؟ هل يداه ملطختان بدم ضحايا الإرهاب؟ إذا كان مذنبا، فمن العدل أن ينال عقابه. بالنسبة إلي إن العدالة تقوم على مبدأ بسيط: العقاب لمن أخطأ.

تحدثنا خصوصا حول وضعية المسلمين في إيطاليا. أبو بكر محام ينشط كذلك في ميدان التطوع دفاعا عن حقوق المهاجرين. قال لي إن الدستور الإيطالي يضمن حرية الاعتقاد ومع ذلك يعاني المسلمون من تمييز واضح. ولا يزال الإسلام يعامل على أنه دين مهاجرين فحسب علما أن ثمة أكثر من عشرة آلاف إيطالي اعتنقوا دين محمد ومن حقهم الحصول على أماكن عبادة لائقة. واستشهد أبو بكر أكثر من مرة بالبندين الرابع والتاسع عشر من الدستور، فيقول الأول: «لكل المواطنين نفس القدر من الكرامة الاجتماعية، وهم سواسية أمام القانون دون تمييز في الجنس أو العرق أو اللغة أو الدين أو الأفكار السياسية أو الأوضاع الشخصية والاجتماعية». أما الثاني فيؤكد: «للجميع حق ممارسة معتقداتهم الدينية بحرية وبأي شكل، فردي أو جماعي، والدعاية له وممارسة شعائره في الحياة الخاصة وعلنا، شرط أن لا تتنافى طقوسه مع الآداب».

وأخبرني أن مسجد السلام كان في السابق مخزنا للسلع، وتشتد عليه الحرارة صيفا والبرد شتاء، أما عن الرطوبة المرتفعة فحدث ولا حرج. من العسير الحصول على تصريح لفتح مصلى جديد. واشتكى أبو بكر من استفزازات بعض السياسيين الإيطاليين ضد المسلمين. ثم ألقى باللائمة على الحكومة الإيطالية التي تسعى إلى تقليد قانون

مكافحـــة الإرهاب الذي ابتكرته إدارة بوش بعد تفجيرات 11 سبتمبر 2001، ممـــا وســـع صلاحيات القوات الأمنية وضيّق مساحة الحريات الفـــردية. بعـــد ذلك أجرى مقارنة بين حملات التخويف الحالية وما حـــدث خـــلال ســـنوات الإرهاب اليساري واليميني في الستينيات والسبعينيات وانحراف الأجهزة الأمنية عن مهامها الدستورية. واقترب مني أكثر وأسر لي في أذني:

«عـــندما كنت طالبا في الجامعة، كنت معجبا بطروحات الألوية الحمراء، هل سمعت عن هذه المنظمة؟».

«لا».

«الألـــوية الحمراء منظمة شيوعية مسلحة قامت باختطاف رئيس الحكومة الأسبق ألدو مورو عام 1978 وقتلته».

استمعت إليه مندهشا ورحت أسأل نفسي: لماذا كشف لي عن علاقـــته بالألوية الحمراء؟ هل يريد اصطيادي؟ هل يريد أن يختبرني؟ ســـارع أبو بكر إلى تبرئة نفسه من جرائم القتل معترفا بمسؤولياته الأخلاقية فقط: «كنت أعتقد أن العنف هو الوسيلة الوحيدة لتغيير العالم نحو الأفضل، ولكني كنت مخطئا لسوء الحظ، فالسلطة فاسدة حـــتى النخاع وتسعى إلى عسكرة الاختلاف للقضاء على كل من يعارضـــها. أنـــا مقتنع اليوم أن اللاعنف هو أنجع طريقة للمقاومة. كـــثيرا مـــا أوصـــي إخـــواني في الإســـلام بعـــدم الوقوع في فخ الإرهاب».

وصـــل فيليشي، سلم علينا ثم جلس إلى جانبـــي. في تلك الأثناء شـــرع الإمام زكي في خطبته التي تمحورت حول السلام في الإسلام. وبعـــد انـــتهاء موعظته دار حول نفسه متجها نحو القبلة ليؤم الصلاة، عندها وجدت نفسي مثل الأطرش في الزفة، فرحت أقلد آليا حركات

المصلين من ركوع وسجود وأتمتم بعبارات التكبير والحمدلة والبسملة بلا خشوع.

بعد الصلاة رافقت فيليشي إلى بيته لتناول الغداء. وفي طريقنا اشتريت كعكة التفاح حتى أكون ضيفا يعرف الأصول. كان البيت على مقربة من «القاهرة الصغيرة». أخذنا المصعد إلى غاية الطابق الرابع. دق فيليشي الجرس، وانفتح الباب... على وجه الحسناء المحجبة. هي زوجته إذن. رأيت الطفلة الصغيرة تختبئ وراءها وتناديها: «ماما». هي ابنتها إذن! مر الغداء بسلام رغم هول المفاجأة. شعرت بدوار منعني من تذوق الأرز بالدجاج كما يجب. الأكيد أنها طباخة ماهرة.

قبل الذهاب إلى العمل، أردت إطلاع النقيب جودا بما جرى في المسجد، فقمت بزيارة خاطفة إلى شارع ناتزيونالي. وجدته جالسا في الصالون منكبا في قراءة وثيقة.

«كيف مرت صلاتك في المسجد يا تونسي؟».

«على ما يرام. خصص الإمام خطبة الجمعة لموضوع الـ ...».

«السلام في الإسلام!».

«كيف عرفت؟».

«كل شيء مدوّن في هذا التقرير يا تونسي».

«رائع! لست الجاسوس الوحيد في هذه العملية!».

«ابن القحبة يتحدث عن السلام فيما يحضرون لأعمال إرهابية! هل من أخبار أخرى؟».

«بعد الصلاة دعاني فيليشي إلى الغداء في بيته. تعرفت على زوجته...».

«صـــوفيا ولكـــن اسمها الحقيقي صفية. امرأة جميلة جدا، أليس كذلك؟».

«نعم، أنت على حق».

«أليست هي المرأة التي دافعت عنها في السوق؟».

«نعم، إنها هي».

«ألم تقل إنك لا تعرفها؟».

«هذا صحيح، تعرفت عليها اليوم».

«فهمت. قل لي هل تريد أن تراها عارية؟».

«أنت تمزح؟!».

«لا، أنا جاد».

أخذ النقيب جودا من درج الخزانة رزمة من أقراص الليزر. وفيما راح يـــشغل واحـــدة منها، أخبرني أنهم وضعوا أجهزة تنصت في شقة فيليشي للتحقق من بعض شكوكهم بخصوصه.

في المـــشهد الأول تظهر صوفيا مع الطفلة في الصالون ثم يلتحق بهمـــا فيليـــشي. راحا يتحدثان عن الرحلة إلى مصر، يشتكي هو من تكالـــيف الـــسفر والهدايا للأقارب. وتحاول هي أن تقنعه بالسماح لها بالعمل لمساعدته في تغطية المصاريف، ولكنه لا يستمع إليها. بعد ذلك يتشاجران وتشرع الطفلة في البكاء.

في المـــشهد الـــثاني يظهر فيليشي جالسا في الصالون يتابع برنامجا تلفـــزيونيا. تتقدم صوفيا نحوه، بلا حجاب. تبدو امرأة أخرى. الشعر يجعل المرء شخصا آخر تماما. ما أروعها في قميص النوم. يتحدثان عن الشجار في السوق. فيليشي يطرح عليها سيل من الأسئلة. صوفيا تنكر أنها تعرفني.

«ماذا يقولان يا تونسي؟».

«مشاكل عادية تحدث بين الأزواج».

«ألا يتحدثان عن التفجيرات؟».

«لا، بتاتا».

شـــاهدنا تسجيلات أخرى ومشاهد شجار كثيرة. ثم وصلنا إلى المشهد الساخن: فيليشي وصوفيا عاريان فوق السرير ويتمتع كل واحد بالآخـــر. بقيت صامتا. ماذا هناك؟ هل أغار من فيليشي؟! أما النقيب اللعين فأطلق العنان لتعليقه التافه:

«صديقك لا يتقن فنون الفراش، أما هي فهبة من الطبيعة. أنظر يا له من جسد، يا له من صدر، يا له من طيز».

«يكفي هذا!».

«انتظـــر قلـــيلا، ربمـــا بـــين تنهيدة وأخرى سيقولان شيئا عن التفجيرات».

«اللعنة على القحبة الخنـــزيرة! نسيت موعد العمل».

«لا تقلـــق. اتصل بالمطعم وقل لهم إنك مريض تحتاج إلى بعض الراحة. هذه السهرة سآخذك إلى مكان جميل».

«أين؟».

«مفاجأة. منذ متى لم تضاجع امرأة؟».

«لا يحصى ولا يعد».

«هل تريدها شقراء أم سمراء؟».

«سمراء».

«ذات ملامح عربية؟».

«جيد».

«ومحجبة؟».

«اللعنة عليك يا جودا!».

استعدادا للسهرة، خلعت ملابس المهاجر التونسي عيسى وارتديت بذلتي الزرقاء الداكنة التي تركتها في شقة شارع ناتزيونالي هناك مع أغراضي الشخصية. ذهبت مع جودا إلى فيلا في منطقة كاسيا في ضواحي روما. كانت الحفلة قد بدأت، ما شد انتباهي هو كثرة الحسناوات. قدم لي جودا فتاة سمراء وقال لي: «يا تونسي، هذه الشابة العربية حلال عليك». ابن الحرام قالها بالعربية! كنت على وشك أن أسأله: «هل تتقن العربية؟»، لكني تراجعت، فقد كنت مشغولا بجمال السمراء.

جلسنا أنا وهي متلاصقين على أريكة وشرعنا في الحديث. أخبرتني أنها لبنانية وتعمل في وكالة سياحية. ليس لدي أدنى رغبة في مزاولة مهنة المستشرق. لقد فقدت العادة اللعينة في استعراض عضلاتي المعرفية وطرح أسئلة لإدهاش الآخر كأن أقول لها مثلا: «أنت لبنانية، ولكن هل أنت مارونية أم مسلمة؟ إذا كنت مسلمة، هل أنت سنية أم شيعية؟ إذا كنت شيعية، هل أنت قريبة من حزب الله أم من حركة أمل؟ إلخ». ينبغي أن تثبت للآخر أنك تعرفه معرفة جيدة. هذا هو جوهر عمل المستشرق. يا لها من مهنة لعينة!

إذاك التحق بنا الثنائي عنتر وجيمس. كان هذا الأخير مخمورا، أما زميله المصري فسارع إلى تغيير الموسقي ووضع أغنية عربية وشرع في الرقص على الطريقة المصرية ويصرخ: «رقصني يا جدع!». هذا وقت الترويح عن النفس، ربما هي بداية الاحتفالات بنجاح عملية القاهرة الصغيرة. رغبت لو نسيت كل شيء وامتنعت كليا عن التفكير والخلود للراحة. شربت الكثير من الفودكا حتى صرت كالثور الهائج. أذكر مشهدا قصيرا فقط: أنا والشابة اللبنانية عاريان متعانقان في غرفة نوم. ثم ظلام دامس...

في الصباح فتحت عيني على سرير كبير. لم أكن وحدي، كان بجانبـــي شاب أسود عار مثلي. فضلت عدم ايقاظه. اللعنة على القحـــبة الخنـــزيرة، ماذا جرى؟ أين ذهب الآخرون؟ أين الحسناء اللبنانـــية؟ لا أثـــر للنقيب جودا. ارتديت ملابسي وغادرت المكان بسرعة.

صوفيا

حـــدث كـــل شيء بسرعة كعاصفة قوية ومفاجئة. فيما كنت نائمة، أيقظني الباشمهندس زوجي بعنف. فتحت عيني مذعورة. فكرت في أول الأمر أن مكروها قد أصاب ابنتي، وهو شعور أمومي عفوي. ثم خطـــر ببالي الزلزال، إذ لا أزال أعاني من الكوابيس منذ الزلزال المدمر الذي ضرب القاهرة عام 1992 حيث توفي أكثر من خمسمائة شخص.

كـــان الباشمهندس متوترا وغاضبا، إذ راح ينبح ككلب مسعور. مـــاذا حـــدث؟ استغرقت بعض الثواني للخروج من النوم والعودة إلى الواقع. اكتسح صوته أذني بعدوانية. قال لي صارخا:

«هي الفلوس اللي لقيتها وراء الكنبة دي بتاعة مين؟».

«دي فلوسي».

«جيبتيهم منين؟».

«مش عايزة أقول لك».

«إيه؟!».

نهـــضت من السرير وألقيت نظرة على المنبه، كانت الساعة تشير إلى الثالثة والربع. الله يلعن الشيطان. لماذا لا يدعني أنام؟ لماذا لا يتركني وشـــأني ويـــذهب لقضاء بقية الليل مع ضرتي أي السينيورة الجزيرة؟ قـــصدت الحمـــام لغـــسل وجهي لكني لم أقدر على غلق الباب، فهو يتعقب خطواتي كالظل وراح يصرخ من جديد:

«جبتي منين الفلوس دي؟».

«مش عايزة أقول لك».

«هتقولي لي وغصب عنك كمان».

يقـــع الحمام جنب الغرفة الصغيرة التي تنام فيها سارة. عدت إلى غـــرفة النوم خشية إيقاظها. قلت في نفسي إنه من الأفضل الحديث أو بالأحـــرى الـــشجار بعيدا عنها. جلست على طرف السرير. شعرت بـــدوار ولكـــني قاومـــت الألم. حاولت تهدئة الوضع منتهجة طريقة الدبلوماسية علها تفيد. قلت له:

«أرجوك، الوقت متأخر قوي. مش وقت الكلام دا دلوقتي».

«في داهية. أنا سألتك سؤال وعايزك تجاوبيني».

«شكلك تعبان، استريح شوية».

«ما تستفزنيش يا ولية أحسن لك».

«اهدا شوية بس».

«ما تضحكيش عليّ يا ولية».

«طيب طيب، بس ما تعليش صوتك، البنت نايمة».

«مش ههدا غير لما أعرف جبتي الفلوس دي منين».

«طيب، هقول لك كل حاجة بعدين».

«لا بعدين ولا قبلين، انطقي دلوقتي حالا».

الله يلعـــنك يـــا شيطان! الباشمهندس زوجي العزيز يريد الحقيقة، ولكن قول الحقيقة ليس أمرا هينا. لا بد من مقدمات وهوامش. المسألة معقـــدة جدا. لو قلت له الحقيقة، فهل سيصدقني؟ لو أخبرته أن المال الـــذي وجده مرتبط بعملي السري وأنه من أجل مساعدة أختي زينب لإجراء العملية، فهل سيفهمني؟ لا! أنا متأكدة من ذلك. من سيشرح لـــه أن العملية لإصلاح ما أفسده العنف الحقير؟ لا يمكن أن يفهم. ما أعقد هذه الأمور وما أصعب شرحها وتبريرها وفهمها و... إلخ.

من المحتمل جدا أن يكون قد اكتشف سري. هذا دليل آخر على أن لا شـــيء يخفى في ماركوني. في نهاية المطاف قررت التزام الصمت حتى إشعار آخر. حاولت كسب الوقت لكن الباشمهندس كان مصمما على الأمر:

«عايز أعرف الحقيقة».

«أرجوك، خلينا ننام، إحنا تعبانين».

«مش عايز أنام، عايز أعرف الحقيقة».

«بقول لك ايه؟ مش عايزة أتكلم في الموضوع دا».

«اوعي يا ست هانم تكوني فاكره انك ممكن تتحكمي امتى نتكلم وامتى نسكت؟! لازم تفهمي ان انا الراجل في البيت دا!».

«أنا ميش جارية عندك».

«إنتي مش جارية، دانتي شرموطة».

«هي حصلت! يا نهار أسود!».

«أيوه إنتي شرموطة عشان الشراميط هما بس اللي بيكسبوا فلوس من غير ما يشتغلوا».

إنهـــا المرة الأولى التي أسمعه يتلفظ بهذه الكلمة. أسوأ من رصاصة في القلب. جراح الجسد تندمل بمرور الزمن أما جراح الروح الناتجة عن الإهانـــات اللفظـــية فإنهـــا باقـــية لأنهـــا تمـــس الأعماق. وصفني بـــــ "الشرموطة"! كيف سمح لنفسه؟ أقسم أنه سيدفع الثمن غاليا. لم أســـتطع التزام السكوت، كان علي الدفاع عن كرامتي المهدورة. لكل شـــيء حد. ورحم الله أم كلثوم: «للصبر حدود». نهضت من السرير ونظرت إليه بتحد وقلت له:

«عندك حق. أنا شرموطة زي ما بتقول، إذا إنت حوز الشرموطة».

«اخرصي!».

صـــفعني بقـــوة فسقطت على الأرض. بدأ الدم يسيل من أنفي. قمت وحدقت فيه باحتقار هذه المرة. لقد بلغ السكين العظم. في تلك اللحظات أدركت أن زواجنا وصل إلى المحطة الأخيرة وأن وقت الوداع والفـــراق قـــد حان. بقيت في جعبتي رصاصة واحدة أخيرة أي طلقة الرحمة وكان علي أن أطلقها دون التفكير في العواقب.

«إذا كنت راجل بصحيح، طلقني دلوقتي».

«اخرصي وإلا هأموتك».

«يا جبان».

«إنتي طالق!».

إنـــتي طالـــق! إنتي طالق! إنتي طالق! دوت هذه الجملة في أذني كالـــرعد. بـــدأت الدموع تتدفق على خدي كشلال ساخن. الطلاق الثالث نهائي. أفكار وذكريات ومشاعر مختلطة دارت بشكل فوضوي في داخلي. ثم قلت في نفسي: «أنا حرة طليقة!». يحيا الطلاق الثالث. من قال إن الطلاق الثالث هو النهاية؟ من قال إنه حكم بالإعدام؟ لماذا لا يكـــون بدايـــة لحياة سعيدة جديدة؟ يجب أن لا أخاف. المستقبل ســـيكون أفـــضل، فالله رحيم، يغلق بابا ويفتح أبوابا. ألححت لإقناع نفـــسي بـــأن هذا الطلاق نعمة لا نقمة. لا مذاق للحياة دون أحلام ودون حـــب. رحت أفكر في أهلي، لن يكون أمرا سهلا إبلاغهم ما حدث. الذنب ليس ذنبـــي. يجب أن أتصل بهم. أريد أن يُعرف الخبر. لا أريد مساومة ولا مصالحة. أريد أن أضع حدا نهائيا لهذا الزواج. أنا مستعدة لتحمل المخاطر. أفضل أن أكون مطلقة على أن أكون متزوجة غير سعيدة.

هدأ الباشمهندس ونام بعد ساعة تقريبا. انتظرت في الصالون قدوم الصباح برفقة الدموع. حوالي الثامنة أخذت سارة وذهبت عند سميرة.

ما إن رأتني حتى أدركت أن مصيبة قد حلت بـــي. أنا كتاب مفتوح، لا أســـتطيع إخفاء مشاعري، لخصت لها الحادث دون إهمال التفاصيل الأساســـية. لم أكف عن البكاء وواستني صديقتي بالكلام والاحتضان كمـــا تجنبت طرح ذلك السؤال التعيس: «هتعملي إيه دلوقتي؟». ليس لي إلا جواب واحد: «مش عارفة».

ســـاعدتني سمـــيرة علـــى ترتيب أفكاري. كان علي وضع خطة طـــوارئ للخروج من هذه الأزمة اللعينة. أولا، ينبغي أن يكون موقفي واضـــحا منذ البداية: لا أريد المصالحة. ثانيا، الجهر به أمام الناس. لو كان بمقدوري لأوصلت الخبر لقناة الجزيرة! لا تهمني الفضيحة، الذنب لـــيس ذنبـــي. ألست أنا الضحية؟! أنا لم أطلق أحدا، لذا يجب أن لا أخجل. ثالثا، لا أريد أن أعيش مع الباشمهندس تحت سقف واحد.

«أرواحي تقعدي معايا يا صوفيا».

«طب وجوزك؟!».

«راح لتونس البارح ويرجع غير بعد عشر أيام».

بعـــد ساعتين تقريبا جاء الباشمهندس، فهو يعرف مكاني. أخذت ســـميرة البـــنت إلى غرفة أخرى وتركتنا بمفردنا في الصالون. شرع في البكاء كطفل صغير. سبق أن رأيت هذا المشهد. وبدا لي أنه مقتبس من مسلسل ممل حد الغثيان. قد يكون عنوانه: "طلاق رقم3". أخذ يكرر كالببغاء: «أنا متأسف قوي قوي». أخبرته أنني سأخلو البيت مع سارة وأقـــيم مؤقتا عند سميرة ولكنه رفض الفكرة. بعد أخذ ورد اقترح على أن يتـــرك هو البيت، فوافقت. لا أريد أن أكون حملا ثقيلا على كاهل صديقتي.

خلال وقت الغداء ذهبت إلى «القاهرة الصغيرة» للاتصال بأهلي. شعرت كأني نذيرة شؤم مكلفة بنقل خبر نعي وفاة شخص عزيز. بعد

ثـــلاث محـــاولات ردت علـــي أمي. ولما سألتي: «إزيك يا بنتي؟»، أجهـــشت في البكاء. لم أستطع أن أتمالك نفسي. بعد ثوان استعدت شجاعتي وأفرغت كل ما في جعبتي. كانت أمي تعلق من حين إلى آخر بعبارة واحدة: «يا مصيبتي!». صارت تحتاج إلى المواساة والطمأنة أكثر مـــني، فـــإن كلمة "الطلاق" بالنسبة لامرأة في سنها لها وقع أسوأ من الطاعون. في نهاية المطاف طرحت علي السؤال المنتظر:

«إيه العمل دلوقتي يا بنتي؟».

«ما أعرفش».

«ارجعي لمصر، انت مش يتيمة، إنتي ليكي أهل».

«لازم أفكر».

«ما ينفعش تفضلي هناك لوحدك».

لا أريـــد العـــودة إلى مـــصر في هذه الظروف. يجب أن أتحلى بالدبلوماسية حتى لا أفقد مساندة أهلي. لا بديل عن الصمود والصبر. لـــو عـــدت إلى مصر مطلقة، فإني لن أخرج منها مرة أخرى. قد لا أســـتطيع أن أحمـــي ابنتي سارة من الختان. أعرف أن ربنا لن يخذلني وسيجد لي مخرجا. أنا متيقنة بأن أمي ستدرك عاجلا أن زمن المطلقات المغبونات قد ولى. ثم إنني أعيش في روما وليس في القاهرة. أنا في منأى عن الضغوط الاجتماعية المسلّطة على المطلقات والعوانس.

عندما ذهبت لتسديد ثمن المكالمة، وجدت حنفي ينتظرني كذئب جائـــع. بدا لي أنه يريد أن يقول لي شيئا. تنحى بـــي جانبا. هل اطلع هـــو الآخر على آخر مستجدات مسلسل "طلاق على الطريقة المصرية في حي ماركوني"؟! لم أحدد العنوان بعد.

«سمعت عن المصيبة يا مدام».

«مصيبة إيه يا حاج؟».

«الطلاق التالت. هنعمل إيه؟! أدي الله وأدي حكمته. ربنا يكون في عونك يا مدام».

«آمين يا رب».

«عايز أقول لك إننا أهل ورقبتي سدادة».

«متشكرة يا حاج».

«أنا في الخدمة يا مدام».

الله يلعنك يا شيطان. يا فضيحتك يا صوفيا! صارت حياتك أسوأ من المسلسلات المصرية والبرازيلية والمكسيكية والتركية مجتمعة. ما أقبح أن تؤدي المرأة دور المطلقة بالثلاث وما أقساه!

عـــدت إلى البـــيت في العصر و لم أجد الباشمهندس، فتأكدت أنه غـــادره لأني لم أعثـــر على حقيبته الزرقاء ولا على الماكينة الكهربائية الخاصـــة بحلاقة الذقن. وبعد ساعتين تقريبا سمعت طرقات على الباب، مـــن يكون يا ترى؟ عندما فتحته وجدت قبالتي عائشة أي "السينيورة حرام". في المرة السابقة طردتها من البيت. ماذا تريد؟

«سمعت عن الكارثة يا أخت».

«كارثة؟».

«الطلاق الثالث».

«انكشف المستور إذا!».

«نحن أخوات في الإسلام، يجب أن نتعاون في أوقات الشدة».

«شكرا».

«لا يمكن للمسلمة أن تعيش بلا زوج».

«لم لا؟».

«هذه هي الأصول».

«هناك أرامل ومطلقات مسلمات يعشن في هناء وسعادة».

«ماذا تقولين يا أخت؟ أنت في ريعان الشباب».

لم أفهـــم جيدا سبب هذه الزيارة. ربما جاءت للانتقام أو للتشفي أو في مهمة استطلاعية. هل تريد أن تعرض علي الزواج من بعلها؟ هل أرســـلها هـــو؟ إذا لم أخطئ فإن له زوجتين، واحدة رسمية والأخرى ســـرية. لـــذا هنالك مكانان شاغران. هذه المرأة في قمة الخضوع ولو أمـــرها بأن ترمي بنفسها في نهر التيفر بروما أو في النيل، لفعلت دون أدنى ترددا في نهاية المطاف نظرت إلي وهي تغادر البيت قائلة:

«لا تترددي في الاستعانة بـــي، نحن أخوات».

شـــكرتها واتـــصلت بأنجلا وأنيتا ورويت لهما الحلقة الجديدة من المسلـــسل "طلاق على الطريقة الإسلامية في حي ماركوني". حضرتا علـــى عجـــل، هـــذا دليل على عمق صداقتنا. أعدت تلخيص الحلقة السابقة لأن في الإعادة إفادة. انتهزت أنيتا الفرصة للتنفيس عن غضبها الدفين:

«الرجال أبناء حرام، إنهم متسلطون ومتجبرون. يجب إخصاؤهم جميعا».

أما أنجلا فألقت باللائمة على مؤسسة الزواج. وشرحت نظريتها قائلـــة: «إن وجد الزواج وجد الطلاق». ثم راحت تحثني على استعادة حريتي كاملة بلا نقصان: «لقد حان الأوان يا صوفيا كي تتحرري من هـــذه التقاليد الذكورية البالية وتتخلصي من هذا الحجاب الملعون». لم أرغـــب في مناقشتها في مسألتي الحرية النسوية والملبس، فقد سبق وأن تحدثنا في هذا الموضوع. لا أعتقد أن الفتيات اللواتي يظهرن عاريات في المجـــلات أو نصف عاريات في التلفزيون هن حرات حقا. إنهن ضحايا النموذج الاستهلاكي الذي يحول جسد المرأة إلى مجرد سلعة.

عيسى

أيقظـــني صابر في حدود السابعة صباحا. همس لي في أذني حتى لا يوقظ بقية النيام أن فيليشي ينتظرني عند مدخل الشقة. ماذا يريد مني؟ هل اكتشفوا كل شيء وقرروا التخلص مني؟ هل دقت الساعة الموعودة لتنفيذ عمليتهم الإرهابية؟ نهضت من السرير متثاقلا وانتعلت الشبشب وخرجت من الغرفة. رأيت فيليشي مستندا إلى باب الشقة وحدقت في يديه بطريقة عفوية: هما فارغتان، هذا يعني أنه لا يحمل سلاحا ناريا أو أبيض. عادت إلى ذاكرتي اللقطات الأخيرة لشريط فيديو يعرض مشهد ذبـــح الـــشاب الأمريكي المسكين نيك بيرغ المختطف في العراق عام 2004. يا للبشاعة!

«صباح الخير يا فيليشي».

«صباح النور يا عيسى، أنا آسف على الإزعاج».

«آش لمّة؟».

«عايز منك خدمة كبيرة».

«تفضل قول».

«مش هنا، تعال نخرج أحسن».

طلبت منه أن يمنحني عشر دقائق حتى أذهب للمرحاض وأغسل وجهـــي وأرتـــدي ملابسي. استغرقت وقتا أقل لأني لم أجد طابورا. الـــتحقت بفيليشي الذي نـــزل ينتظرني تحت العمارة. اقترحت عليه الجلوس في المقهى ولكنه رفض لأنه مشغول. عندئذ سألته:

«آش لمة يا فيليشي؟ انت ظاهر عليك تاعب!».

«عملت مصيبة».

«اش عملت؟».

«مراتي مابقتش مراتي، طلقتها للمرة التالتة».

روى لي القصة من أولها إلى آخرها. هذه أول مرة يخبرني فيها عن تفاصيل حياته الزوجية. مثلا: صوفيا لا تحبه كما يحبها ولا تريد أن تنجب منه طفلا آخر. هو يرغب في ابن يمنحه اسم والده المتوفى قبل عامين. دهشت عندما رأيت دموعه تنهال على خديه. كان قلقا جدا على مستقبل ابنته. اعترف بمسؤوليته وقال مرارا: «الغيرة مرض خطير». اشتكى بأنه لا يمكنه حتى لمسها، فهي صارت محرمة عليه. ولا يمكن أن تعود إلى عصمته إلا في حالة واحدة: الزواج من رجل مسلم آخر ثم تتطلق منه. يا لها من شقلبة دينية رائعة.

«أنت الوحيد يا عيسى اللى يقدر يخرجني من الزفت اللي أنا فيه دا».

«أنا؟ كيفاش؟».

«تتجوز مراتي».

«واش؟! نتزوج مرتك؟!».

«إنت ابن حلال يا عيسى وأنا باثق فيك».

وتطرق فيليشي إلى التفاصيل العملية، أهمها أن زواجي من صوفيا لا بد أن يكون حقيقيا وليس شكليا. بالعربي الفصيح: عليّ أن أجامعها على سنة الله ورسوله! لم أجرؤ على سؤاله كم مرة يتعين عليّ إتيانها. نحن الذكور مسكونون بهاجس الكمية فيما الإناث يركزن على النوعية والجودة. لماذا تخطر على بالي مثل هذه الأفكار السطحية المبتذلة؟! بدأ الصداع يغزو دماغي، لم أتناول قهوة الصباح.

استعمل فيليشي كل الوسائل لإقناعي حتى أنه استشهد بحديثين للنبي محمد، الأول عن الصداقة والثاني عن التضامن. وذكر آية قرآنية لم أفهم صلتها بموضوعنا. أنا متضامن معه ولكن كيف لي أن أرضيه؟ هو يريد غلق الملف بسرعة حتى لا يفسح المجال للقيل والقال. يساورني بعض الشك في أن محاولته ستنجح، فأخبار من هذا النوع تنتشر في رمش العين في ماركوني. قد يصل صداها إلى الجزيرة. أتخيل العنوان الرئيسي في حصاد اليوم: **مهاجر مسلم يريد تزويج زوجته!** خبر كهذا سينافس بلا شك ظهور أسامة بن لادن حصريا بالصوت والصورة. عند افتراقنا عانقني بحرارة وتواعدنا على مواصلة الحديث في المطعم مساء.

أسرعت الخطى إلى المقهى وطلبت فنجان قهوة لمقاومة الصداع. أنا وصوفيا سنتزوج. من يصدق؟ أنا أحبها، لا داعي للنفي. إني أفكر فيها باستمرار. كم سيكون رائعا لو تزوجنا واختفينا عن الأنظار، بعيدا عن ماركوني وجودا وفيليشي وعن الدنيا كلها. أنا وهي فقط. لن أعارض إذا أرادت أن تحتفظ بابنتها. لا مشكلة، أنا مستعد لأحل محل والدها الحقيقي. ما أجمل أن أصحو وأجد صوفيا بجانبي. أنظر في عينيها وأشد على يديها وأقبل شفتيها. هل أنا في الواقع أم في الخيال؟ ما هذا الهذيان؟! لا، يجب أن أفكر بالعقل لا بالعواطف. آه من هذا الصداع اللعين! فنجان واحد من القهوة لا يكفي، طلبت فنجانا آخر. الهروب مع صوفيا، ما أروعها من خطة. أين يمكن أن نذهب؟ إلى صقلية أم إلى تونس؟ يجب أن نمحي جميع آثارنا كما يفعل العملاء السريين عندما يضعون حدا لنشاطهم ويرغبون في تغيير حياتهم. إنهم يقطعون كل الجسور وراءهم. الزواج من صوفيا! اللعنة على القحبة الخنزيرة لا أزال أهذي! هذه القصة ليس لها أي مخرج، فلماذا أخدع

نفسي؟ يجب أن أعترف لها بالحقيقة كل الحقيقة: أنا إيطالي غير مسلم جئت أتجسس عليهم ولست مهاجرا تونسيا مسلما. أنا متأكد أنها لن تفهمني ولن تسامحني أبدا. يكفي أن أتخيل المشهد التالي:

«أريد أن أبوح لك بسر يا صوفيا».

«قل لي يا عيسى».

«أنا اسمي كريستيان وليس عيسى».

«حقا؟! من تكون إذن؟».

«أنا إيطالي».

«حقا؟!».

«نعم، أنا أشتغل جاسوسا لدى الاستخبارات الإيطالية».

«ماذا تقول؟!».

«رأيتك عارية في السرير مع فيليشي».

«أنـــت أحقـــر انسان عرفته في حياتي، لا أريد أن أرى وجهك أبدا».

صوفيا

بعد يومين على الطلاق رقم 3 جاء الباشمهندس إلى البيت مبكرا. بـــدت علامات الإرهاق والحزن بارزة على وجهه، لا شك أنه قضى لـــيلة بيضاء. ما العمل؟ ما بيدي حيلة. طلبت من سارة الذهاب للعب في غرفتها وجلسنا نحن الاثنين في الصالون. حاولت الاستماع إليه من بـــاب الأدب فقط، فليس لدي أدنى رغبة في الحديث أو سماع تبريراته. بعد صمت وجيز، نظر إلي قائلا:

«لازم نلاقي مخرج».

«مخرج؟!».

«أيوه».

«مخرج ايه؟ ما فيش مخرج».

«كل عقدة وليها حلاّل».

«عايزة أفكرك إن الطلاق التالت نهائي».

«الطلاق التالت كمان عنده حل».

«تقصد إيه؟».

«لازم ندور على محلل».

«محلل؟! إنت بتهزر ولا إيه؟!».

«لا، أنا ما بهزرش».

الباشمهندس أي زوجي السابق لا يمزح إطلاقا. عادت إلى ذاكرتي مـــشاهد من مسرحية "الواد سيد الشغال". حاول إقناعي أن المحلل لا

يتعارض مع تعاليم الإسلام. ثم أفصح عن اقتراح: المطلوب مني الزواج مـــن رجـــل آخـــر مـــسلم العقيدة بالطبع ثم أتطلق منه. بعدها يحق للباشمهـــندس أن يتزوجني ثانية على سنة الله ورسوله. تظاهرت بالغباء وسألته:

«أفهـــم من كدا إنك عايزني اتجوز واحد مسلم على الورق بس، مش كدا؟».

«اتقي الله. أنا مسلم وبخاف ربنا. مش عايز أتحايل على ديني».

«تقصد إيه؟».

«الجواز لازم يكون بجد».

لم أصـــدق أذني. يـــريدني أن أتزوج رجلا وأقتسم معه ملذات الفـــراش. الباشـــا يعاملني كسلعة، تباع وتشترى. حاولت التحكم في أعـــصابـــي حتى يفرغ ما في جعبته. قال لي إن أبغض الحلال إلى الله الطـــلاق وإنه يسلط سيف المحلل على رقبة الزوج المتجبر الذي يطلق امـــرأته ثلاثا حتى يذوق المذلة والمهانة. ما أقسى ما تكون على الزوج رؤيـــة أم أولاده في أحضان رجل آخر. أما الزوجة المسكينة (في هذه الحالـــة أنـــا المقصودة) لا شأن لها ولا كرامة. شعرت أن صبري على وشك النفاد وفكرت أن أقول له: «غور إنت والمحلل الزفت بتاعك في ستين داهية»، ولكني تراجعت. فضلت الاستمرار في طرح الأسئلة:

«هتلاقيه فين المحلل دا؟».

«أنا خلاص لقيته».

«صحيح؟».

«أيوه».

«ما تقولليش إنه حنفي بتاع Little Cairo».

«لا، أنا ما بتقش فيه».

«عندك حق، بيقولوا متجوز تلاتة. ولو كدا أنا ممكن أبقى الرابعة ايه رأيك؟».

«لا، مش حنفي».

«ما تقولليش إنه الإمام الجزار؟».

«لا مش هو برضه. عموما يُفضل إنه ما بيبقاش مصري».

«طب إذا كان ما كانش مصري هيبقى مين يعني؟».

«صاحبـــي عيسى».

«التونسي؟!».

عيـــسى التونـــسي المدعو مارشلو العربـــي! يا لها من مفاجأة! مسلـــسل "طلاق على الطريقة الإسلامية في حي ماركوني" يفوق جميع المسلـــسلات تـــشويقا! هـــل يجب أن أقبل هذا العرض المغري دون استـــشارة أهلي وصديقاتي سميرة وأنيتا وأنجلا؟ في نهاية المطاف قلت له إنني موافقة مبدئيا على مرشحه.

في العصر قررت الذهاب إلى «القاهرة الصغيرة» للاتصال بأهلي من أجل طمأنتهم. عندما دخلت رأيت مارشلو العربـــي جالسا يتابع الجزيرة. قررت أخذ زمام المبادرة. اقتربت منه وعرضت عليه أن نلتقي في مكتـــبة ماركـــوني حتى نتحدث على راحتنا بعيدا عن أنظار الناس وبـــالأخص حنفـــي. انتظـــرت قدومه على أحر من الجمر ربع ساعة كاملة. كنت أريد أن أسمع منه إجابة بسيطة على سؤال أبسط: «إنت موافق على الجوازة ولا لأ؟». ما أتعس مشهد المرأة المطلقة التي تبحث عـــن زوجـــا جديـــدا ينقذها. بعد أن تأكدت أن الباشمهندس أحاطه بتفاصيل الموضوع، سألته دون مقدمات:

«إنت موافق على الجوازة ولا لأ؟»

«يعني نعرّسو ونطلقو هكا ترجعي لفيليشي».

«لا، مش عايزة أتزوج فيليشي تاني. قصتنا انتهت خلاص».

«فيليشي صاحبـــي وما انّجّمش نخونو».

«لـــيه بتتكلم عن الخيانة؟ إحنا ما بنعملش حاجة بتغضب ربنا. دلـــوقتي أنا ست مطلقة وبقدر أتزوج تاني بشرط يكون مسلم زيك. الإسلام واضح في النقطة دي».

«ما انّجّمش».

«ليه ما تقدرش نجوز على سنة الله ورسوله؟».

«ما انّجّمش».

«مش عايز تجوز واحدة مطلقة معاها بنت، مش كدا؟».

«لا».

«عايـــز تعمـــل زي الانـــتحاريين اللي بيحلموا بالعذارى، مش كدا؟!».

«لا».

«طب قل لي ليه؟».

مارشلو العربـــي يحبني. يظهر ذلك من عينيه. وأحسست به أكثر عـــندما وضع يده على يدي. ولكني أراه مترددا جدا. لدي انطباع أنه يخبـــئ سرا لا يستطيع أن يبوح به. إنه يذكرني بمارشلو ماسترويانى في "أنطونيو الجميل"، وهو يخفي عن زوجته عجزه الجنسي بشتى الحيل أو في "نهـــار غـــير عادي" حيث لا يشارك صوفيا لورين في لعبة المغازلة والإغـــراء لـــسبب بـــسيط وهـــو أنه شاذ. ماذا تخبئ عني يا مارشلو العربـــي؟ قد يكون متخوفا من مسؤوليات الزواج. لا يجب أن أنسى أنني مطلقة ولي طفلة صغيرة أنجبتها من رجل آخر. ثم أنا أعرف الرجال العـــرب لديهم هاجس واحد: البكارة! يا حسرتي أنا لست عذراء. ما العمل؟ أستطيع أن أستعيد بكارتي، إذا كان لابد منها، بجراحة تجميلية.

أحسست أن هذا الشاب يحبني حقا، ولكنه ... خائف. خائف مـــن ماذا؟ وممن؟ أنا أثق في حدسي الأنثوي، أنا متأكدة من أنه يخفي عني شيئا. لماذا لا تقول لي كل الحقيقة يا مارشلو العربـــي؟

عيسى

ذهـــبت إلى «القاهرة الصغيرة». لم تكن لدي رغبة في الاتصال بأسرتي التونسية. لا أريد أخبارا جديدة، ما عندي يكفي ويزيد. جلست لمـــشاهدة الجزيـــرة ومتابعة إعادة بث حلقة من برنامج سياسي. هناك ثلاثـــة ضـــيوف في الأستوديو في لندن وضيف رابع باتصال بالصوت والـــصورة مـــن نيويورك يتجادلون ويتشاجرون حول الموضة الجديدة الرائجة في الأنظمة العربية: توريث الحكم من الآباء إلى الأبناء.

رغـــم أهمية هذا البرنامج الحماسي المشوق إلا أنني لم أقدر على التركيـــز، فـــصورة صوفيا لم تفارق تفكيري. هل أخبر النقيب جودا بالأمـــر؟ هل أتزوجها دون الاكتراث بالعواقب؟ سأندم لو فرطت في حـــب كهـــذا. تـــوقفت عـــن الهذيان عندما تنبهت إلى صياح أحد المـــشاركين في البرنامج، وهو معارض عربـــي في المنفى: «يا جماعة، دي بلد مش مصيف واحد يورثه لولاده. إحنا في الحضيض ومش معقول الوضع يستمر. إحنا كعرب نستاهل الشفقة. لازم...». لم أستمع لبقية الشكوى لأنني أبصرت صوفيا تخرج من غرفة الهاتف وتتجه نحوي:

«صباح الخير».

«صباح النور».

«عايز أتكلم معاك».

«حاضر».

«نلتقي في مكتبة ماركوني بعد عشر دقائق».

تظاهرت بمتابعة البرنامج ولكن ذهني كان في مكان آخر. غادرت «القاهرة الصغيرة» بعد خمس دقائق حتى لا أثير الشبهات. عبرت سوق ماركوني باتجاه المكتبة. صعدت إلى الطابق العلوي فوجدتها في انتظاري. ولم يمض وقت طويل حتى عاجلتني بالسؤال: «أنت موافق على الجوازة ولا لأ؟».

أتساءل دائما: «لماذا من شيمة النساء الاستعجال؟». لا أريد أن أسمع هذا السؤال، على الأقل الآن. إنه فخ، لا أستطيع أن أجيب بالإيجاب والنفي. لا يمكن اختصار الألوان في الأبيض والأسود، إما هذا أو ذاك. الحقيقة أنني خائف من أن تضيع مني. حاولت أن أكسب بعض الوقت، فرحت أستمع إلى روايتها على ما جرى، وهي لا تختلف عن رواية فيليشي، ما عدا نقطة واحدة: فيما يحتفظ هو على بصيص من الأمل، ترى هي أن الحبل قد انقطع إلى الأبد. الطلاق الثالث نهائي. تأثرت كثيرا عندما أبصرت دموعها. فكرت أن أحتضنها ولكني تراجعت. اكتفيت بوضع يدي على يدها. هذه المرة الأولى التي ألمسها. شعرت بشحنه كهربائية تسري في كل أوصالي.

تحلت صوفيا بالصبر، حاولت أن تطمئنني. لديها رؤية حول المستقبل. دعتني أن لا أهتم كثيرا بالجانب الاقتصادي، فهي تعرف وضعي، اليد قصيرة والعين بصيرة. وقالت لي إنها لن تبقى مكتوفة اليدين بل ستشتغل كوافيرة (إنها المرة الأولى التي أسمع عن كوافيرة محجبة في إيطاليا)، وإنها ماهرة ولها الكثير من الزبونات. في نهاية المطاف اتفقنا على الالتقاء في اليوم التالي في نفس الموعد والموضع لمزيد من البحث في الموضوع.

خلال العصر تلقيت مكالمة هاتفية من النقيب جودا يريد أن يراني فورا في مقهى بالقرب من ساحة دبلا راديو وليس في مكاننا المعتاد في

شـــارع ناتـــزيونالي. لم كل هذا الاستعجال؟! عندما وصلت إلى عين المكـــان، وجدتـــه جالـــسا في ركن استراتيجي يسمح له بمراقبة كل التحركات. بدا لي هادئا.

«مرحبا يا تونسي».

«مـــاذا حدث؟ لماذا طلبت مني الحضور على عجل والالتقاء في هذا المكان؟».

«اجلس».

«لماذا لم تلتزم بالاحتياطات العادية؟».

«اجلس، يجب أن نحتفل».

«وماهي المناسبة هذه المرة؟».

«مهمتك انتهت. يمكنك أن تعود إلى صقلية اليوم إذا شئت».

«ماذا تقصد؟».

«لقد تعرفنا على اسمي الانتحاريَين».

«ومن هما؟».

«صديقك فيليشي وزوجته».

«صوفيا؟!».

«هي بالذات. يا له من صيد ثمين. إنها المرأة الانتحارية الأولى في الغرب».

«هل أنتم متأكدون؟!».

«متأكدون جدا».

أخـــبرني النقـــيب جودا بنبرة المنتصر أنه فيما نحن نحتفل بنجاح العملـــية، تشن قوات الأمن حملة اعتقالات للقبض على حنفي والإمام زكـــي المدعـــو "السينيور حلال" وأبو بكر الإيطالي المسلم والزوجين فيليشي وصوفيا (ألم يسمع بقصة الطلاق الثالث؟!). وقال لي إن ندوة

صـــحفية في طور الإعداد في صباح اليوم التالي للكشف عن ملابسات عملية القاهرة الصغيرة. وسيشارك فيها مسؤولون إيطاليون وأمريكيون ومصريون على أعلى مستوى. أشار إلى أن مفاجآت سارة تنتظرنا نحن الإثـــنين. أما هو فسيرقى إلى رتبة رائد أما أنا فسأحصل على مكافآت مالـــية وعـــروض عمل داخل إيطاليا وخارجها. ثم قال لي إن فيليشي وزوجـــته نـــشرا خبر طلاقهما الثالث للإعلان عن بداية العد التنازلي للعملية الإرهابية. في الحقيقة كانا يريدان أن يموتا مطلقين حتى يتزوجا من جديد في الجنة. لم أقدر على الصمت. قلت للنقيب جودا:

«اعذرني، إني لا أرى أدلة أو أية مؤشرات».

«مـــاذا تقـــول يا تونسي؟! لدينا أطنان من الأدلة للقبض عليهم جمـــيعا. خلال السنوات الأخيرة أعتقل في إيطاليا الكثير من المهاجرين المسلمين بتهمة بالإرهاب و لم تكن ثمة أدلة وإنما شبهات. أين المشكلة؟ نحن متأكدون أنهم إرهابيو ماركوني».

«هل عثرتم على المتفجرات مثلا؟».

«لا، ولكننا دبرنا أمرنا».

«دبرتم أمركم؟! كيف؟».

«في اللـــيلة الماضية وضعنا كمية معتبرة من المتفجرات في مسجد السلام».

«إذا تريدون توريطهم!».

«هل أنت معنا أم معهم يا تونسي؟».

«أنا مع الحقيقة».

«أكرر لك مرة أخرى أنهم ليسوا أبرياء، هل فهمت؟ المتفجرات هـــي فـــخ لإجبارهم على الاعتراف، وإلا القضاء سيفرج عنهم جميعا ونتحول نحن إلى مسخرة».

«أنا آسف ولكني لست موافقا».

«لا يهمني رأيك، المطلوب منك تنفيذ الأوامر فقط. وأحذرك من العصيان».

«هل هذا تهديد؟».

«قلت لك مرارا إننا في حرب: إما أن تكون معي أو ضدي. لن أسمح لك أبدا بإفشال العملية».

«أنـــا لـــست خائفا منك. لقد عشت مع هؤلاء، أنا متأكد من براءتهم».

«يـــا عزيـــزي تونسي، إنك تجبرني على استعمال وسائل أخرى لإقناعك. هل تذكر السهرة الماجنة مع الفتاة اللبنانية؟ عندما استيقظت في صـــباح اليوم التالي، ألم تجد شابا عاريا زنجيا ممددا إلى جانبك؟ أنت لا تعرف بالتأكيد ماذا جرى في تلك الليلة، أما أنا فلدي تسجيل فيديو ممـــتع جـــدا. هـــل فهمـــت قصدي؟ يمكنني أن أرسل نسخة لأهلك ومعارفك أو أنشره في الانترنت. ما قولك؟».

«أقول إنك ابن قحبة!».

«أو يمكننا أن نضيف اسمك إلى قائمة الإرهابيين. من السهل أن نخـــتلق لك قصة، مثلا جندتك القاعدة خلال إحدى سفرياتك إلى الـــبلدان العـــربية. على ذلك لن تكون مجرد إرهابـــي وإنما خائنا كـــذلك. ستـــسميك الـــصحافة "عيـــسى الأفغاني" أو "الطالباني الإيطالي"!».

«أنت ابن قحبة».

«صدقني أستطيع أن أدمرك أنت وعائلتك بلا جهد. وكما يقول زملاؤنـــا في المهنة: عندما تجد نفسك محاصرا، حاول أن تنحو بطيزك بأي ثمن!».

«يا ابن حرام».

«الآن فـــات الأوان، لا تـــستطيع التراجع، نحن على متن نفس الباخرة ويجب أن نبقى متحدين. تذكر أننا نخوض حربا».

«يا ابن القحبة».

«ربما نسيت الإيطالية، هل تريد أن نتحدث بالعربية؟».

كدت أن يغشى علي من هول المفاجأة. النقيب جودا يتقن اللغة العـــربية، لـــه لكـــنة شـــامية. روى لي قـــصته باختصار كعميل في الاستخبارات الإيطالية، إذ قضى سنوات طويلة في البلدان العربية.

«لم تكن صادقا معي يا تونسي. أخفيت عني الكثير من المعلومات كقـــصة غرامك. لقد وقعت في عشق إرهابية انتحارية! هل أنت واع بخطورة الوضع؟».

كان النقيب جودا اللعين على علم بقصتي مع صوفيا منذ البداية. لقـــد اقتفوا أثري وراقبوا تحركاتي ليل نهار. لم تكن لدي أي رغبة في الكلام، ففضلت الاستماع.

«أكرر السؤال للمرة الأخيرة يا تونسي: هل أنت معي وضدي؟».

«ولد حرام».

«هل أنت معي أو ضدي؟».

«أنا معك».

«برافو يا تونسي، أحسنت القرار ولن تندم. الآن يمكنك أن تقرأ التقريـــر الوجيز الذي سأقدمه للمسؤولين عن عملية القاهرة الصغيرة. أرغب في الاستفادة من ملاحظاتك».

أخـــذت منه الوثيقة ولاحظت أنها تحمل أختاما رسمية، ولكن لا تتخللها كلمات وجمل محذوفة كالمرة السابقة. أما الخط، فيدل على أنها رقـــنت علـــى الآلة الكاتبة. واسم العملية يحيل إلى عنوان كتاب شهير

للكاتب الإيطالي كارلو ليفي "المسيح توقف في إيبولي". استجمعت ما تبقى لي من قوة وشرعت في القراءة.

الموضوع: عملية كريستيان توقف في حي ماركوني

سمعت عن كريستيان مزاري المدعو عيسى للمرة الأولى من زميل كان في مهمة في بلد عربي. قال لي إنه التقى بشاب صقلي يتحدث العربية أفضل من العرب. تولد لدي الفضول لمعرفته.

تابعت تحركاته طوال السنتين سواء في صقلية أو في بعض أسفاره في البلدان العربية. لقد درسته عن قرب لاكتشاف مواطن القوة والضعف في شخصيته.

يملك كريستيان مزاري مؤهلات عديدة.

ولا، لديه ملامح متوسطية.

ثانيا، يتحدث العربية كأنه عربي الأب والأم.

ثالثا، ذكي جدا.

رابعا، يتمتع بذاكرة قوية.

إن عملية القاهرة الصغيرة Little Cairo تدريب جيد. كانت الغاية هي اكتشاف خلية إرهابية وهمية في منطقة ماركوني. لقد أثبت كريسيان على مقدرة معتبرة للتأقلم وتحمل مشقات كبيرة كالعيش مع أحد عشر شخصا في شقة صغيرة والعمل في مطعم كغاسل صحون ومساعد طاهي البيتزا. كما أنه أفلح في التحكم في حياته المزدوجة.

وبناء على ما ورد أعلاه فالمعني بالأمر نجح في الاختبار كما يمكن اعتبار الفترة الاختبارية تدريبا عمليا على القيام بالمهمات الخطيرة مستقبلا في إيطاليا أو في الخارج.

ويتوقف الأمر الآن على القرار الذي سيتخذه بشأن عرضنا للعمل معنا.

روما، 24 جوان 2005

فرغت من قراءة الوثيقة مدهوشا. كنت كالغريق الذي بدأ يتنفس بعد ثوان من الاختناق. قررت أن أقلب الأدوار، هذه المرة أريد أن أكون أنا السائل وجودا هو المجيب.

«إذا عملية القاهرة الصغيرة مجرد تمثيلية؟».

«إنه اختبار وتدريب معا».

«أهو برنامج الكاميرا الخفية؟».

«فلنقل إنك شاركت في عملية تدريبية تستجيب لمقاييس دولية. نجحت في تخطي العديد من العقبات ولكنك فشلت في مسائل أخرى مثل امتحان المرأة».

«امتحان المرأة؟!».

«إذا قررت مزاولة مهنتنا، فإنه يتعين عليك الالتزام بمبدأ حيوي: يجب أن لا تعشق النساء وإنما تقتصر على جماعهن فقط».

«إذا لا يوجد إرهابيون وانتحاريون في ماركوني».

«لا».

«لم يعتقل أحد ولا ندوة صحفية».

«لا شيء من هذا القبيل».

«ماذا عن جيمس الأمريكي؟».

«إنه إيطالي مثلنا. وهو زميل».

«وعنتر؟».

«نفس الشيء. لقد نجحا هما أيضا في الاختبار مثلك».

«وماذا عن صور حنفي في مكة؟».

«لا علاقة له بالإرهاب. هو زير نساء لا أكثر ولا أقل».

«أنت ابن حرام يا جودا».

«أعـــرف. لهـــذا السبب اخترت اسم الخائن جودا وليس عيسى مثلك! ماذا قررت؟ هل تريد العمل معي؟».

«يجب أن أفكر».

«هكذا يقول الجميع قبل الموافقة! ولكن يجب أن تقرر بسرعة يا تونسي، فنحن في حرب ضد الرعب».

«War on terror؟! لا تقل كلاما فارغا!».

روما - برلين - الجزائر العاصمة

2006 - 2010

أشـــكر كـــل مـــن ساعدني في إنجاز هذه الرواية، وأخص بالذكر فرانشيـــسكو لـــيجّو ووسيم دهمش وكمال الرياحي وفيفيانا بانسا ودانييلـــي كاســـتلاني بيريلـــي وفيديـــريكا مازارا وغراسيا نيغرو وماريغاراســـيا دي لـــوكا وبـــشير مفتـــي وروبـــرتو دي أنجليس ومنصورة عز الدين ولورانزو ترومبيتا وعدنان المقراني ودانييلي كومبرياتـــي وســـاندرو فيرّي وبشار شبارو وليديا رفيلّو وغوردنا غابيتنيلّو وماركو حمام وشيرين حيدر وأرماندو نيشي ومهدي النمر وآسيا موساوي وستيفانو بلاسوني وسمير قسيمي وديانا لانغوني ولوشانا مينّا وكلاوديو شيشارلي وإيريني أنيلّو وجاني سكويلانتي وآنا ليزا بالّوتي وسعد القرش وبياتكلماريا سكارشا أمورتي.

عمارة لخوص

مـــن مواليد الجزائر العاصمة عام 1970، تخرّج من معهد الفلسفة بجامعـــة الجزائر. واصل دراسته في حقل الأنثروبولوجيا في جامعة روما إلى غايـــة حصوله على الدكتوراه. يقيم في العاصمة الإيطالية منذ عام 1995. يكتب باللغتين العربية والإيطالية.

نـــشر روايته الأولى "**البق والقرصان**" في طبعة مزدوجة اللغة عربية وإيطالـــية (ترجمة فرانشيسكو ليجّو) في روما عام 1999. وصدرت روايته الثانـــية "**كـــيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك**" في الجزائر عام 2003 (منشورات الاختلاف) والطبعة الثانية في بيروت (بالاشتراك مع دار العربية للعلوم ناشرون). أعاد كتابة هذه الرواية بالإيطالية وصدرت عن دار النشر E/O عام 2006 بعنوان آخر هو "**صدام الحضارات حول مصعد في ساحة فيتوريو**" *(Scontro di civiltà per un ascensore a piazza Vittorio)* حـــيث نالت نجاحا كبيرا في إيطاليا وخارجها، إذ ترجمت من الإيطالية إلى الفرنسية والإنكليزية والهولندية والألمانية وأخيرا إلى الكورية.

كما تم تحويلها إلى فيلم سينمائي من إخراج إيزوطا توزو. عرض في قاعات السينما الإيطالية هذا العام.

حـــاز علـــى جائزة فلايانو الأدبية الدولية عام 2006، إضافة إلى جائزة المكتبيين الجزائريين عام 2008.

أعـــاد كتابة "**القاهرة الصغيرة**" باللغة الإيطالية وستصدر في سبتمبر القادم عن دار النشر E/O بعنوان مغاير هو "**طلاق على الطريقة الإسلامية في حي ماركوني**" *(Divorzio all'islamica a viale Marconi)*.

القاهرة الصغيرة

رواية

عمارة لخوص

لكشف عملية إرهابية مرتقبة وصلت أخبارها إلى الاستخبارات الإيطالية. وقع الاختيار عليه لكفاءته اللغوية وقدرته على التحدّث باللهجة التونسية بطلاقة. يباشر كريستيان مهمته السرية بعد أن يتقمص شخصية عيسى التونسي ويتحوّل إلى شاب بشارب بارز يعمل غسالاً للصحون ويقيم في بيت جماعي لا يملك فيه سوى الفراش الذي ينام فيه. يتقاطع مصيره مع مصير صوفيا الشابة المصرية المحجّبة التي تعيش مرحلة عصيبة في حياتها، إذ تضع ثقافتها العربية الإسلامية تحت مجهر تجربتها مع البيئة الجديدة المختلفة لغوياً ودينياً وثقافياً.

القاهرة الصغيرة هي كوميديا على الطريقة الإيطالية تتداخل فيها العديد من المتناقضات: الانفتاح والانغلاق، الجد والهزل، المعقول والعبثي، الأمل واليأس، الحب والخوف.

• روائي جزائري مقيم في إيطاليا يكتب باللغتين العربية والإيطالية.

صدر له:

- رواية «البق والقرصان» وقد ترجمت إلى الإيطالية
- «كيف.. ترضع من الذئبة دون أن تعضك» وأعاد كتابتها بالإيطالية وترجمت إلى عدة لغات وحوّلت إلى فيلم سينمائي
- حاز على جائزة فلايانو الأدبية الدولية عام 2006
- حاز على جائزة المكتبيين الجزائريين عام 2008

الدار العربية للعلوم ناشر
ab Scientific Publishers, Inc.
w.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وف